PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة
إفادات وفوائد في طريق الحج للشيخ عبدالمحمود الحفيان

أ.د. عبدالرحمن أحمد عثمان

مقدمة:

تهدف هذه الدراسة لتتبع طريق الحج الذي سلكه الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم الطيبي، وأهم المراكز ونقاط الارتكاز في طريق حجه، ودور ذلك في التواصل والإتصال وما نقله من معارف وفوائد عبر هذا الطريق، وتهدف الدراسة لاستجلاء دور طرق الحج في نشر العلم بالسودان ومعرفة الأثر الراد على البلدان الإفريقية. ترتكز الدراسة على مذكرات الشيخ الحفيان ولكنها تستصحب المراجع السودانية مثل طبقات ود ضيف الله والروايات الشفاهية في منهج متداخل يحاول إثراء التراث الديني في شعيرة الحج وتبيان دور الحجيج في تأسيس الأسواق وحركة البيع والشراء بالإشارة إلى اثر الحجيج في التدامج والاندماج الثقافي والتواصل بين أجزاء القارة وخلق علاقات بين المسلمين.

تستصحب الدراسة الحج في تأسيس الممارسة الصوفية عبر عدد من الشخصيات السودانية في رحلة الحج للأراضي المقدسة ويربط كل ذلك بالآثار الاقتصادية والاجتماعية على زراعة القطن في منطقة شندي وانتشار الإسلام في السودان الشرقي وتأسيس الخلاوي. وتختتم الدراسة بعدة نتائج تركز على الآثار العلمية والتعليمية والدينية والاقتصادية لرحلة الحج انطلاقا من فوائد الحج (ليقضوا منافع لهم ويذكر اسم الله). تقارن الدراسة بين دور طرق الحج ووسائله القديمة والحديثة وتخرج بتوصيات حول تعظيم دور الحج في نشر الوعي الديني بين المسلمين. لن تورد الدراسة مؤلف الشيخ عبدالمحمود كاملا، ولأغراض الدراسة ستنتقي منه معالم الطريق في الحركة وتستثني منه الاستطرادات الفقهية واللغوية والشعرية رغم أن ذلك يدل على علم غزيز وامتلاك لناصية اللغة والأدب، وتعمل الدراسة على تحليل نصوصها بمنهج تحليل المضمون لتستخلص النتائج

رحلة الحج وأدب الرحلات (الرحلة الحجازية):

يقع مؤلف الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة لمؤلفه الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نوراالدئم الطيبي الملقب بالحفيان المولود في 1260 هـ والمتوفي في- 1333هـ هذه الرحلة التي راجعها وقدم لها الشيخ عبدالجبار المبارك وخرج أحاديثها المدني محمد توم تقع ضمن أدب الرحلات في إطار ما عرف بالرحلة الحجازية وهو نوع من أنواع الأدب الذي تستمطر منه العلوم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ويوضح قدرة مؤلفه في اللغة والتواصل الجيد. وهو أدب يصف رحلات المسلمين إلى مكة والمدينة، ويلقى الضوء على معالم الطريق، ووجهاء القبائل والحكام. ويوضح طرق كسب العيش والمداخلات التجارية، واللغات كما تشرح شعائر الحج وأشواق المسلمين لزيارة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكما يقول محمد المسعودي في كتابه في وصفه الرحلة الحجازية بمؤلفه، الحج لبيت الله الحرام في أدب الرحلات يتميز بنقل مشاهدات الراحل لما حوته من ظواهر أجتماعية وعمرانية ومعرفية وثقافية خلال رحلة العبور والإنتقال بين الأمكنة، وتتبع أهمية دراسة الرحلات الحجازية في أدب الرحلات عامة ما يخلفه من علم ومعرفة بشعائر الحج وكما يقولون " شقة في البلد علم" ومن ذلك القول المنسوب للإمام الشافعي.

تغرب عن الأوطان في طلب العلا

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الاسفار ذل وغربة

وقطع فيافي وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من حياته

بدار هوان بين واشي وحاسد

وقد حظى أدب الرحلات باهتمام كبير قديما وحديثا، ومن ذلك كتب الكشوفات الجغرافية عند الغربيين، تلك الكتابات التي وصفت الطريق إلى منابع النيل

ووضحت المعالم للمبشرين الدينيين والشركات الاقتصادية والمستعمرين في التعرف على إفريقيا وساهم ذلك في نشر المذاهب المسيحية المتعددة في ربوع إفريقيا، إذ تعتبر كتب الرحلات من أوسع ابواب المعرفة والثقافة الإنسانية إذ إنها تصف الطبائع المفتاحية لثقافات الشعوب ومعتقداتها والإحاطة بالعادات والتقاليد، مما يجعلها في بعض الأحيان تبدو كعمل استخباراتي كما هو الحال في كتاب تشحيذ الأذهان في بلاد السودان للتونسي، وكما يقول آدم عبدالله، فالرحالة الأديب كالة التصوير، يسجل لنا كل ما وقع عليه بصره، وكلما لمس شعوره مما شاهده أو اكتشفه من سكان الأماكن التي زارها، ويعرف آدم أدب الرحلات بأنه مجموعة القصص الأدبية التي تقص لنا ما شوهد أو وقع في رحلة من الرحلات. فالناظر في أدب الرحلات يتعرف من خلالها على بلاد وعوالم وبيئات وطرق حياة ويمدنا بمعلومات تاريخية وجغرافية تتخللها إشارات ومعلومات عن الحياة وعادات الناس وعن المدن والأنهار والجزر والجبال والأودية ومختلف الظواهر.

وبالعودة لرحلة الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة، فإنه من الواضح أن الشيخ عبدالمحمود الحفيان الملقب بالاستاذ قد كان أديبا واسع الإطلاع وعالما فطحلا، ولابد أن تكون قد وقعت بين يديه مخطوطات في زمن ندرت فيه الطباعة من أدب الرحلات من حجاج غرب إفريقيا، ولاسيما أنه كان ذا منزلة وطريقة صوفية اشتهرت بالكرم وحسن الاستضافة.

ويأمل هذا البحث بعد التأطير لمجاله والتعريف بأدب الرحلات أن يستخرج من كتاب الدرة الثمينة وصف الرحلة نثرا ويقف على واقع الحال بالسودان على عهد الكاتب والمنازل المشهورة وأوجه الأنشطة والأماكن واستخراج الدلالات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية وفوائد هذه الرحلة بالنسبة للمسلم كما أشار إلى ذلك الله تعالي في قوله (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ{*} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ{*} ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ{*})(الآيات 27–29) سورة الحج

التعريف بصاحب الرحلة

لعله من الأوفق أن نورد بين يدي كتاب الدرة الثمينة ترجمة للسيد الشيخ عبدالمحمود الحفيان، وأفضل من نستشف منه هذا التعريف هو الشيخ عبدالجبار المبارك لصلته بالبيت الطيبي إذ يقول: هو الاستاذ القطب عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم ابن (الشيخ عبدالقادر الجيلي الباز الأشهب) ابن القطب الغوث أحمد الطيب بن البشير (راجل أم مرحي) الجموعي الجعلي الهاشمي، أما من جهة أمه فهو ابن السيدة الليمون بنت ادريس بن أحمد(ضرغام) ابن آدم ابن الملك عمر (ابوزنتر) ابن المك جيلي أبوقرون بن المك عثمان بن المك عون الله بن المك اسماعيل بن المك عمر أبوجريدة المشهور بجيلي بن محمد الجعلي بن سرور بن احمد بن إدريس بن بشارة الملقب (برباط) جد الرباطاب فوالدة الأستاذ عبدالمحمود نورالدائم بهذه النسبة رباطابية وجدودها هم ملوك مملكة تقلي الإسلامية.

ولد الشيخ عبدالمحمود بن الشيخ نورالدائم في قرية أم طريفي(ود رملي حالياً) حيث كان والده يقيم مع أخواله الجميعاب وذلك في عام 1260هـ ونشأ في حجر عناية والده، وحفظ القرآن في خلوة والده بذات القرية، وتوفي والده وهو في عمر مبكر، وفي سن التاسعة رحلت به والدته مع إخوته الصديق والقرشي ودالزين إلى قرية طيبة الشيخ القرشي غرب الحصاحيصا، حيث أتم حفظ القرآن على يد أخيه القرشي ودالزين في سن الحادية عشر، وتلقي مباديء العربية نحوا وصرفا وأدبا وبلاغة، كما تحصل علوم العقيدة والفقه على أستاذه الشيخ محمود ود زروق، وتلقي علوم التصوف والسلوك على خليفة الشيخ أحمد الطيب ود البشير وكان وقتئذ الشيخ القرشي ودالزين، وتدرج في مدارج السالكين حتى نال اعتراف أساتذته فإجازه الشيخ القرشي والزين الطريقة السمانية مريداً وشيخاً، وقد آلت إليه مقاليد الطريقة السمانية بعد وفاة أخيه الشيخ القرشي، وقد ألف العديد من المؤلفات الفقهية والشرعية والروحية، وفاقت مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً في اللغة والتصوف مكنته بعون الله وتوفيقه من الارتقاء في مدارج العطاء العلمي الملحوظ ليكون من قلائل السودانيين المكثرين في التأليف.

ينتمي الشيخ عبدالمحمود نورالدائم للطريقة السمانية الطيبية وهي من كبريات الطرق بالسودان، وهو من ألمع خلفاء هذه الطريقة، فقد شيّخ بها كثيراً من الشيوخ، وسلك على يديه الطريق الصوفي كثير من المريدين ويعتبره الباحثون (عبدالجبار

المبارك) أقوى شخصيات الطريقة السمانية تجديدا وتأصيلا للمذهب الصوفي وأكثرها عطاء علميا إلى جانب نشره للطريقة في كافة أنحاء السودان إلى جانب تفرده في ملكة النظم الشعري وتجويد النثر وكانت وفاته بطابت ظهر الأربعاء الرابع عشر من ربيع الثاني عام ألف وثلثمائة وثلاث وثلاثين للهجرة (1333هـ).

الطريقة السمانية:

أهل الطريقة السمانية بالسودان قوم من المشتغلين بالعبادة من أهل التصوف المتحابين لا تفرق بينهم أهل أبناء الروح وأبناء الجسد، أعلام بلغوا درجة عالية في مدارج القرب الإلهي بشهادات الأذواق لا شهادات الأوراق. ونهلوا من بحر تتأبى فيه المعاني الذوقية على القيد اللغوي، إلا بضرب من الصيرورة الوجودية في تنزلات البيان العربي. قوم اختصهم الله بعلم الفتح ومحبة الرسول الشيخ أحمد الطيب ودالبشير والشيخ القرشي ودالزين والشيخ عبدالمحمود ود نورالدائم صاحب الذرة الثمينة والشيخ عبدالقادر الجيلي (الباز الأشهب) ألفوا عشرات المؤلفات، وأضحت آثارهم العلمية منهجا للتزكية، وطريقا للسلوك وموردا لدقائق الحقائق.

وللسمانية مشيخة بأم درمان يقودها أعلام صاموا وقاموا وبذلوا الجهد وسهروا وتعلقوا بالذات العلية حتى أضحت بهم السمانية قبلة للمثقفين، الشيخ قريب الله والشيخ الفاتح وابنه الشيخ البروفيسور حسن الفاتح قريب الله وإخوانه عرفوا التصوف لغة، وعرفوه علما، وعرفوه سلوكا، الليل عندهم مطية السائرين إلى ربهم، ومن ليس له نصيب من الليل ليس له حظ من طريق أهل التمكين.

والسمانية في شبشة الشيخ النور من الشيخ برير والشيخ الخليفة إبراهيم والشيخ الأمين ابن الشيخ إبراهيم ومن آثارهم الشيخ السماني بالعرشكول ومن تلاميذهم الشيخ عمر محمد الصافي المعروف براجل الكريدة غرب الكوة أقام المساجد لتعليم القرآن الكريم والفقه وتربية المريدين، وقد تتلمذ عليه الشيخ وقيع الله والد الشيخ البرعي.

ولهم في رمال كردفان بذرة نمت وترعرعت وأصبحت دائرة جذب عميقة الغور، عمقها بعمق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابها، تغنوا بأفضاله وكريم خصاله، فأضحت الزريبة بهم بقعة مباركة في أرض السودان الذاكر،

يعرفها القاصي والداني، يتقاطر إليها الناس من شتى بقاع الأرض.. كيف لا وقد أحالها الشيخ عبدالرحيم البرعي وأسلافه الميامين من أرض خلوية بمكان قفر إلي ديار عامرة تعج بالحياة وتنبض بالحيوية وتتعطر أجواؤها وسماواتها دوما بالتهليل والذكر والتكبير وتلاوة القرآن.. وكم هو آخذ بمجاميع القلوب مرأي مجموعات الصبية واليافعين وهم يتوجهون إلى صلاة الفجر مهللين ومكبرين.. فهذه القرية الغراء، أشبه ببؤرة ينبثق منها شلال نور حتى يبلغ عنان السماء، ثم تنهمر قطراته تغطي كل أرجاء الوطن فتغمره بالبركات، وقد بلغت مساهمات الشيخ البرعي بناء العديد من المساجد والمؤسسات التعليمية وساهم في بناء معامل الجامعات وبنى المراكز الإسلامية وعقد في ليلة واحدة خمسة آلاف زيجة.

وفي جبل الأولياء: قمة للسمانية سمقت وطالت وطابت، واستقرت بقرية الروضة، الشيخ الياقوت وابو الشيخ محمد وجده الشيخ مالك وجد أبيه الشيخ الإمام، أخذوا الطريق السماني عن الشيخ محمد نور راجل ريبه عن الشيخ التوم ودبانقا، أقاموا المساجد وعمروا الخلاوي وحفظ القرآن على أيديهم خلق كثير، ولهم في العلاج الروحي ذراع وباع ولهم تفتح ودراية بعلوم العصر ومقتضياته، أسسوا الزوايا والخلاوي وخاطبوا الناس بوسائل التقانة الحديثة.

هذه هي الطريقة التي ينتمي إليها الشيخ عبدالمحمود وهو أحد ركائزها.

نص وثيقة الدوحة الثمينة في اخبار الرحلة إلى مكة والمدينة

تقع الرحلة في عدة فصول ومباحث مقسمة على طول الطريق إلى مكة بدأ الكتابة من قريته التي أسسها وكبرت على يديه طابت الشيخ عبدالمحمود وانتهي به في قريته.

الرحلة من طابت المحمية إلى الخرطوم:

يقول الشيخ عبدالمحمود في هذا القسم من الرحلة " أعلم أن الله تعالي لما منّ علينا بالحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بفضله وكرمه كان ذلك من طابت المحمية في يوم الخميس رابع يوم من ذي القعدة سنة أربع وعشرين من سنين العمرة بعد الثلثمائة والألف وقد اقتدينا في سفرنا في يوم الخميس بالشارع صلى الله عليه

وسلم فإنه كان لايسافر إلا فيه كما في رواية الشيخين، وإن ذكر بعضهم انه سافر في يوم السبت في بعض أسفاره.

وقد خرج معي في ذلك اليوم من الأمم ما لايحصي عددا، وقد اشتد عليهم فراقنا فمنهم الباكي ومنهم الصارخ ومنهم غير ذلك، ولم يزالوا معنا على الحالة المذكورة إلى أن وصلنا إلى القرية المسماة بالولي، فتلقانا أهلها وانزلونا في منازلهم وأكرمونا وانشرحت صدورهم بنا كثيرا.

ثم إننا من بعد طلوع شمس اليوم الثاني قد سافرنا من القرية المذكورة ولم يزل العالم متراكما علينا إناثا وذكورا، إلى أن وصلنا القرية المسماة بولد بتّرُو، بفتح الباء الموحدة وتشديد التاء المثناة ثم راء مضمومة، فتلقانا أهلها بالمحبة والاشتياق وكل واحد من أخيارها وفضلائها يود نزولنا عنده إلى أن افترقوا في طلب ذلك فرقا كادت أن تثير بينهم فتنة وما ذاك إلا من شواهد كرمهم ومحبتهم لنا لا غلا ولا حسدا، ثم اتفقت كلمتهم على أن يكون نزولنا عند خليفتنا الشيخ الخضر بن الحاج محمد، فأقمنا بمنزله بقية النهار وليلة اليوم الثالث وضحوته، وقد بالغ أهل تلك القرية في إكرامنا واكرام أصحابنا ومن معنا، ولاسيما الشيخ الخضر المذكور، والفاضل الشيخ عبدالله بن محمد بن إمام، فإنه قد جاء من محله هو واخوانه وعشيرته بهدية وذلك بعد أن طلبنا إلى محله وعذره لنا للمضايقة الحاصلة في أمر السفر، جزي الله تعالى عنا هؤلاء وغيرهم ممن قبلهم وبعدهم بأسباب كرمهم لنا خير الجزاء، وكذلك جميع من وصلنا شيء منه ولو قليلا وإنَّا بحمدالله تعالي قد دعونا للجميع بإصلاح الحال وبلوغ الآمال في محلات الإجابة بالحرمين الشريفين مكافأة لهم للحديث الوارد في ذلك عنه عليه الصلاة والسلام وهو " من أتي إليكم معروفا فكافئوه "، الحديث.

وفي هذه القرية قد جاءنا الكواهلة أهل العديد، طالبين لنا بالتوجه إلى محلهم المذكور ومنهم المقدم فضل الله بن دفع الله، وأخيه العمدة الشيخ مصفي، والصديق، وغيرهم فذهبنا معهم جبرا لخاطرهم وإرضاء لنفوسهم ومعنا جمع كبير فأنزلونا في بيوتهم وبالغوا في إكرامنا وإكرام ذلك الجمع مع ما أوصلوه إلينا من الهدية.

ثم جاءنا أهل قرية ولد الماجدي، يطلبون قدومنا معهم لأجل حصول البركة، وهم الشيخ مصطفي ولد على ولد نعيم، أحد الخلفاء في الطريقة، وكذلك الشيخ

الجيلي بن الخليفة أحمد، والفاضل جميل الله أحمد، فتوجهنا معهم، وقبل وصولنا تلقانا على مسافة بعيدة الخليفة أحمد بن محمد،خليفة ولد الماجدي مع كبره وعجزه، وقد أحب أن يكون نزولنا عنده واشتد في ذلك حتى امسك الدابة التي أنا عليها بنفسه، فاستحيت منه ووافقته على غرضه في أن يكون نزولنا عنده لكن شرطنا ألا يكون للطالبين لنزولنا سابقا عندهم إلا هذا اليوم وحده، فقبلوا قول قسمنا اليوم بينهم على ثلاثة أقسام القسم الأول عند الخليفة المذكور، والثاني عند الشيخ مصطفي ولد على نعيم، والثالث عند جميل الله أحمد، فرضوا بذلك، وافينا جميع شروطنا معهم وقد حصل لنا من هؤلاء المذكورين وأهل قريتهم إكرام دل على الإخلاص وصدق المحبة، وقد أخذ علينا الطريقة في هذه القرية أمة من الناس.

ومن قبل خروجنا منها جاءنا ولدنا المبارك الشيخ مصطفي إبراهيم، بقصيدة أنشأها من نفسه يمدحنا بها فجزاه الله تعالي خيرا على حسن ظنه بنا، وإن كنا لسنا أهلا وقد جاء في بعض القصيدة قوله:-

أمام الهدي محمود شيخ طريقنا وقطب أولي العرفان بدر الدجنة
تجلي له الباري بكنه جلاله فكدت به جبلال الجبلة.. الخ

ثم من بعد إكماله القصيدة طلب منا القدوم إلى محله والجمع لازال يزداد فذهبنا معه وقد سهر الفقراء ليلة وصولهم عنده بالذكر فحصلت للذاكرين بركة ونفحات، والمذكور بالغ في إكرام الجيش طعاما وشرابا. ومنه صار سفرنا وقد لحقنا في أثناء الطريق العمدة الفاضل الشيخ خلف الله ولد تاتاي الجعلي، وأهدي لنا شيئا للاستعانة على الحج ثم وادعنا ورجع، ولم نزل مسافرين إلى أن صار نزولنا عند الشيخ أبي عاقلة، خليفة الولي الكامل الشيخ حمد ود الترابي فاعتني بنا وأكرمنا، ونحن بمنزل الشيخ المذكور قد ورد علينا كتاب من حضرة مأمور مركز الكاملين، مضمونه التأسف على عدم لقائنا ونزولنا عنده مع ترقبه لذلك وتهيئة منازله لمزيد من التبرك والدعوة الصالحة له وغير ذلك مما يشهد بكمال محبته، وقد رددنا له ما هو لايق بمعنى جوابه ومحبته.

ومن هنا صار سفرنا ونزولنا من افاضل إلى فاضل إلى أن حطت رحالنا لدي الفاضل الشيخ على محمد الكناني، ببري، فأقام بحقنا أتم قيام، وكذلك صهره خوجلي بن أحمد، وقد بالغوا في إكرامنا على وجه الإخلاص والمحبة والأدب الكامل، وفي مدة إقامتنا بمنزل الشيخ المذكور قد زارنا صاحب المآثر الجميلة والهمم الجليلة، سعادتلو الزبير رحمة باشا، أدام الله عليه نعمه وكفاه نقمه، ثم بعد زيارته لنا زرناه بمنزله الذي بالخرطوم ورجعنا إلى بري.

مقابلة الحاكم العام في الخرطوم:

ولم نزل بمنزل الشيخ المذكور إلى أن جاء أوان سفر الوابور السواكنية، فذهبنا لسعادتو الزبير رحمة باشا بقصد الوداع فاستحسن مقابلتنا للحاكم العام ونجت باشا، فاستأذناه في السفر إلى الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذن من أول مرة على إنشراح قلب وطيب نفس. ومن ثم توجهنا إلى الحلفاية، الشرقية التي على شاطيء النيل فالتقي بنا ولدنا عوض أفندي بن محمد الكردي، فأنزلنا بمنزله وأكرمنا ومن معنا، واجتمع بنا في منزله خلق كثير منهم من جاء للزيارة والبعض منهم لأخذ الطريقة، وقد أجزنا منهم جماعة وبتنا عند تلميذنا المذكور تلك الليلة وفيها جاء لاحقا بنا الزبير رحمة باشا وتلميذنا السيد محمد الامين بن محمد عمار بقصد الوداع، وقد أهدي لنا تلميذنا المذكور شيئا من الفلوس، وقد بات المذكوران معنا إلى أن أصبح الله بالصبح.

من الخرطوم إلى سواكن:

ودخلنا الوابور ومحنلا منها أعز موضع وأشرفه، وقد صحبنا في هذا السفر جماعة من التلامذة وأولادنا كالشيخ حامد بن محمد العباسي، وولدنا الشيخ احمد الطيب، والشيخ عبدالله بن محمد بن إبراهيم، وغيرهم وعددهم يبلغ عشرين ونيفا، وقد صحبنا من الفضلاء في السفر المذكور جماعة من أعيان البلاد، كالفاضل الكامل الشيخ محمد التوم بن الشيخ طلحة بن حسين، الفولاني، وغيره من الفضلاء، ثم إن الوابور سافرت بنا عند طلوع الشمس إلى العشاء الآخرة، وعندها وصلت بنا الداخلة وقد قطعت في سبرها هذا محطات الخرطوم البحري، ثم الكدرو بضم الراء، ثم قبة الكباشي، ثم ولد رملي، ثم الرويان، ثم جبل جاري وهو المعروف بجبل قري بفتح

القاف وكسر الراء المشددة، ثم الميجة وهي فص الأصل الميكمة وإنما غيرتها الألفاظ كما غيرت قرى بجاري، ثم بان النقاء ثم القوز، ثم شندي وقد جئناها أول الظهر، ثم التراجمة، ثم كبوشية، ثم جبل أم على، ثم المحمية، ثم العالياب، ثم عشرة محطة وباتت بنا الوابور في الداخلة المذكورة وسافرت بنا منها ضحوة الأحد وليلة الإثنين وعند أول ظهر اليوم الواقع أثنا عشر يوما من سفرنا من محلنا قد وصلت بنا سوان، وقطعت في سيرها هذا الداخلة وتسمى أتبرة كما ذكرنا، ثم الزلط، ثم الهودي، ثم الدوجايا، ثم الحديقة، ثم أوجرين، ثم الذهيب، ثم توجنا ثم سقديت ثم الروجل ثم مسمار ثم مياس ثم تلجواريت ثم شدياب ثم كاس ثم إنها، ثم هيا، ثم تهاميم، ثم أورهيب، ثم براسيت، ثم براميو، ثم شكن، ثم صمت، سم سنكات، ثم أديت، ثم جبيبت، قم قمتيب، ثم إربا، ثم اسوت، ثم كموسانة، ثم اكوات، ثم أوبو، ثم أدارويب، ثم سلوم، ثم هندوب، ثم الشاطة، ثم سواكن.

لقاءات ومباحثات في سواكن:

وكان نزولنا في سواكن عند الرجل الفاضل الكريم الشيخ محمد الطاهر بن محمد كشنة واجتهد في إكرامنا ورعايتنا، وله أطال الله بقاءه أخلاق جميلة وانه تأوي الحجاج في هذه البلدة لأحد مثله، وذلك لفضله وقيامه بخدمتهم وصدور الضمانة منه لهم إذا احتاجوا إليها مع سعيه لهم بالحسنة، وقد أحسن معنا الأدب وأنزلنا في بيته الخاص به وأكرمنا ورعانا فجزاه الله خيرا.

ونحن بمنزله فقد اتصل بنا الشاب المبارك محمد المجذوب بن حمد تينة بن محمود، ورأينا منه نية صالحة وخدمنا بقية ايام إقامتنا بسواكن خدمة خالصة ليس له فيها قصد إلا وجه الله تعالى.

وايضا اجتمع بنا ونحن بالمنزل المذكور الأخ الفقيه عبدالسلام بن الفقيه محمد بن الحاج حمد التيجاني، وهو مبارك جدا وعلى بصيرة في دينه، وجرى بيننا وبينه كلام في الطريقة فحصلت منه فينا محبة قل أن توجد في أبناء هذا الزمن، وذلك لطلبه للحق وقوة إيمانه، وقد حكى لي ونحن في أثناء كلامنا معه أنه سمع والده المذكور يقول: – سألت شيخنا الولي الكامل العالم الفاضل الشيخ سعدالدين الفولاني

رحمه الله تعالي عن أكمل ولي في بلاد السودان قال:- الاستاذ أحمد الطيب بن البشير قدس سره.

ثم قال لي ومصداق هذا الكلام ما حدثتني به المرأة الكريمة الفاضلة أمونة بنت عبود،زوجة الشيخ الأزيرق رحمهما الله تعالي، فقالت: أن جميع ما حصل لي من سعة الدنيا وعمل الآخرة فهو من بركة سيدي الشيخ أحمد الطيب رضي الله عنه وذلك أني قد زرته في صغري مع والدتي فقالت له والدتي: أدع الله تعالى أن يرزق ابنتي هذه خيرا وزوجا مباركا، قالت: فوضع يده الشريفة على رأسي وقال: وهبتها خير الدنيا والآخرة، فكان الأمر كما قال أه قلت: وهذا من شواهد قطبانية الأستاذ وقوة همته العرشية وأسراره الإلهية وأنفاسه الربانية.

وصف مدينة سواكن:

ولنرجع إلى ما نحن فيه من ذكر سواكن، أعلم أن هذه المدينة واسعة جدا وفيها تجار وأغنياء وأغلب أهلها ماثلون إلى حب الدنيا والتلاهي بها والتشاغل والغالب من لغاتهم الرطانة، وطعامهم الذي يقتاتونه اللحم والأرز، وماؤهم ملح تتغير به الطباع ولهم ماء عذب في مكان مخصوص لا يتوصل إليه إلا بالشراء وهو في خارج المدينة، وأما ما بداخلها فهو ضار بالمقيمين ولاسيما الغرباء وفي البلدة المذكورة ثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة:

1- جامع العارف بالله تعالى الشيخ محمد المجذوب، ولد قمر الدين رضي الله عنه.
2- جامع السادة المراغنة،نفع الله بهم وبقرب مسجدهم هذا قبر السيد تاج السر بن السيد سرالختم.
3- مسجد الشناوي بيك.

وأكثر اعتقاد أهل هذه البلدة في السادة المراغنة وبعضهم في الشيخ محمد المجذوب، وأما القطب العظيم الاستاذ الفخيم سيدي الشيخ ابوالفتح الشاذلي، رضي الله عنه فهو مدفون خارج البلدة لكن قريب منها، وعليه قبة وله بركات مشهورة وكرامات مذكورة نفعنا الله تعالي به، والدعاء عند قبره مستجاب وقد جرب، ومدفون جوار قبته الاستاذ سيدي الشيخ عبدالرحمن،بن القطب الأعظم سيدي الشيخ احمد الطيب قدس

سره، وكانت وفاته بعد رجوعه من الحج عام تسعة وثمانين من بعد الألف والمائتين.

ثم بعد إقامتنا المذكورة صار توجهنا إلى الوابور من بعد ما أخذت منا الأجرة، الخاصة بنا ومن معنا من التلامذة والأولاد، وكذلك الأمنية والكرنتينة، والبزبورت، وذلك خاص بكل واحد من الحجاج سواء كان صغيراً أو كبيرا، وجملة ما يؤخذ من الشخص الواحد ستة عشر ريالا ونصف ريال، عشرة منها في الابنية، واثنا عشر قرشا ونصف قرش في البزبورت وثلاثة قروش في الكرنتينة، وكان دخولنا ظهر الاربعاء، وهو الرابع والعشرون من ذي القعدة.

عبور البحر الأحمر

ويصف الشيخ عبدالمحمود في هذا الجزء رحلته داخل البحر الأحمر من سواكن إلى بورتسودان التي أشار إلى أنها كانت تسمى قبلئذ بالشيخ برغوث في رحلة إلى ميناء جدة استمرت نحو من ثمان عشرة ساعة.

واصفا اجراءات تعقيم الحجيج، قائلا:

ثم بعد دخولنا في الوابور قد بتنا فيها ليلة الخميس إلى ضحوة يومه، ثم سافرت بنا إلى أن وقفت في بورت سودان وهي المشهورة قديما بالشيخ برغوث، ووقوفها هذا لأمر خاص بها ثم بعد مغيب شمس يوم الخميس سافرت بنا ليلة الجمعة وعند ضحوتها قطعت بنا مسافة البحر.

ثم جاءت السنابيك وهي سفن صغيرة حملتنا إلى موضع في جزائر البحر قريب من الساحل فيه بناء ومدير وعساكر من جهة السلطان عبدالحميد خان الأمراء المختصون به في ذلك المحل وهو الكرنتينة لتبخير ثياب الحجاج بالابخرة المعلومة لديهم زعما بأنهم يذهبون بتلك الابخرة الأمراض عنهم وفعلوا ذلك لبعض الحجاج وأما نحن فقد حفظنا الله تعالى منهم فلم يستطع أحد أن يتوصل إلينا بذلك، وكذلك جميع من رأوه محرما من الحجاج.

ثم توجهت بنا السفن إلى بر مدينة جدة بضم الجيم فجاءنا العساكر عند وصولنا إلى البر وأدخلوا الناس في حصن من الأحطاب له طريقان الأول يتوصل به

إلى الثاني، والدخول فيه بريال أبي عشرة والخروج من الطريق الثاني بقرشين، وأن وصول للحجاج إلى مدينة جدة إلا بهذين الطريقين.

أيام في جدة:

وصف الكاتب حياته بجدة وزياراته ووقف السيد أحمد بن إدريس قائلا: ومن بعد خروجنا بتنا ليلتين في المدينة، ثم إنتقلنا إلى محل ظلمة بفتح الظاء المشالة واللام ثم ميم يعدها هاء ساكنة، وهذا المحل كان سابقا ينزل فيه السيد أحمد بن أدريس، رضي الله عنه، وقد أمر السيد أحمد ظلمة أن يبني فيه بناء للحجاج، فبناه قاصدا به وجه الله تعالى.

وكذا في مدة إقامتنا بجدة قد سألنا عن أهل الطريقة السمانية فوجدنا فيها رجلا مباركا يقال له الشيخ عبدالقادر بن الشيخ محمد صالح بن الشيخ عبدالغفار تلميذ الشيخ أبي الحسن،السماني، وشهرته بين أهل جدة بقدورة فطلبنا إلى منزله.

ثم رغبنا أن نزور قبر سيدي الشيخ صديق بن عمر خان، تلميذ القطب سيدي الشيخ محمد بن عمر خان تلميذ القطب سيدي الشيخ محمد بن عبدالكريم السمان رضي الله عنه، فذهبنا إليه وذلك ليلا فوجدنا باب الزاوية التي هو بها مغلقا، وما وجدنا هناك خليفة ولا تلميذا لأن خلفاء الشيخ وتلاميذه قد انقرضوا في هذا المحل وليس له ذرية، لا ذكر ولا أنثي، ثم رجعنا إلى منزل الشيخ عبدالقادر المذكور ومنه إلى محل نزولنا سابقا.

وصف مدينة جدة

يصف الشيخ عبدالمحمود ذاكرا الإزدحام السكاني ومساجدها والطرق الصوفية بها وأسماء الحارات والعمارات المرتفعة قائلا:

وأعلم أن مدينة جدة هذه بلدة واسعة مملوءة بالخلق، وهم على أصناف متعددة وأجناس مختلفة لا يعلم مداهم إلا الله تعالى والغالب عليهم البيع والشراء، وفيها خمس جوامع تقام فيها الجمعة وهي:

1- مسجد الشافعي.
2- مسجد الحنفي
3- المعمار (بكسر الميم وسكون العين المهملة)

4- مسجد عكاشة بتشديد الكاف

5- مسجد الباشا

وفيها من الزوايا ما يزيد على عشرين زاويا منها ماهو منسوب لسيدي الشيخ مصطفي البكري ومنها ما هو منسوب لسيدي الشيخ محمد السمان، والشاذلي والسنوسي وابن ادريس الفاسي، وغير ذلك وفيها أربع حارات:

1- حارة اليمن.

2- حارة البحر.

3- حارة الشام

4- حارة المظلوم، والمظلوم المذكور رجل صالح مثل ظلمة وقبره في المدينة هذه وقد زرناه.

وأهل هذه البلدة يطيلون البناء جدا وربما قارب بعض بناياتهم نحو المائة ذراع وعليها سور ولها أبواب عليها عساكر وشرابهم من ماء الأمطار.الأحرام من جدة. ثم أحرمنا من محل نزولنا في برها ولايخفي علينا قول بعض العلماء أن الأحرام يجب أن يتم في البحر عند محاذة الجحفة فقد تبعنا في احرامنا هذا بعض النصوص القائلة بذلك قال سيدي احمد زروق رحمه الله تعالي في شرح الرسالة: لايحرم بحري إلا بعد نزوله على الساحل لاحتمال رده بالريح.

في طريق مكة:

ثم من بعد الأحرام والتلبية قد توجهنا إلى البيت الحرام فبتنا في بحره بفتح الباء وسكون الحاء وفتح الراء وهي في موضع فيه بعض جند من العساكر يأتون لمن نزل عندهم من الحجاج بالماء والحطب وماؤهم ملح.

وأعلم أن طريق الحجاج من جدة إلى مكة المشرفة كثير الماء والطعام، وذلك أن العساكر المرابطين هناك لهم مواضع، كل موضع قريب من الآخر، وفي كل واحد قهوة وطعام وشراب للذي يشتري والبعض للأجر والثواب فقط لا شراء فيه ولا بيع، وأيضا من مكة إلى منى، ومن مني إلى عرفة.

حمام الحرم في الإستقبال، وقد أعجب الشيخ عبدالمحمود بحمام الحرم حتى جعله من معالم رحلته قائلا:

ثم في بحره حصل منا السري ليلا، فلما اقتربنا من مكة ضحوة من النهار تلقانا حمامها ونزل ما بيننا ومكث مدة من غير استيحاش منا، فأخذنا من ذلك فألا، ثم إني أنشدته:-

أيا حمام الحرم المشهور	قد جئنا بكامل السرور
وما أتيت إلا بأمور	مصلحة للنفس والضمير
سر ولكن ليس يدريه سوي	حبر همام كامل نحرير
مطهر القلب من الأغيار	مستغرق في حضرة القدير

في الغسل لدخول مكة:

وبعده بيسير جاءنا المطوفون وساروا معنا إلى أن دخلنا مكة، وقد سلكنا عند دخولنا طريق البئر المشهورة بطوى للاغتسال منها، وحكم الغسل هذا أ نه هو الغسل الثاني من اغتسالات الحج، وحكمه الندب، وكذلك الغسل الذي قبله، وأما طوي المذكور فهو الوادي الذي تحت الثنية العليا وهو بفتح الطاء مقصور كما قال الاصمعي وضبطه في توضيحه بتثليث الطاء، والفتح أشهرها، وحكي القرطبي عن ابن بطال فتحها مع المد.

ثم من بعد الأغتسال بادرنا إلى دخول المسجد بباب بني شيبة المعروف الآن بباب السلام وكان يعرف قبل بباب عبد شمس وعبدمناف وهو من ثلاثة أبواب.

ويستحضر عند رؤية البيت من الخشوع في قلبه والخضوع في جوارحه ما أمكن لأن هذه عادة الصالحين وعباد الله العارفين لأن رؤية البيت تذكر وتتشوق إلى رب البيت ولا يركع الحاج تحية المسجد لأن تحيته الطواف.

وعند وقوع بصري على هذا البيت العظيم قد دخلت هيبته في سويدا قلبي وسرى حبه في كلي ولبي.

في التوجه إلى منى:

فإذا كان اليوم الثامن أحرم فيه من لم يكن أحرم قبل ذلك، ثم يتوجه إلى مني إن لم يكن يوم جمعة، وإلا فلا يتوجه إلا بعد صلاة الجمعة لوجوبها عليه إن كان مقيما، وأما المسافر فأولي به الإسراع للمناسك، وقدم بعضهم الجمعة لأدرك فضيلة الحرم.

ويسن لكل من ارد التوجه إلى منى أن يتوجه إليه بقدر ما يدرك بها صالحة الظهر فإذا وصل إلى منى نزل بها حيث شاء، ويسن المبيت بها وأن يصلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء كل صلاة في وقتها قصرا إلا المغرب واستحدث بعض العلماء النزول بمسجد الخيف فيصلي فيه الصلوات المذكورة ويتنفل عنه الأحجار التي بين يدي المنارة فإنه يصلى الله عليه وسلم صلى ثمة، كذا البنائي على منسك الحطاب.

ويذكر الشيخ عبدالمحمود أنه نزل بمسجد الخيف وصلى به قائلا: أقول وأنا بحمد لله تعالي قد نزلت في ذلك المسجد وصليت فيه الصلوات المذكورة مع المبيت وإحياء هذه الليلة بقدر الطاقة بالدعاء وغيره، وهذا المسجد المذكور كثير البركات، شهير الخيرات، قد نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى، ويواصل الشيخ عبدالمحمود وصف شعائر الحج قائلا:

في النزول بنمرة:

فإذا وصل الحاج إلى عرفات يندب له النزول بنمرة، بفتح النون وكسر الميم وراء مهملة ويجوز أسكان الميم مع فتح النون وكسرها، قال الفاسي عن المحب الطبري موضع بعرفة وهو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم على يمين الداخل من المأزمين، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تنزل بها ثم تحولت إلى الاراك.

قطع التلبية:

~~ويتوجه الحاج من بعد غسله إلى مسجد نمرة ويستمر يلبي إلى رواحه مصلى عرفة فينتظر الأقصر منهما أي من رواح مصلى عرفة ومن زوال الشمس، ثم يقطع التلبية فلا يلبي بعد ذلك على المشهور إلا أن يكون أحرم بعرفة بعد الزوال فيستمر يلبي لجمرة العقبة.~~

في خطبتي يوم عرفة:

ويستحب للإمام أن يخطب بعد الزوال خطبتين، وفي توضيح المناسك، فلو خطب قبل الزوال وصلى بعده أجزاه (ابن عرفة) ولو صلى بغير خطبة أجزاه، أبوعمران إجماعا، كذا في الخرشي، ثم أن يجلس بين الخطبتين ويعلم الناس فيهما ما يفعلونه إلى اليوم الثاني بمني وبقية مناسك الحج التي تفعل إلى اليوم الثاني بمنى

من صلاتهم الظهر والعصر قصرا وجمعا بعرفة ووقوفهم بها وما له من الآداب ويحضهم على إكثار الدعاء والتهليل بالموقف وكيفية دفعهم من عرفة بعد الغروب، ومبيتهم بمزدلفة، وجمعهم بها بين المغرب والعلماء مع قصرها، ووقوفهم بالمشعر الحرام والدفع منه إلى منى، والإسراع في وادي محسر ورمي جمرة العقبة، والحلق والتقصير والنحر والذبح وطواف الإفاضة.

في العمرة:

ثم من بعد إقامتنا وملازمتنا للحرم للصلوات وغيرها قد ذهبنا للتنعيم مع العمار للعمرة، وهي شرعا عبادة يلزمها طواف وسعي وإحرام فقط اهـ – خرشي وفي العدوي وفي مشروعية العمرة قبل الحج قولان أهـ.

في طواف الوداع:

ثم من بعد فراغنا من الزيارة المذكورة قد طفنا طواف الوداع وأعلم أن هذا الطواف شرع للخارج من مكة، وأما المقيم بها فلا يشرع في حقه وهو مندوب ثم إنه ليس مقصود لذاته، بل ليكون آخر عهد الحاج بالبيت، ويبطل التوديع إقامة ما زاد على ساعة فلكية بشرط أن تكون الإقامة بمكة أو بمحل دون ذي طوي فإن كانت بذي طوي أو بالابطح لم يبطل وداعه، والمراد ببطلانه بطلان كونه وداعا لا بطلان ثوابه، لأن الطواف صحيح في نفسه. وإن تركه رجع ما لم يخف فوات رفقته الذين يسير بسيرهم، ويستحب له إذا فرغ من طواف وداعه أن يقف بالملتزم للدعاء قال في الواضحة: والصق صدرك ووجهك بالملتزم ثم استلم الحجر وقبله إن قدرت على تقبيله، ثم انفر إلى بلدك فقد قضي حجك اهـ قلت: واستحسن بعضهم عدم تقبيل الحجر وهو معارض لقول الواضحة وهو الأحسن.

في الخروج من المسجد الحرام:

ثم ينبغي للخارج من المسجد أن يخرج من باب بني سهم، وهو باب العمرة والناس الن لايخرجون إلا من باب الوداع تفاؤلا بالعودة إلى مكة المشرفة لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من جهة باب الوداع عندما هاجر إلى المدينة المنورة ثم عاد إلى مكة المشرفة وخرج في حجة الوداع من باب العمرة، ثم مات في السنة التي تليها، فإذا خرج فلا يرجع القهقري فإن ذلك مكروه، أو خلاف الأولي، وهو من فعل

الأعاجم، بل يمشي مشية المعتاد، والأدب والخشوع في قلبه وكذلك يفعل في خروجه من المسجد النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأزكي السلام.

في الخروج من مكة المكرمة:

فإذا خرج الحاج من مكة فإن خروجه من طريق المدينة المنورة كأهلها وأهل مصر والشام ونحوهم، فيتسحب له أن يخرج من كدى بضم الكاف والقصر أقل الصاوي على الدردير) قال بعضهم ملتمسا لذلك حكمه، وإنما طلب من قاصد النسك في حال الدخول أن يدخل من كداء بالفتح وفي حال الخروج من كدي بالضم للإشارة إلى أنه يدخل طالبا للفتح وملتمسا للعطايا، فإذا خرج بضم ما جازه ويكتم امره، ولايشيع سره اهـ.

ويستحب له أن يكبر في انصرافه من الحج والعمرة على كل شرف أي مكان مشرف وأن يقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ويقول ذلك ثلاثة أيام حتى يخرج من أرض تهامة.

حكم الزيارة للمدينة:

السودانيون من الشعوب العاشقة للنبي صلى الله عليه وسلم ويعتقد كثير منهم أنه لايتم حج بغير زيارة قبر الرسول والصلاة بمسجده أيام تطول وتقصر ويفصل لنا الشيخ عبدالمحمود في رحلته حجة مشروعيتها وحكمها قائلا: وأما حكم زيارته صلى الله عليه وسلم ففيه اختلاف بين علماء الشرع فمنهم من قال بوجوبها ومنهم من قال بندبها وأكثر العلماء من الخلف والسلف قال بندبها دون وجوبها وعلى كل من القولين فهي مع مقدماتها، من نحو السفر إليها ولو بقصدها فقط دون أن يضم إليها قصد اعتكاف أو صلاة بمسجده صلى الله عليه وسلم، فهي من أهم القربات وأنجح المساعي ومن ثم قالت أئمة الأحناف: إنها تقرب من درجة الواجب، وقال بعض المالكية: إنها واجبة، وقال غيرهم منهم يعني أنها من السنن الواجبة.

في الرحلة من مكة إلى رابغ:

في طريقه إلي المدينة يوضح الشيخ عبدالمحمود قدرته على فض النزاعات وإدارة الحوار مع الشيعة قائلا:

اعلم وفقنا الله وإياك على الصدق وأخباره الحق وآثاره إلى خروجنا بالسفر من مكة المشرفة بعد أداء فريضة الحج إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم كان في يوم الخميس لسبع وعشرين ليلة من ذي الحجة عام أربعة وعشرين من بعد الثلاثمائة وآلاف ووصولنا إلى جدة في عصر الجمعة من اليوم الثاني من سفرنا، فأقمنا فيها نحو ثلاثة ايام ثم ركبنا البحر متوجهين إلى رابغ، فوقف بناء السنبوك في البحر لفقد الريح لمدة خمسة ايام، وفيها قد هل شهر المحرم وكان معنا يومئذ كثير من الحجاج، وقد حصل لهم مع بعضهم شقاق ونزاع، ولولا حضورنا لثارت الفتنة بينهم، ثم من بعد إسكات الفريقين قد أنشأت من نفسي قصيدة في مدح سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وأنشدتها لكن ضمنت فيها شيئا من أحوال المذكورين وتربية تخصهم لمزيد التحبب والأدب مع بعضهم.

ويذكر الشيخ عبدالمحمود أنه أدار حوار مع الشيعة في طريقه إلى المدينة وضح فيه رأي أهل السنة في الرافضة قائلا: "ثم لما أوقع الله المحبة بين المذكورين والمراعاة منهم لبعضهم قد رايت جماعة من أهل صنعاء اليمن وهم **يكثرون من** الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لا يذكرون أصحابه في صلاتهم عليه، فقلت لأحدهم – حين رأيته معظما من بينه وأيضا على معرفة – لم لا تذكرون الأصحاب في صلاتكم على النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال: مذهبنا يأبي ذلك، فقلت له: ما مذهبكم.؟ قال: مذهب زيد بن على بن الإمام الحسين، فعلمت بذلك انه من الشيعة والرافضة، ثم قلت له: إذا وصلت المدينة المنورة وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا هل تسلم على صاحبيه ؟ قال: لا ولكن من بعده فإني أسلم على علي كرم اله وجهه، فقلت له: أين هو ؟ قال: مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستدل على ذلك بما يعتمده أصل مذهبهم قلت له هلا علمت أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوبكر، ثم عمر ؟ قال: لا أعلم ذلك وإنما الخليفة على بن ابي طالب كرم الله وجهه.

توقف السنبوك في البحر:

ولنرجع إلى ما نحن بصدده ومن بعد وقوف السنبوك عن المسير بنا في الأيام المذكورة بأسباب انقطاع الريح قد ضجت الناس بالدعاء، وتكدرت منهم الخواطر،

وكثر الخوف، فاخبرت حينئذ التلامذة بقراءة مولدنا الفيض السحري والبيان السحري فلما ختموه بالقراءة ودعوا الله تعالي تيسير بعض ريح ثم أني استغثت بهذين البيتين وهما من إنشائي:

ياسيدي يارسول الله قد وقفت عن المسير بنا السنبوك ففي اللجج

غث بريح سريع كي نزوركم في روضة نورها أضوا من السرج

فازداد الريح في الحال ولم يزل في ازدياد إلى أن وصلنا رابغ.

أيام في رابغ:

ومن بعد خروجنا من البحر من السفن الصغيرة جاءت الجمال وحلمتنا إلى مدن ذلك البلد، فنزلنا قريبا من سوقه، وهذا البلد وهو ينسب لحرب وهم طوائف لايحصون عددا، ورئيسهم القاطن فيه والقائم بأحكامه يسمى الشيخ حسين ولد سبيريك وهو رجل فصيح شجاع صاحب بأس وقوة ومال كثير، وهو أحد أيادي على باشا سيد مكة الآن وشريفها، بل وأظنه من أعظم اياديه، وفي البلد هذا موضع بقرب السوق فيه عساكر من جهة سلطان الإسلام عبدالحميد خان، وأسلحة نارية من مدافع وبنادق وغيرها، والعساكر المذكورون فهم تابعون للشريف المذكور في أمره ونهيه، ولا يخرجوا من يد رئيس البلد في أمر ما، وقد اجتمعنا به وهو فاضل وفيه نفع للحجاج وبلده مشتمل على سوق وتجارة وجامع فقام فيه الجمعة وهو خصب كثير المياه والنخل والزرع والخضر، ولاسيما البطيخ فإنه كثير جدا وأيضا الحوت، وهو بلد آمن كثير الثمرات وفيه مسيل كأنه النيل في العرض، تجري به مياه الأمطار عند نزولها من الجبال إلى البحر ولها دوي عند نزولها كدوي الرعد، وحوله زرع كأنه زراع جزائر النيل لكن مع ما ذكر من الأمن فعلى العاقل أن لا يغفل هناك عن نفسه، وكانت إقامتنا في هذه المدن إثني عشر يوما لفقر الجمال وقتئذ.

منازل طريق المدينة:

ثم جاءت الجمال وحملت القافلة بالبر إلى المدينة المنورة وذلك كان في ظهر الجمعة بعد صلاة الفرض سادس عشر يوم من محرم، فبتنا قريبا من البلد ثم أصبحنا وأقمنا إلى أن انتصف النهار من يوم السبت، ثم سافرنا وذلك كان بالطريق المسمي بالفرع بفتح الفاء وسكون الراء ثم عين مهملة، وهو مشهور في الطرق، وهو

أسهلها وأكثرها ماء، وفيه عيون متفجرة نحو السبع أو الثمان ماؤها كأنه ماء النيل في العذوبة، وحول تلك العيون نخل كثير وزرع إلا أنه من جهة المخافة كغيره من الطرق، والمطلوب في هذا الطريق وغيره صحبة الزاد والأسلحة النارية والرجال وإتقاء الكلمة فمن غفل عن ذلك فهلاكه أقرب من سلامته.

وقد سافرنا في هذا الطريق بالنهار دون الليل إلى أن وصلنا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكي السلام.

وقد نظمت المنازل التي ينزل فيها الحجاج في هذا الطريق، إلا أن مبدأ نظمي لها من جدة لكونها مبدأ سفرنا بالبحر إلى رابغ، وفي البحر لم نعرف المنازل إلا من رابغ إلى المدينة المنورة فإنها ظاهرة وقد سألنا من هناك عن المسافة البرية التي بين جدة ورابغ فقال ثلاثة أيام وهذا هو النظام المذكور:

من جـــــدة الغراء فكان السفر لرابــغ فــي فلــك لــه أذكــروا
ومنه كـــــــان نزول القــافلة في بئـر رضـوان دع المغافلـة
منها أبوضـــــباع وهو المنهل والـبعض فـي أم العيـال ينـزل
وذا وذاك فهـــــــما عـــينان بمـاء مـدى الأوقـات تجريـان
ومن هنا فالمـــــــــنزل الغجير عـــين ولكـــن لهـــا تفجيـــر
وبعده الغـــــــجير كاسم الأول لكـن لـه الشـفا أضـيف فأعقـل
من بعده النزول بئر العـــضب وبعـدها آبـار علـى الأحـب
من بعدها مدينة النبي المصطفى صـلى عليـه الله مـا دام الوفـا

ولنذكر بعض ما عثرنا عليه في الكتب من بعض هذه المنازل قال في الخلاصة:- رابغ بموحدة بعد الألف ثم غين معجمة واد من الجحفةاهـ قال في حرف الألف منها دارة حجارة جبل كبير لمزينة فوق قدس مما يلى الفرع يخرج من جوانبه عيون عليها قري كالفرع وأم العيال صدقة فاطمة الزهراء رضي الله عنها والمضيق والمحضة والوبرة والخضرة والفعوة وأوديتها تصب في الأبواء ثم بواد يسمى وادي حقل به قرية يقال له وبغان وخلف دارة واد فيه قري قاله عرام اهـ - ثم قال من بعد ما ذكر هذا في موضع من الحرف المذكور:- أم العيال عين عليها ساقية وسبق القول في

دارة: أنها صدقة فاطمة قاله عرام وقال ابن حزم هي لولد طلحة بن عبيدالله انفق عليها ثمانين ألف دينار وعلم خراجها خاصة أربعة آلاف دينار وتسقى أزيد من عشرين ألف نخلة اهـ – وأما الآبار المشهورة بين الناس بآبار على فلم نقف على نسبتها عند العلماء لعلي كرم الله وجهه وقد سمعت بعض أهل الحجاز يشهرون ذلك المحل ببئر المآسي وبعضهم يقولون خلاف ذلك.

وأعلم أنه عند مبيتنا بالآبار المذكورة قد رأى بعض الحجاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قبل عنقي ويقول لي جئت أيها الحبيب قد قبلناك وجميع من معك من الحجاج.

لقاء الشيخ محمد حسن السمان:

وكان دخولنا المدينة من الطريق الشرقي لأن ورودنا عليها كان من جهته ثم من بعد دخولنا في السور الأول قد جاءنا رسول فخر الأزمان، ونادرة الاقران، ونخبة أهل الشرف والشأن، سيدي واستاذي الشيخ محمد حسن السمان رضى الله تعالي عنه وعن أبنائه وطلب أن لايكون نزولنا إلا عنده، وكان يومئذ حكم الكرنتينة شهير بالبلد فما من حاج إلا وهو ينزل خارج البلد في تلك الأيام، وإذا أراد زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصلاة في مسجده فلا يكون ذلك منه إلا بنفسه فقط دون أمتعته.

ثم إن هذا الأستاذ العظيم، اللوذعي الفخيم، من اعتنائه بنا وكرمه لنا قد أنزلنا رضى الله عنه في بلاده وفي ساحة واسعة مشتملة على بسان وساقية وفيها قصر عظيم، فأقمنا فيه وحوله خيم للتلاميذ والحجاج الذين معنا، وذلك خارج السور الداخلي، فما كانت من إقامتنا في هذا المحل إلا نحو ساعة حتى جاءنا الاستاذ فنفسه ونقلنا مع وجود الكرنتينة اعتمادا منه على الله تعالى إلى بيته المكرم وسوحه المعظم، ومعي ساعتئذ العابد الفاضل الصفي الكامل الشيخ محمد التوم بن الشيخ طلحة الفولاني أدام الله علينا وعليه رضوانه وأمانه، وأيضا خدامنا من التلاميذ.

في بيت أبي بكر الصديق:

فأنزلنا الاستاذ في بيت أبي بكر الصديق ودار خلافته إلى أن توفي وأنزل الشيخ محمد التوم في موضع آخر لائق به، وأعلم أن بيت ابي بكر الصديق رضي الله عنه هذا هو المشهور اليوم بزاوية السمان، وقد دخل هو فيه قدس سره الخلوة

عشر سنين، وسبحته التي كان يذكر الله تعالى بها وهي إلى اليوم في زاويته وقد رأيناها وتبركنا بها، وكانت الزاوية المذكورة من قبل وجود سيدي للشيخ محمد السمان رضى الله عنه وظهوره تنسب لسيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه لأنه كان مقيما بها، ويقال لها أيضا المدرسة السنجارية كما في سلك الدرر، وكان سيدي مصطفي بن كمال الدين البكري رضي الله عنه إذا ورد المدينة فإنه لاينزل في غيرها، ويقول: إني أشم رائحة جدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه في هذه الزاوية.

وكان جدنا الأستاذ الشهير، والقطب الكبير، سيدي الشيخ أحمد الطيب بن سيدي البشير الشريف العباسي رضي الله عنه قد جلس فيها سبع سنين من بعد أخذه الطريقة الصوفية على صاحبها نفعنا الله به، وجميع ما حصل له من الفيوضات والأسرار، والعلوم والأنوار، والرتب العلية، والمكاشفات القدسية، في هذا الموضع وهو محلنا قديما وقد أكرمنا الاستاذ بالنزول فيه لبركته وخيره ومزيد نفعه على غيره، وكفى شرفا أنه بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ودار خلافته إلى أن توفي وقد أنشدت عند دخولي فيه هذه الأبيات فرحا مسرورا:

هنو لعبدى مذنب بنزوله في بيت صديق النبي أبي بكر
لو ما أراد به الإله سعادة ما كان في دار الخلافة يستقر
في ذا النزول إشارة تبدو لمن بمعاني أسرار المعارف قد ظفر
هي من يرى عند الرفيق نزوله لاشك مقبول لدى الهادي المبر

زيارة النبي صلي الله عليه وسلم:

ثم من بعد نزولي في الزاوية المباركة قد توضأت ودخلت المسجد النبي وصليت فيه تحية المسجد ويستحب أن تكون في محراب النبي صلى الله عليه وسلم أو في غيره مما قرب من الروضة، ثم من بعد التحية والدعاء الذي يكون بعدها وهو هذا: اللهم إن هذا حرم رسولك صلى الله عليه وسلم الذي حرمته على لسانه، ودعاك أن تجعل فيه من الخير والبركة مثلى ما هو في حرم مكة الحرام، فحرمني على النار، وأمني من عذابك يوم تبعث عبادك، وارزقني فيه حسن الأدب وفعل الخيرات

وترك المنكرات، قد بادرت إلى استقبال الوجه الشريف خاشعا خاضعا، فلما فرغت من السلام عليه صلى الله عليه وسلم ألهمت من البيتين وأنا في المحل فأنشدتهما وهما:-

في حال بعدي ناظر لجمالكم واليـــوم إنـــي واقـــف بالبـــاب
انظـر إلـى بنظـرة أحيـا بهـا وأفـــوز فـــي الـــدنيا ويـــوم مـــآبي

فحصلت منه لي صلى الله عليه وسلم عند ذلك نفحات وبركات، ثم سلمت على صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وتوسلت بهما إلى الله ورسوله فيما له طلبت وقتئذ ثم رجعت إلى محل الوقوف الأول فأنشدت أيضا:

يأيهـا المقصـود مـن كـل الـوري أنـــي وقفـــت ببـــابكم أرجـــو القـــرى
وتركـت أولادي وحاشـتي ومـن يعـــزي إلـــي مـــن الـــورى كـــلا ورا
وأتيـــتكم بمحبـــة قلبيـــة وبهـــا فـــدمع العـــين جهـــرا قـــد جـــرى
أنـا ضـيفكم ونـزيلكم أنـا عبـدكم أرجـــو شـــفاعتكم وفـــوز أكبـــر
وأكـون فـي الـدنيا بهـا وكـذا غـد فـي القـرب عنـدك مثـل مـن لـك أبصـرا

ثم انصرفت مراقبا الحجرة، فجلست في موضع من المسجد ملاحظا للروضة الشريفة وكذلك حياته المكرمة في قبره المكرم صلى الله عليه وسلم يعلم بزائريه على اختلاف درجاتهم وأحوالهم وقلوبهم وأعمالهم.

أخيار المدينة وعساكر السلطان في موكب الوداع

ثم من بعد الخروج المذكور قد أحضر ألينا تلميذنا الصالح الصفي الكامل الوفي الشيخ محمود بن عبدالقادر بن عبدالجواد المدني فرسا فركبنا عليها لداء بنا، ولولا ذلك لما ركبنا عليها في هذا الموضع الشريف، وقد جاءنا للوداع عند ذلك كثير من أهل المدينة نفعنا الله بهم من علماء وأخيار وأشراف، ولم يزالوا يمشون معنا وقد الححت في رجوعهم فلم يطب خاطرهم بذلك وذلك لشدة محبتهم، فسلك بنا الخبير طريق سيدي عبدالله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومالك ابن سنان والد ابي سعيد الخدري، فودعناهم ومر بنا أيضا بزاوية سيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه.

ثم جاءت العساكر السلطانية ومشت أمامنا بالأسلحة النارية تعظيما وإجلالات، ولم يخطر لنا أن ذلك يكون لنا ولم نر له طريقة مطلقا إلا أن نقول إنه إكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتفق لأحد قبلنا ولا معنا مثل هذا مع كثرة الأخيار والعلماء والصالحين (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

وشاهد ما ذكرناه من أن هذا إكرام من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن بعض الحجاج المذكورين بالخير قال لي: قد رأيت عند وداعك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم خرج إليك من باب فاطمة الزهراء عليها السلام وضمك إليه وقد أعطاك ثلاث قطع إحداها خضراء والاثنين حمر وكل واحد من الثلاثة فيها شيء ولكن لم أطلع عليه، فحمدت الله تعالى على ذلك وأرجو منه الزيادة لي بجاه هذا النبي الكريم، ومصداق هذا أيضا أن بعض المجاورين بالمسجد النبوي قال لي: قد سمعوا في هذه الليلة في جهة الحجرة صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول وكأنه يتحدث مع شخص آخر: اليوم سفر السودانيين ولم تكن يومئذ بالمدينة قافلة غير قافلتنا.

ثم إن العساكر السلطانية المذكورة لم تزل معنا إلى أن وصلنا المناحة التي بها القافلة، وقد نبهت الإعراب الحاملين لنا على إكرامنا وإكرام من معنا من الأصحاب والحجاج فامتثلوا أمرهم وما فعلوا معنا إلا خيرا، ثم رجعت العساكر وهم في غاية المحبة حتى وأن البعض قد أخذ الطريقة عنا، وذلك كخير الله عبدالله، وجعفر موسي الكاتب، فبتنا هناك.

اهل المدينة انتمو اسيادي

فلما أصبح الله بالصباح لحقنا أهل المدينة أفواجا أفواجا ومن بينهم ما لنا فيها من الخلفاء والتلامذة، وأيضا السيد أحمد السماني أطال الله عمره للوداع، ثم جاءنا ونحن هناك محتسب السوق وحاكمه يوسف شصلي بشين ثم صاد وبعدها لام، والمذكور من أخيار الأتراك، وبيته بقرب مسجد سيدنا عمر رضي الله عنه وكان قبل مجيئه هذا للوداع قد جاءنا زائرا في زاوية الإمام إبي عبدالكريم القطب السمان قدس

سره بما يحتاج إليه الفقراء في سفرهم هذا من دقيق القمح، فجزاه الله تعالى خيرا على ذلك ولم يزل دقيقه معنا إلى أن وصلنا محلنا طابت.

رحلة العودة من المدينة إلى سواكن:

ثم من بعد ذلك قد سافرنا وذلك كان يوم الأحد الواقع تاسع يوم من صفر وقد سلكنا الطريقة التي سلكناها أولا وهي طريقة الفرع وهي أحسن الطرق يومئذ وما زلنا مسافرين على أمن وراحة نفس إلى أن وصلنا رابغ، وقد حبب الله تعالي فينا ا لعرب الذين معنا وهم كثيرون، كبتال وهو رئيسهم، وعلوش، وظبيب بالظاء المشالة، وعايش، وسمران، ونومان، وغيرهم، وقد رأيت رجالا كحال التلامذة من صدق النية وحسن الأدب حتى ولو تعدي عليهم من الحجاج أحد في شيء أو أذي أحدا منهم فلا يردون، وما ذلك إلا من لطف الله تعالي بنا، وبركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولولا ذلك لفعلوا بنا من الأذي والقتل ما فعل في غيرنا من قوافل الحجاج.

ثم من بعد وصولنا إلى رابغ واجتماعنا بالشيخ حسين ولد مبيريك قد دخلنا في السفن إلى جدة، وعند خروجنا منها تلقانا تلميذنا وخليفتنا الصادق الصالح الشيخ عبدالقادر دورة ابن الشيخ محمد صالح عبدالله وأنزلنا عنده وأكرمنا، ولم يزل معتنيا بنا إلى أن جاءت الوابور وفيها صار توجهنا وذلك ليلة الثلاثاء تسع عشرة ليلة خلت من صفر.

وسافرنا في لجج البحر نحو أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة، ومنها صار خروجنا ثم دخولنا الكرينتينة بأمر الحكام، وقد حصل لنا فيها إكرام كثير من حكامها، وهم كالسيد احمد افندي عثمان الأزهري معاون بالصحة البحرية، وأيضا عبدالدائم أفندي وفيروز أفندي، ولم يزالون معنا كذلك إلى أن تمت أيام الكرنتينة العشرة.

في الرحلة من سواكن إلى أم مرحي:

ثم من بعد خروجنا من الكرنتينة قد توجهنا من السفاين إلى موضع الجمارك وهو بالبر بخلاف محل الكرنتينة فإنه في جزيرة من جزائر البحر فلما فرغنا من ذلك الموضع المذكور وكان قد حصل من أهله لنا خاصة بعض أكرام وهو تركهم لبعض الأمتعة من الجمرك سافرنا إلى موضع الوابور وبه صار سفرنا إلى بلادنا.

فلما وصلنا كبوشية تلقنا الفاضل أحمد افندي ميرف والمذكور من التلامذة المباركين، فاخرجنا من الوابور بالحلف، وأقامنا في بيته بكبوشية في إكرام وإجلال وقد حضرنا عنده ليلة المولد الشريف أثنتي عشرة من ربيع الأول.

ولنرتب من هنا من صار نزولنا عندهم من الفضلاء إلى طابت المحمية، وأن هؤلاء الذين سنذكرهم بأسمائهم قد بالغوا جميعا في إكرامنا وإجلالنا، كل واحد منهم بما استطاع من ذلك، ومنهم من زاد على غيره بالهدية وبذل المال، نسأل الله تعالي لهم الجميع رضاءه ورضاء رسوله والحشر في زمرته الناجية يوم القيامة، وأن يكرمهم بالفوز العظيم وجنات النعيم وأن يديم عليهم إصلاح الحال وأن يبلغهم حسن الآمال.

فأول نزولنا كان عند الفاضل أحمد أفندي كما ذكرنا ثم من بعده عند الرجل الصالح تلميذنا الشيخ عبدالباقي بن الرضي بحلة الشيخ من المسيكتاب، وقد أخذ علينا الطريق في هذا الموضع جماعة لايحصون عددا وقد خلفنا هناك تلميذنا الصادق الفاضل العالم الشيخ نورالمدينة حسن) وهو ابن اخت الشيخ عبدالباقي المذكور وتلميذه في القرآن.

ثم دخلنا في الوابور من شندي وذلك عند صلاة الظهر وعند غروب الشمس او بعدها يسير نزلنا منها فصار مبيتنا عند الأخ الصالح الكامل والتقى الفاضل الشيخ عبدالقادر بن والدنا الشيخ عبدالرحمن ثم عند الشيخ الفاضل الشريف بن الشيخ محمد بن عبدالجبار الطيبي ثم بولد رملي عند الذاكر الشاكر اللمبارك الشيخ نورالدائم بن أخي الشيخ الصديق الطيبي.

زيارة القطب سيدي أحمد الطيب:

ثم من بعده سلكنا طريق الغرب لأجل زيارة الآباء والجدود نفعنا الله بهم، فكان نزولنا عند المبارك الكريم المعتقد الشيخ الريح بن الحاج أحمد السنهوري () ومنه توجهنا في جمع كبير من فقراء الطريقة إلى ضريح القطب الرباني، والغوث الرحماني، سيدي واستاذي وجدي الشيخ احمد الطيب بن الشيخ البشير السماني قدس سره، فلما وصلنا ساحته ذكر هناك الفقراء ذكرا كثيرا ونالوا مددا كبيرا ثم دخلنا القبة فزرنا الأستاذ الأعظم أولا، ثم الوالد رضي الله عنه، ثم بقية الأعمام وقد أنشدت

قد جئتكم من خير من وطيء الثرى منو علينا بالإفاضـــــــة والقرا
انتم ملوك الصالحين وســـــادة إرشادكم مشـــهور من بين الوري
وابوكم الاستاذ قطـــــــب دوائر الصلحاء طرا في الأراضي بلا امترا

في الرحلة من أم مرحي إلى طابت المحمية:

ثم من بعد زيارة هؤلاء السادة الكرام والأولياء العظام زرنا الفاضل والشيخ الكامل الشريف ابن الاستاذ الوالد رضي الله عنه، وقد وجدناه حينئذ مريضا، ثم بقية الأعمام والأجداد، وقد دعونا لمن هناك من الإخوة والخلان والجيران رحمة الله عليهم أجمعين.

ونزولنا في هذا المحل كان عند الورع التقي الشيخ زين العابدين بن الشيخ أبي الصالح الطيبي لأنه أول من بادرنا هناك وإنشرح صدره لقدومنا، ثم من بعده عند الفاضل الفقيه أحمد بن محمد بن الولي الكامل الحاج أحمد الشهير بالبقاري تلميذ القطب العارف سيدي الشيخ محمد السمان رضي الله عنه، ثم عند خليفتنا الفاضل الشيخ الصديق ابن خليفتنا الشيخ محمد عوض السيد السروراببي رحمه الله تعالي بجزيرة أم طريفي، ثم عند ولدنا المبارك محمد بن مقبول ولد أحمد ابن الولي السروراي ثم عند الحبيب بن الحبيب الفاضل الفقيه محمد بن الفقيه عبدالمحمود ولد الطيب ولم يكن نزولنا عند من ذكرناهم ومن سنذكرهم إلا عن طلب منهم ومحبة.

ثم من بعده صار نزولنا عند الكامل الصالح العفيف الكريم مربي المريدين وملجأ القاصدين حبيبنا وصديقنا الشيخ عبدالله بن الفقيه الامين ولد أم حقين نفع الله به عباده، والمذكور قد أهدي لنا هدية واسعة هو ومن معه من بينهم أخيه الولي الكامل الفقيه المصطفي رحمه الله، والفقيه محمد المبارك، والشيخ الصادق، وابن العمم الفاضل الفقيه احمد بن الفقيه ناصر الجموعي، ثم من بعده قد قصدنا زيارة أبيه والشيخ عبدالمحمود أبي شيبة العركي وتوجهنا إلى أن كان نزولنا عند الشيخ العباس الدعيته) خليفة الشيخ عبدالله المذكور.

ثم دخلنا البقعة وصار نزولنا فيها عند تلميذنا الفاضل العاقب ولد نعيم، والفاضل الحاج حسن ولد حضرة، والحاجة السارة بنت عبدالدائم، كل واحد من هؤلاء في منزله جماعة من التلامذة وأنه قائم بما فيه كفايتهم من أوجه الإكرام، وقد أرسل لنا

ونحن هنا بعض من الفضلاء والأدباء قصائد مشتملة على تهنئة وثناء منها قصيدة الأخ الصالح الحاج مدثر بن إبراهيم الحجاز وهي طويلة ونذكر بعضا منها على سبيل الاختصار وزيادة ففي المحبة في قلوب الأحرار والأخيار:

يا يها المحمود جاء حديثكم عندي فطاب ولم يكن أمرا سدي

ثم من بعد ذلك جاءنا ذو المآثر الجليلة والفضائل الجميلة الزبير رحمة باشا، فطلب قدومنا إلى محله، فذهبنا إليه ومن معنا من التلامذة، وقد أكرمنا غاية الإكرام، وقد جاءنا ونحن عنده شيخ الإسلام وبهجة الأنام الشيخ محمد البدوي حمى الله به الدين، ونفع به سائر المؤمنين زائرا فأخذ معنا جلسة مباركة كلها في الله تعالى، وقد سمع بعض دواوينا فلذ له ذلك وأثني بما لا مزيد عليه من الثناء.

ثم من بعد ذلك قد خرجنا من مدينة امدرمان وفيها قد أخذ علينا الطريق جماعة وخلفنا فيها خلفاء ومن بعد خروجنا المذكور صار نزولنا عند تلامذتنا الكرام الحاج محمد بن الحاج صغيرون العودي وأولاده الشيخ عبدالمجيد والشيخ عثمان، ثم إلى الفاضل الشيخ يوسف بن أحمد بن الشيخ مطيع، ثم إلى الشيخ محمد بن أحمد ولدا الداقريس المقدابي، والمذكور هو وبنو عمه قد أهدوا لنا هدية واسعة، ثم توجهنا إلى خليفتنا الصالح العالم العلامة الشيخ حامد بن عطا الله فأكرمنا وأهدي لنا، ثم إلى منزلنا بجار النبي فأقمنا فيه شهرا، ثم إلى الخشوماب الذي فيه أحبانا بولد حسن، ثم إلى الفاضل النور وله عبدالقادر والمذكور وهو أحد التلامذة المباركين، ثم إلى ولدنا في الطريق عبدالقادر ولد محمد ولد مضوي بهزار النائم، ثم إلى الفاضل التقي العالم المبارك خليفتنا الشيخ عبدالدافع ولد مضوي بن الفقيه محمد الأغبش، ثم إلي تلميذنا محمد ولد على ولد سليمان ثم إلى فضل السيد محمد بروق وهؤلاء الثلاثة قريتهم التي هم فيها واحدة وتسمي الخيران، ثم إلى تلميذنا الوفي الصفي الكريم الشيخ عبدالماجد بن الطيب ومنه صار نزولنا عند الحبيب المبارك الشيخ تاي الله ولد الفقيه عبدالله النفيدي ومنه إلى طابت المحمية، وعند قربنا منها قد تلقانا سكانها وأولادنا في جمع كبير على حالة محبة وإجلال كبير من التلاميذ وغيرهم، وقد دعونا للجميع بالدعوات الصالحات المباركات والتي نرجو من الله عز وجل قبولهما ودوام نفعهم وغيرهم من إخوانهم في الحياة وبعد الممات، ثم من بعد ذلك قد كان نزولنا بموقعنا على حالة

سرورية وخيرات متواترة سرية وجهرية وقد اجتهد جميع سكان طابت من أولادنا وغيرهم من الأحباب والتلامذة في إكرامنا وما تأخر عن ذلك أحد إلا لعذر، ونسأل الله تعالى أن يكرمهم في الدنيا والآخرة بما فيه رضاه أنه على ما يشاء قدير وهو المجيب لمن دعاه.(انتهى النص).

نتائج الدراسة:

يتضح من عرض الشيخ عبدالمحمود في القسم الأول والذي يشير فيه إلى خروجه من قريته وإكرام القرى المجاورة له والذين رافقوه من قرية إلى قرية إلى ما عرف حينها بزفة الحج وهي تظاهرة كبرى تبلغ الآلاف عند ذوي المكانة، حيث يخرج الناس مودعين الحاج في موكب كبير رجالا ونساء وأطفالا، يعبرون عن أشواقهم لهذه الشعيرة بكاء ومدحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتقلون من قرية إلى قرية وينزل الحجاج بها فيكرمون ويهدي لهم شيء من المال والزاد وعرض التجارة كالسمن والعسل ما يبيعونه في الحجاز ويتهادون ببعضه ويتبادلون المنافع، وهذه مظاهر اختفت في زمان الناس هذا، وبالطبع في زماننا هذا زهد في إشهار الحج وفيه فائدة إلا أن الفائدة في إشهاره أعظم فإن تعظيم شعائره الله من تقوي القلوب، كما تعمل على تعلق أفئدة المسلمين بالشعيرة، ويتعلم منها الصبية عظم الشعيرة وركنيتها في الإسلام، كما يتضح ايضا إكرام أولي الأمر والسياسيين لهذه الشعيرة وذلك عندما قابل الشيخ عبدالمحمود الزبير باشا والحاكم العام رغم أن الاخير على غير دين الإسلام.

في القسم الثاني يصف الشيخ عبدالمحمود الطريق ويسمى قراه ومحطاته من الخرطوم إلى عطبرة ومن عطبرة إلى سواكن ويلتقي في سواكن علية القوم وهنا يرد ذكر آمونة بت عبود وكيف إنها تأثرت بدعوة الشيخ الاستاذ احمد الطيب البشير ومن خلال سيرة الشيخة امونة بت عبود يتضح لنا انها قامت بزراعة القطن بوادي بشارة بالقرب من شندي ونسجت إحرامات الحج وأقامت الخلاوي ولما كبرت مقدراتها وعلمت ان جميع حجاج السودان وغرب إفريقيا يتجمعون في سواكن ذهبت إلى شرق السودان وزرعت القطن واقامت محالجه ونسجت الإحرامات وهي تجارة رائجة. وبنت الخلاوي فاستفاد ابناء السودان من علم حجاج– غرب إفريقيا وأمونة المذكورة من

سوراب الشايقية وزوجها محمد أزيرق قاما بنشاط زراعي وصناعي وتجاري وتعليمي يجسد فوائد رحلة الحج.

في القسم الثالث يصف الشيخ عبدالمحمود الرحلة من سواكن إلى بورتسودان إلى جدة حيث قدم وصفا دقيقا للأبنية والعمران في جدة والطرق الصوفية والتكايا التي نزل بها خاصة تكية السيد أإحمد بن إدريس الفاسي، وذكر أن مدينة جدة ومنذ ذلك التاريخ بها أبنية عالية ذات طوابق متعددة وفيها سوق رائجة وأجناس من البشر متعددة كما وصف حاراتها وذلك بالإضافة إلى ماسبقت الإشارة إليه من وصف سواكن وبواباتها وأبنيتها وقد ضم هذا القسم الإحرام بالحج إلى مكة ووصف الطريق إليها وقد عج هذا الجزء بالفقه ووصف المشاعر وخطوات الحج، فالواقف عليه لا يحتاج لفقه الحج ولا لكيف يؤديه، فالمطلع عليه كأنه حضر دورة تدريبية في مناشط الحج، فقد كان الوصف ممتزجا بالترجيحات الفقهية في أركان الحج ومندوباته، الطواف والسعي والمبيت بمني والوقوف بعرفة والذهاب إلى مزدلفة والجمرات وطواف الوداع وغيرها.

وفي القسم الرابع يصف الشيخ عبدالمحمود الطريق إلى المدينة. وقد كان وقتئذ بحرا وفي هذه الرحلة تجلت حكمة الحج في التواصل والاتصال حيث قام الشيخ بإصلاح ذات البين وفض النزاعات بين الحجاج الأفارقة، كما أنه حاور الحجاج اليمنيين في مذهبهم الزيدي الشيعي وأظهر براعة في الاستدراج والقدرة على إدارة الحوار وهي فائدة من فوائد الطرق القديمة التي تتيح التواصل والتدامج بين المسلمين والتعرف على مذاهب المسلمين المختلفة. وفي هذا القسم تدفقت شاعرية الحاج عبدالمحمود الحفيان بالشوق والوجد فأظهر قدرة على غرض الشعر ولا سما به لفظا ومعنى وحسن مبنى. وفي القسم الخامس والذي تضمن رحلة الأوبة من المدينة إلى سواكن يستخلص القارىء من خلال رواية الشيخ تقدير العرب، السعوديين للسودانيين من ذلك العهد، وتقدير السعوديين للسودان من دون الشعوب الأخرى بالإضافة لأدب السعوديين الجم يقول وقد رأيت رجالا كحال التلامذة من صدق النية وحسن الأدب، ولو تعدي عليهم من الحجاج في شيء أو أذى أحدا منهم فلا يردون "

ولم تكن للشيخ عبدالمحمود ذكريات في رحلة الأدب إلا في سواكن حيث عفاه أهل الجمارك من جمركة بعض بضائعه، ثم عندما نزل في شندي أكرم الناس وفادته وأهدوه المال والمتاع إلى أن وصل ديار نشأته في ود رملي حيث عمه الصديق وأبناؤه ومنها إلى أم مرحي كما قابل في الخرطوم الزبير باشا مرة ثانية وقابلته قبل دخول طابت زفة التهنئة بالقدوم من جميع أهل القرى والتلاميذ.

وإجمالا وفي ختام هذه السياحة فإننا نستشف من هذه الرحلة أن الحج مناسبة دينية عظيمة عند السودايين وعند الإفريقيين عامة وأن الحجاج بما فيهم الشيخ عبدالمحمود كانوا أعلم الناس وأقدرهم على الإنفاق لذلك استفاد الناس منهم في طريق حجهم الدين علما وروح تدين، وتبادل عروض التجارة فعرفوا منتجات أرض الإسلام وتعرفوا فيها على عقائد الناس وطبائعهم. ولقد كانت لطرق الحج هذه دور في التواصل بين أجزاء السودان والقارة قاطبة وساهمت في الإندماج الثقافي بين المسلمين وعرفت المسلمين على عادات وطبائع البعض وساهمت في تعلم اللغات واللهجات المختلفة وخلقت نوعاً من التواصل الوجداني بين المسلمين.

ومن ناحية أخرى فقد ساهمت وسائل المواصلات الحديثة في تسهيل الحج لكنها حرمت المسلمين من التواصل بين الأقاليم المختلفة، فالآن أصبحت فوائد شعيرة الحج لازمة لشخص الحاج في الوقت التي كانت فيه هذه الفوائد متعددة للمجتمعات المسلمة في كافة إفريقيا خاصة بعد تدخل الدولة الحديثة والاقتصاد الحديث في تنظيم الحجاج وتأطيرهم حجاج كل بلد وكل ولاية وكل قرية على انفراد.

الهوامش والمراجع

- إبراهيم الكبري: أدب الرحلة عند الشيخ ابراهيم الياس الكولخي رسالة ماجستير جامعة بايرو 2007م.
- أحمد الصافي: حاشية الصافي على شرح الجلالين. نسخة يدوية في مكتبة السادة آل الحجاز مدثر.
- جلال الدين السيوطي: تنوير الحوالك بشرح الإمام مالك. نسخة خطية، مكتبة السادة آل الحجاز مدثر.
- حسن محمد حسن: التالكي وشخصيته الأدبية، بحث ماجستير غير منشور.
- الشيخ عبدالمحمود الحفيان: الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة، نشر مشيخة الطريقة السمانية سلسلة المطبوعات (17) دار جامعة القرآن الكريم للنشر 1996م.
- صالح أحمد ابوالفتح: كتاب الرحلة الحجازية للشيخ إبراهيم الياس الكولخي ورقة بحثية أعدت لمؤتمر الحج بجامعة إفريقيا 2016م،.
- عبدالرحمن أحمد عثمان: الطرق الصوفية بالسودان، الذكر والذاكرين 2007م.
- عبدالله حمد الحقيل: أدب الرحلات فن متميز: نقلا عن آدم عبدالله أدب الرحلات في مناسك الحج ورقة لمؤتمر الحج بجامعة إفريقيا العالمية (2016م)
- عبدالله موسي دستو: لب اللب في شرح منظومة روح الأدب: شركة أبناء الشريف الأنصاري 2010م.
- عبدالمحمود نورالدائم: أزاهير الرياض.
- عبدالمحمود نورالدائم: العرف العطير في مدح جناب البشير النذير.
- عبدالمحمود نورالدائم، نفيس القصب في شرح جالبة الكرب.
- غازيتة جمهورية السودان الدار القومية للوثائق 1906م / 1907م.
- مجذوب مدثر الحجاز، مسور الرقيم في سيرة مدثر إبراهيم.
- محمد المسعودي: بناء الرحلة الحجازية في كتاب الحج إلى بيت الله الحرام، مؤسسة مؤمنون بلا حدود (2016).
- محمد غبريم الداغري: النوافح العطرية المختصرة في النفحة العنبرية.
- محمد كامل حقة. الرحلة الحجازية ومدح خير البرية،في طرق الحج الإفريقية، 1976م
- محمد نور ودضيف الله: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين.

طريقُ الصّعاليك في روايات الرحَّالين المغاربة خلال القرنين 11و12هـ/17و18م

أ.د. أحمد بوسعيد

الملخص

تباينتْ طرُقُ الحج المغاربية في العهد العثماني، لكنَّ أكثرَها ذكراً في المصادر طريق بريّة أفقية، سُمّيتْ "طريق الصعاليك" من طرف رحّالة مغاربة كثيرين، على غرار: ابن أبي محلي السجلماسي في رحلته الحجية الأولى سنة 1000هـ/1592م، وأبي سالم العياشي في رواحهِ من حجَّة سنة 1072هـ/1661م، وأبي علي اليوسي في رحلة 1095هـ/1684م، والأمر ذاته بالنسبة لأحمد بن ناصر الدرعي سنة 1121هـ/1709م، وأبي العباس الهلالي السجلماسي سنة 1150هـ/1737م وغيرهم، وتربط تلك الطريق أربعةَ أقطار مغاربية هي: المغرب الأقصى، إيالات: الجزائر، تونس وطرابلس الغرب. ومردّ تلك التسمية ليس مسالكَها الطبيعية الوعرة فحسب، ولكن بسبب كثرة النّهب والاعتداءات التي كان يتعرض لها الحجّاج المغاربة، من طرف الصعاليك اللصوص من الأعراب (العرب البدو الرّحل)، الذين يُقيمون أو يظعنون قريباً من مسار ركب الحج، وقطّاع الطرق المتحكمين في تلك المفازات، فضلاً عن وجود فئة "الصعاليك الحجّاج"، المستنكفين عن أداء مهامهم ضمن الركب، الذين يتوسّطون القافلة، ويتمردون على نظام رحلة الحج وضوابطه، والذين لم يَخلُ منهم ركب الحاج المغاربي خلالَ تلك الفترة. وتسعى هذه الورقة البحثية إلى رصد محطات تلكم الطريق، وتبيان ماهيتها وحقيقتها، واستقراء آراء أشهر الرحّالين المغاربة بشأنها، وكشف أساليب الاعتداء والسلب من قِبل الأعراب الصعاليك المتغلّبين على مسارها، ومظاهر الحيطة والحذر منها، والجهود المتخذة قصدَ تأمين رحلة الحجّاج المغاربة.

الكلمات المفتاحية: طريق الحج، الصعاليك، الحجّاج، الرحّالة المغاربة، إقليم برقة، بلاد المغرب، المحطات.

Roads of Tramps (Saalik) in the novels of Moroccans travellers through 11-12 H

Prof: Ahmed Boussaid

Abstract

There were varied Maghreb pilgrimage routes during the Ottoman period، the most frequently cited one in sources was a horizontal land route that was named as "the road of tramps/Saalik" by many maghriban travellers، such us: the Sijilmassi Ibn Abi mahali، in his first trip to pilgrimage in 1000 H / 1592 AD، Abu Salim Ayachi in his way back from pilgrimage in the year of 1072 H / 1661 AD، Abu Ali Aliossi in the trip of 1095 AH / 1684، Ahmed bin Nasser Al Darie in the year of 1121 H / 1709 AD، and the Sijilmassi Abu Abbas al-Hilali in 1150 H / 1737 AD and others. That road connected four countries of the Maghreb which are: Maghrib al-Aqsa(Farthest West)، Ayalat: Algiers، Tunis and West Tripoli. The reason for that label is not only the natural rough paths. But also the large number of looting and attacks that the Moroccan pilgrims were exposed to by tramps، thieves from the Bedouins (Arab nomads)، who resided close to the paths of the pilgrims، and by bandits/ muggers that had their grip on those roads. As well as having another category of "pilgrims tramps"، who abstained from fulfilling their duties in the convoy، and rebelled against the regulations and systems of the pilgrimage. And these latter (pilgrims tramps) always found their places in the Maghriban pilgrimage convoys during that period. This paper seeks to monitor the stations of that road، and show how they were، what they included. And to extrapolate the views of well-known Moroccans travellers about them. As well as to reveal the methods of attacks and looting by Bedouins Tramps who dominated that track، what precautions and security measures were made، and what efforts taken in order to ensure a safe Moroccan pilgrimage trip.

Key words: the pilgrimage route/road، tramps، pilgrims، Moroccan Travellers، Cyrenaica region، the Maghreb، the stations.

المقدمة:

ظلَّ الحجُّ إلى بيت الله الحرام مؤمّلَ المغاربة مُذْ هداهم اللهُ إلى دينه الحنيف في القرن 1هـ/7م، تتوقُ إليه النفوس والأشواق، وتشرئبُّ نحو مطلعه الرِّكابُ

والأعناق، غيرَ آبهين ببُعد الديار، أو ضيق اليد من الدرهم والدينار، متجرّئين على المفاوز والقِفار المتناهية الأطراف، المَخوفةِ الأكناف، حتى قالَ حاجُّهم[1]:

والأَمْنُ فِي الطَّرِيقِ ليْسَ يُوجَدُ فكم وكم نفس هناك تفقد

حَتَى أَتَى عَنْ بعضِهمْ أنْ زَالَ حَجٌّ إذَا مَا صَادَمَ الأَهْوَالَ

سلكَ الحجّاج المغاربة والأندلسيون في سبيلِ ذلك المقصد طرقاً ودروباً متباينة، ولعلّ أقصاها عن القارة الإفريقية طريقُ البحر انطلاقاً من بلاد الأندلس كما فعلَ ابنُ جبير سنة 578هـ/1182م، والقلصادي سنة 840هـ/1436م مروراً بوهران وتلمسان وتونس...وصولاً إلى مصر. أو انطلاقاً من السواحل المغاربية سواء المتوسطية أو الأطلسية، فقد تجرّأَ على ركوب البحر رحّالةٌ كثيرون، منهم العلاّمة ابن خلدون انطلاقاً من ميناء تونس سنة 784هـ/1382م، والمقّري التلمساني صاحب "نفح الطيب" بدءاً من ميناء تطوان سنة 1027هـ/1617م، حيث ركب السفينة التي عرّجت به على مدن: الجزائر وتونس ثم سوسة وصولاً إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، مستذكراً أثناءَها رأيَ الشاعر الجزائري ابن رشيق المسيلي في ركوب البحر[2]:

البَحرُ صَعْبُ المَرامِ جِدّاً لا جُعِلَتْ حاجَتِي إلَيْهِ

أليسَ ماءً ونَحْنُ طِينٌ فَمَا عَسَى صَبرُنَا علَيْهِ

أمّا الطرق البرية فتكاد تكون متتالية ومتشابكة، من غرب بلاد المغرب الإسلامي إلى شرقها، أشهرها: طريق التّل بمحاذاة جبال الأطلس المُطلّة على البحر الأبيض المتوسط، وقد عبَرها الرحالة العبدري سنة 688هـ/1289م، والورثِلاني سنة 1179هـ/1765م. ودُونَها طريقُ الهضاب أو السهوب الداخلية بين الأطلسين التلي والصحراوي، ذات المراعي والكلأ الوافرة، وهي مسار رحّالة مغاربة كثيرين، اتفق معظمهم على تسميتها ـ رغم ما سلَف ذكرُه ـ باسم طريق الصعاليك؟. ودونَها جنوباً

---

[1]) محمد المختار السوسي: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، الرباط: 1959م، ص32.

[2]) أحمد بن محمد المقّري التلمساني: نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت:1988م، ج1، ص33.

طريقٌ شبه صحراوية، عبَرَها أبو سالم العياشي في رحلته ذهاباً سنة 1072هـ/1661م، وأخيراً طريق صحراوية موغِلة في الفيافي والقِفار، كانت مسارَ كل من: ابن مليح القيسي سنة 1040هـ/1630م، وعبد الرحمن التنلاني التواتي سنة 1188هـ/1774م، والحاج البشير البرتلي الولاتي سنة 1204هـ/ 1789م.

وتأتي هذه المداخلة المتواضعة في سياق البحث عن ماهية طريق الصعاليك، ما أخطارها وما ميزاتها ومزاياها؟ وما مواقف وروايات الرحالة المغاربة عنها؟ ثمّ لمَ الإصرار على اختراقها تِباعاً؟ وأخيراً هل كانت هذه الطريقُ كلُّها صعاليك؟

01ـ ماهيةُ الطريق وصعاليكها؟:

ربطتْ هذه الطريق خلال الفترة العثمانية أقطاراً مغاربية هي: المغرب الأقصى، الإيالة الجزائرية، إيالة تونس، إيالة طرابلس الغرب، وأول من وَسَمها باسم طريق الصعاليك والمصاعب والمتاعب هو الرحالة **ابن أبي محلّي السجلماسي** في رحلته الحجية الأولى سنة 1000هـ/1592م [1]... فكانت الحجة مع طريق الصعاليك، لفقدِ الركب يومئذ مع هجوم الحال..."، وشاطرَه الرأيَ الرحالةُ **أبو سالم العياشي** في رواحهِ من حجَّة سنة 1072هـ/1661م، وفي تحذيره منها قائلاً [2]"واحذروا من السرقة بالليل من هنالك إلى برقة، ولا تأمنوا في خلاء ولا في عمارة، وتناوبوا على الحراسة"، والأمر ذاته بالنسبة **لأبي علي اليوسي** في رحلة 1095هـ/1684م. وسار على خُطاهم آخرون منهم: **ابن ناصر الدرعي** سنة 1121هـ/1709م، و**ابن الطيب الشرقي الفاسي** سنة 1139هـ/1727م، و**أبو العباس الهلالي السجلماسي** سنة 1150هـ/1737م، ثمّ **الحُضَيْكي السوسي** سنة 1152هـ/1739م. فما هي منازل الطريق ومحطاتها؟ ومنْ هم صعاليكها؟

---

[1]) عبد المجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط: 1991م، ص94.

[2]) أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة الصغرى (تعداد المنازل الحجازية)، ط01، تحقيق:عبد الله حمّادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت: 2013م، ص60.

أ ـ منازلُ الطريق وغلبةُ الأعراب عليها[1]:

1ـ محطّات البلاد الجزائرية: يلتقي بها الرَّكبان المغربي والجزائري، على أنّ الركب المغربي في حدّ ذاته موزّع بين الفاسي والمراكشي والسجلماسي، يعبُر معظمه المحطات التالية تِباعاً:

فجيج: إقليم صحراوي جنوب المغرب الأقصى، مُتاخم لحدوده مع الجزائر، وهو مجموعة كبرى من الواحات والقصور، منها سبعة قصور كبرى[2]. وذكرَ بعض الرحالة أنّ أول سرقة تعرّض لها الحجّاج كانت فيه، إذْ سُرقت للركب أَبْعِرة من طرف بعض سُرّاق أولاد خليفة من قبيلة العمور البدوية [3].

القنادسة: وردتْ في كتب الرحلات باسم "العوينة"، وهي أول قرى بشّار ذات النخل والتمر، لكنّ الأعرابَ (القبائل العربية من البدو الرّحل) غالبة عليهم غلبةً لا يطيب معها مقام، رغم قِرى ضيوف الرحمن[4].

بوسمغون: تقع جنوبَ غربِ الجزائر، وهي بلاد ذات أشجار سُمّيت "بَاسَمْغون" على اسم شيخ صالح حلّ فيها، وهناك قبره يُزار من طرف بعض الحجاج المغاربة [5].

الغاسول: تلي محطة بوسمغون، وهي من قُرى الجنوب الغربي الجزائري، وليس بعيداً عنها يعبرُ الركب المغربي الفاسي، ليتفق مسيره مع مسير الركب السجلماسي[6] (أو الفيلالي لاحقاً).

عين ماضي: من بلاد الأغواط، تقع بمحاذاة جبال العمور الجزائرية، اشتهرت لدى معظم الرحالة المغاربة كونها محطة رئيسية في طريق الحج مُثاقفةً وبيعاً وشراءً.

---

[1]) محطات الطريق الآتي ذكرها مرتبة جغرافياً وِفقَ مسير ركب الحج، من الغرب إلى الشرق.

[2])الصديق بن العربي: كتاب المغرب، ط03، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1984م، ص214.

[3]) أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة: 2012م، ص148.

[4]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص146.

[5]) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحُضَيْكي السوسي: الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط: 2011م، ص83.

[6]) أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي: الرحلة الحجازية، مخطوطة جامعة لايبزيك، فيينا، رقم: 746، ورقة31.

تاجموت: قرية جزائرية يجتازها الركب، تقع على ضفاف وادي مزي، ليس بعيداً عن الأغواط.

الأغواط: بوابة صحراء الجزائر، مدينة خيّرة عامرة على يمين طريق الحاج، لكنّ أهل قرية **دمد** القريبة منها ـ كما روى الشرقي ـ [1] مشهورون بالتلصّص والانتهاب، معروفون بسرقة الحجاج بين تلك السّهاب".

بلاد الزاب: بلاد واسعة كثيرة النخيل والأشجار، على أطراف الصحراء، بها مدن كثيرة منها: بسكرة وهي قاعدتها، سيدي خالد، أولاد جلال، سيدي عقبة، المسيلة، طولقة، نقاوس، تهودة، طبنة وغيرها[2]. أمّا القاعدة الشهيرة بسكرة فعاصمة الزّاب، بلدة ذات سلع رخيصة للحاج، وهي أول عمالة الترك العثمانيين جنوباً [3].

2ـ محطات تونس وطرابلس الغرب (إفريقيّة قديماً):

توزر: مدينة في أقصى إفريقية (تونس حالياً)، من نواحي الزّاب الكبير، قاعدة بلاد الجريد، لها سور عظيم حصين، معمورة وبها نخل كثير[4]. وصفَها ابن ناصر الدرعي بأنها [5]..أكثر بلاد الله سرقة وخطفاً، يسرقون بالليل ويخطفون بالنهار؟"، وهذه النظرة مما درجَ عليه أهلُ الرّحل وتوارثوه، وإنْ لم يُصادف ذلك حجّهم، ومما يُعضّد ذلك رأي الشرقي لاحقاً [6]".. **وقد قال** الرحّالون أن توزر أكثر بلاد الله سرقة وخطفاً".

قابس: مدينة كبيرة من عَمالة تونس، بين طرابلس شرقاً وصفاقس غرباً، وهي ذات مياه جارية [7].

---

[1]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة33.

[2]) محمد بن عبد المنعم الحِمْيَري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02، تحقيق: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت: 1984م، ص281.

[3]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص65.

[4]) الحِميري، المصدر نفسه، ص144.

[5]) أحمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، مخطوط ACAD.LUGO.BAT.BIBLIO، رقم: 61004، ج01، ص54.

[6]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة41.

[7]) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت: 1977م، ج 04، ص289.

طرابلس: مدينة كبيرة على ساحل البحر المتوسط، من أهمّ مدن إفريقية، بينها وبين سرت شرقاً عشر مراحل من السير، ومنها إلى جبل نفّوسة ثلاثة أيام [1]. كان الحجاج المغاربة يمكثون فيها شهراً استراحةً، ومن ثَمَّ استعداداً لدخول مفازة برقة المُوحِشة[2]. ورغم أن روايات الرحّالين تواترت بشأن أمن المدينة وحصانتها، إلاّ أنهم حذّروا من السرقة في أنحاء أعمالِ طرابلس[3].

تاجورا: موضع من أحواز طرابلس، وهو المدخل الغربي لقِفار برقة، ينزل في رُكنٍ منه ركب الحاج، فسُمي ذلك الموضع منزل الركب[4].

برقة: إقليم كبير لمدينة قديمة بين الإسكندرية شرقاً وإفريقية غرباً، وهو في المنتصف بينهما وتربته حمراء، يضم مواقع منها: الجبل الأخضر، سرت، الجابية...الخ [5]. وإقليم برقة هو مُنتهى طريق الصعاليك، لكنّه أخطر محطّاتها على الإطلاق، بسبب ازدواجية المشاق والمخاطر، حيثُ يسود عاملُ القِفار الخاليةِ المرعبة على أعمال اللصوص والسرّاق، لذلك أضحى الوصول إلى برقة واجتيازُها بسلامٍ مضرب المثَل للحاج الموفَّق، فيُقال بالعامية الدارجة في بلاد المغرب "حَجُّ وجَازْ عْلَى بَرقة؟". ويكفي للدلالة على ذلك المشهد الذي رسمه العياشي في رحلته عن سبخة الهايشة مدخل برقة قائلاً [6]... وهي سبخة مستطيلة وعلى جوانبها بناء وقصور خالية، وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس الشياطين، لا ترى أوحش منه ولا أثقلَ طلعةً على الحاج في ذهابه، لِما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز والمعاطش التي يحار فيها الدليل". فلا غروَ حينئذ أنْ تُنسب طريق الحج كلُّها إلى إقليم برقة [7] :

لا بُدَّ مِن جَوْبِ قِفَارِ بَرْقَه في نَحوِ عامٍ مَعَ بُعْدِ الشُّقّه

---

[1]) الحِميري، المصدر نفسه، ص389.

[2]) أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية الكبرى (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: 2006 م، ج 01، ص135.

[3]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص73.

[4]) الدرعي، المصدر السابق، ج01، ص75.

[5]) الحِميري، المصدر نفسه، ص91.

[6]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج01، ص195.

[7]) محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص 32.

ب ـ صعاليكُ[1] الطريق وصعاليكُ الرّكب:

صعاليك طريق الحج ليسوا شعراءَ شجعان متمردين على سلطة القبيلة وواجباتها، من قَبيل: السّليك والشنفرى وعروة وتأبّط شراً وغيرهم، لكنهم بعض الأعراب (وأحياناً يردُ ذكرهم بلفظ العُربان) ممن امتهنَ سلبَ ونهب أركاب الحج، طمعاً أو خشية إملاق، وإمعاناً في عادة التعرّض للركب وإذاية الحجاج في غدوّهم ورواحهم، فأُغلقت بسبب ذلك المسالك، ولم يعُدْ الحاج يأمن من الوقوع في المهالك[2].

لقد اتّفق معظم الرحالين المغاربة على كشف ممارسات أولئك الصعاليك، والتحذير من كيدهم ومكرهم في الطريق، يقول العياشي في رحلته الصغرى [3] وإنْ لقيتم الأعراب فاحذروهم فإنهم لا أَيْمان لهم، بل ولا إيمان؟"، وفي موضع آخر [4]"... ولا تأمنوا الأعراب على إبلكم في مسارحها في غياب عسكر طرابلس". بل نجد أحياناً سكان المدن والقُرى التي يعبرها الركب يُحذّرون الحجاج من الأعراب، ويَشْكُون إليهم غلَبتهم وكثرة عددهم وشدة إذايتهم[5]، والأدهى والأغرب في نظر الرحالين أنهم وجدوا الأعراب بعضهم يُحذّر من بعض[6]، وهذا دليل على تشعّب بطون تلك القبائل، واستحكام العداوة والبغضاء فيما بينها.

واللافت للنظر فيما رواه الرحّالون أنّ هؤلاء الصعاليك يتجنّبون المدن والأمصار الكبرى، ويتحيّنون فرص مرور ركب الحج بالوديان والوهاد التي لا مناص لهم من اجتيازها، ويستغلّون فترة حلول الظلام ومعرفتهم بالمداخل والشعاب للإقدام

---

[1]) يُنظر معاني هذه الكلمة لغةً واصطلاحاً في: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ج 04، مادة: صعلك، ص2452.

[2]) العياشي، المصدر نفسه، ج02، ص544.

[3]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص82.

[4]) المصدر نفسه، ص81.

[5]) من ذلك ما حكاهُ السجلماسي عن أهل الأغواط قائلاً "ولما رأى أهل الأغواط ركبنا استقلوه، فخوّفونا غاية من الأعراب، وقالوا: إما أن تصبروا هنا إلى أن يقدم الركب الفاسي فتجتمعوا معه، وإما أن ترجعوا من هنا بلا حج، فإنّا نخاف عليكم الأعراب، لكثرة عددهم وشدة إذايتهم، ولا تمكن النجاة منهم عادة".
يُنظر: الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص185.

[6]) لهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص199.

والهجوم. ورغم أنّ مضاربَهم تتبدّل حسب الفصول ووفرة المرعى والماء، والخصب والرخاء، إلا أن الثابت هو أنّهم يملؤون التّرهات والطرق لغرض واحد، كما يقول السوسي[1]:

والتُّرهاتُ باللصُوصِ تُعترَضْ وأنتَ وحدَكَ لهُمْ هُوَ الغَرَضْ

وفضلاً عن صعاليك الطريق الذين يُتقّى شرّهم قدر الإمكان، حملَ ركبُ الحج في ذاته صعاليك من نوعٍ آخر. إنهم حجّاج يقصدون البيت الحرام، لكنّهم عالةٌ على الركب، ينزلون وسطَه احتماءً بظهور مَن معهم ليأمنوا على متاعهم، لا ينفعون الركب بمدفعٍ ولا حراسةٍ بالليل، ولا يحضرون الجماعة، بلْ صاحَبتهم شرذمةٌ ضالّة، تحجّ لاكتساب الفلس والدينار، ولا تميّز الحلال عن الحرام[2]، فصدقَ فيهم قول الشاعر[3]:

رأَى البَيْتَ يُدعَى بِالحَرامِ فَحَجَّهُ ولَو كانَ يُدعَى بِالحَلالِ لَمَا حجَّا

وقد أضحتْ هذه الفئة من الحجاج عبئاً ثقيلاً على الركب طيلة الرحلة، لا تتقيّد بأوامر شيخ الركب، ولا تتحرّى السلامة العامة أو التزام الطاعة، وتقوم بأعمال وتصرفات تعود على الركب بالضرر، من ذلك مُفارقة الجماعة دون استئذان في بعض المدن. يذكر العياشي مثالاً على ذلك قائلاً [4]" وأردنا المبيت بالمسجد فوجدناه غاصّاً بالصعاليك من الحجاج، وأكثَروا فيه اللغط"، وفي تصرّف آخر منهم ينمّ عن لامبالاة وأنانية وعدم مسؤولية[5]" ولمّا كان المطر حفر بعض صعاليك الركب بيتاً تحت جرفٍ، فَكَنُّوا فيه من المطر، فسقط عليهم ودفنهم، فبادر الناس بالحفر عنهم فأخرجوهم سالمين". ولعلّ من لطائف الأقدار أنْ أصبح هؤلاء الحجّاج الصعاليك يقعون في شرّ أعمالهم، إذْ يذكر العياشي أنّ بعض الصعاليك تقدّم أول الركب دون إذن، فخرج عليهم لصوص وسلبوهم، فبلغَ الخبر إلى أمير الركب فتدخل[6].

---

[1]) محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص 07.

[2]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص196.

[3]) بن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة19.

[4]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج02، ص499.

[5]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص488.

[6]) العياشي، المصدر نفسه، ج01، ص129.

وبالنظر إلى تهوّر أولئك الصعاليك من الحجاج وتمرّدهم على ضوابط الرحلة، أصبح الجميع يرتاب من تصرفاتهم، ويحتاط لسرقة مالِه وأملاكه، خاصة إذا تعلّق الأمر بأشياء صغيرة يمكن إخفاؤها عن صاحبها، مِن ذلك مثلاً سرقة دلو لأحد الحجاج، كان يستخدمه في تسخين الماء للطهارة زمنَ البرد[1]. ويبدو أنّ خطر هؤلاء الصعاليك على الركب لا يقلّ عن خطر الصعاليك قطّاع الطرق، لأنه بإمكانهم سلب أثمن ما يحمله معه الحاج وإنْ صغُر حجمه، وبصفة خاصة مالُهُ الذي حصّله بعد جُهد وتدبير من أجل أداء مناسك الحج، لذلك جاءت النصيحة للحاج بشأن محفظته، من طرف الرحالة العياشي الخبير بمثلِ هذه الأحداث قائلاً [2]"...وإيّاك أن تنزعها من رقبتك عند فلي ثوبك، وإن أردتَ الاغتسال فلا تطرحها جانباً. ولفّها في قميصك الذي لا يمكن أن تنساه، وإنْ لم تقدر على تعليقها فحُطّها في صدرية، ولا تنزعها لإرادة النوم".

ذلكم قدَرُ الحاج، أنْ يقعَ في رحلته الطويلة المُضنية بين مطرقة صعاليك الخارج وسندان صعاليك الداخل، من أقوامٍ ليس لهم من حجّهم سوى المشقة والمخمصة والنّصَب، وفي أمثالهم ينقل الشرقي[3]:

حجَجْتَ البَيْتَ ليْتَكَ لاَ تَحُجُّ ومنكَ الرّكبُ في الآفاقِ ضَجُّوا
ورُحْتَ بِحَملِ أوْزارٍ ثِقالٍ فَعُدتَ وفَوقَ ذاكَ الحمْلِ خَرْجُ

02ـ أعمالُ الصعاليك وأساليبُ الاعتداء:

أ ـ مظاهر الاعتداء والسرقة والسطو على الركب:

لمْ تخلُ طريق الصعاليك (من فجيج إلى برقة) من مظاهر السلب والنهب خلال القرنين 11 و12هـ، ويرى معظم الرحّالة أنّ تلك الآفة قديمة قِدم توافد وتواجد القبائل العربية في بلاد المغرب الإسلامي، بل يربط بعضهم خراب إقليم برقة الحد

---

[1])المصدر نفسه، ج02، ص500.

[2])العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص51.

[3]) ابـن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة19.

الفاصل بين مصر والمغرب، وهي مسافة شهرين، بخروج قبائل عرب بني هلال[1] الشهيرة من مصر، في بداية القرن 05هـ/11م، فخرّبوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ[2]؟. لكن لا يمكن التسليم بأن تلك القبائل وفروعها هي المسبّب الوحيد لأحداث السلب التي شهدتها طريق الحج، بدليل وجود قبائل متباينة ومتنافرة فيما بينها، وشكوى بعض القبائل العربية سليلةِ بني هلال في حدّ ذاتها من اعتداء الأعراب عليها، واستقبال معظمها للحجّاج المغاربة في محطات العبور، بلْ وفي الطريق أحياناً من أجل التسوّق مع الركب.

رغمَ ما سبقَ لا يمكن إنكارُ حالات الاعتداء المتكررة على ركب ضيوف الرحمن، ولا يمكن تبريرُها بحالٍ من الأحوال، بغضّ النظر عن حجمها المُتنامي وجغرافيتها المتباينة. ولطالما اشتكى الرحالون من أعراب الأماكن القاصية وشدة أذيّتهم، على غرار: عرب الجبل الأخضر فهم [3]" من أشدّ العرب كفراً ونفاقاً، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله؟...لا حرفةَ لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة، قلّ ما مرّ بهم ركب سلم من أنشاب الحرب بينهم وبينه، بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم"، وأعراب وادي الناموس من بلاد الزّاب فهم [4]"سُراق قُطّاع يكمنون في الوادي، وينتهبون الحجاج كثيراً"، أمّا عرب سيدي خالد فقد جمعوا نحو ثلاثمائة فارس، ونزلوا أعلى الوادي قصدَ الوثوب على الركب إذا توسطهم[5] ؟.

وفضلاً عن تجهيز عدد كبير من الفرسان، لجأ قطّاع الطرق في بعض النواحي إلى استخدام نوع خاص من البنادق أو المدافع؟ ـ تُذكر بهذا اللفظ في كتب

---

[1])لمزيد التفاصيل عن قبائل بني هلال العربية وهجرتها الواسعة إلى بلاد الغرب الإسلامي وتأثيراتها المختلفة يُنظر:

عبد الحميد بوسماحة: رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، ط01، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر: 2008م.

[2]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج01، ص197.

[3]) العياشي، المصدر السابق، ج01، ص202.

[4]) الحضيكي السوسي، المصدر السابق، ص86.

[5]) العياشي، المصدر نفسه، ج02، ص544.

الرحلات ـ يُسمى "بوفتيلة"، لأنها لا زناد لها، وإنما تُضرم بنارٍ في فتيلة[1]. وغالباً ما تُحقّق إغاراتُهم أهدافها، ويستولون بصفة خاصة على ما أمكن من الدواب بأحمالها، فقد أخذوا نحواً من عشرين بعيراً في غارة بالجبل الأخضر[2]، واستولوا على فرسين أثناء السقاية قهراً [3]، وفي الحالات النادرة يسلم بلْ يفرح الحجاج، ولا يكون حظّ اللصوص إلاّ ما ذُكر في الواقعة التالية [4]"... فارتحلنا عنهم، ونجّانا الله تعالى بلطفه من شرّهم، ولم يَضِعْ للركب إلا بغلة وجملٌ سُرقا"؟.

ب ـ إعمالُ المكر والحيلة في قطع الطريق:

إنّ ضررَ الاعتداء كيفما كان بليغٌ على ركب الحج، ولكنّ بعض الشرّ أهون من بعض، وغالباً ما تكون الاعتداءات بقصد السرقة أشدَّ في رحلة الأوبة من رحلة الذهاب، بسبب ما يجلبُه الحجاج معهم من نفائس وهدايا، وبسبب وجود القوافل التجارية المُصاحبة في رحلة الحج. وحينما يقطع الركب مسافة يوم كامل دونما سرقة أو اعتداء فذلك مدعاة للفخر والغرابة، كما يروي السجلماسي في رحلته الحجية متندّراً [5]"... وسِرْنا جميعَ النهار فلم نَرَ سارقاً بحمد الله، جزاهم الله خيراً؟ فإنّ هذا الزمان أولى بإنشاد قول أبي الطيب:

إنَّا لَفِي زمَنٍ تَرْكُ القَبيح بِهِ مِنْ أَكثَرِ النّاسِ إفضالٌ وإجْمالُ"

لكن اجتناب المواجهة المُباشرة مع الركب لا يعني بِحالٍ انتفاءَ خطر السُرّاق، بل إنهم يلجؤون إلى الحيلة والمكر، كأنْ يُجبروا الحجّاج على منحهم فرساً لشيخ القبيلة كلّما مرّ ركبٌ بإزائهم، بدعوى أنّها عادة قديمة من زمن أجدادهم [6]؟ أو الهجوم على مؤخّرة الركب، والتمكّن من سرقة حاج، سلبوه ثيابه وبضاعته، وشجّوه

---

[1])الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص207.

[2]) العياشي، المصدر نفسه، ج02، ص495.

[3])الدرعي، المصدر السابق، ج01، ص34.

[4]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص225.

[5]) المصدر نفسه، ص170.

[6])العياشي، المصدر السابق، ج01، ص198.

بحجر[1]، أو التسلّل خُفية أثناء نزول الركب، حيث سَرق أحد المتلصّصة فرساً لحاج، ركضَها من فِناء الخيام [2]، أو الجُرأة على الحاج الحارس ـ وقد أصابتهُ غفوة ـ إذْ سرقَ اللص بندقيتَه وسلبَه بُرنُسَه، ثم احتمى بالجبل[3]...الخ.

ومن طرائف الوقائع مع صعاليك الطريق، أنّ بعضَهم جاء للحجاج بِسلعٍ كثيرة للبيع، فيها كُتُب قيّمة، منها مصحف بخط مشرقي وكتاب في فقه الحنفية، لكنهم كانوا قد نهبوها من سفينة تكسّرتْ في بعض سواحل المتوسط [4]. والغريبُ في الأمر أنّ لهؤلاء الأعراب جرأةً كبيرة على سرقة الحجاج بأيّ شكل، مردّها الأول والأخير الجهل والطمع، حيث وصلَ بهم الأمر في إحدى المرّات إلى أنّهم [5] "يتبايعون مع الحجاج، ثمّ يخطِفون من أيديهم المبيع ويذهبون به؟ فقليل من يلحقهم لكثرة الازدحام. وقد غسلَ الحجاج ثيابهم ونشروها وجلسوا عليها يحفظونها، فإذا رأى أحدهم غفلة من صاحبها وثبَ عليها كالسنّوْر فاختطفَها وفرّ هارباً، ولا غرابةَ في ذلك، حتى إنّهم ـ في نظر السجلماسي ـ قد يختلِسون القدور وهي تغلي[6] !؟.

03ـ عواملُ اختيارِ الركب طريقَ الصعاليك:

رغم تلكم الصعوبات والاعتداءات التي اعترضت الحجاج في هذه الطريق، إلاّ أنّ معظم الأركاب المغاربية دأبتْ على عبورها سنوياً تِباعاً، والسؤال المحيّر هو لمَ الإصرار على اختراقها رغم التحذير والتنويه باستمرار إلى مخاطرها؟ لعلّ مردّ ذلك جملةٌ من العوامل والأسباب المنطقية، أبرزها ما يلي:

أ ـ عامل جغرافي:

يتمثّل في كون هذه الطريق موائمةً كأقرب الطرق وأقصرها مسافة، وكما يُقال في عُرف أهل الرياضيات فإن أقرب خط بين نقطتين هو الخط المستقيم، فرغم وجود

---

[1]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص174.

[2]) العياشي، المصدر نفسه، ج02، ص489.

[3]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص163.

[4])العياشي، المصدر نفسه، ج02، ص491.

[5]) الدرعي، المصدر السابق، ج01، ص54.

[6])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص197.

بعض المنعرجات إلا أنها أقلُّ مقارنةً مع الطريق العليا أو الطريق الجنوبية البعيدة الموغِلة في الصحراء. إضافةً إلى وفرة المراعي والكلأ وعيون الماء، خاصة في مقطع السهوب الجزائرية، وهي أنفسُ ما يبحث عنه الركب، وأكثر الأشياء إدخالاً للسرور في نفوس الحجّاج، وقد عبّر الرحّالة عن ذلك بأنّ الدواب نالتْ من المرعى عيشاً رغداً [1]. كما أنها تخلو في معظم محطاتها من عروض الحرارة الحامية، ومن عروق الرمال العالية، والرياح العاتية، المُثبّطة لعزائم الحجاج في سيرهم، والتي من شأنها أنْ تؤدي بهم إلى التيه والضياع.

ب ـ عامل سياسي:

يتجلّى في أن معظم محطات الطريق هي بمثابة "نقاط تماس" مع النفوذ التركي العثماني، بعيداً عن المراكز والمدن الكبرى، حيث السيطرة والهيمنة على حركة القوافل والبضائع، مما يُتيح قدراً من الحرية للحجاج. على أنّ الركب المغربي الرسمي منذ انبعاث الدولة العلوية منتصف القرن 11هـ/17م اعتاد المسير عبر هذه الطريق[2]، ممّا شأنه توفير هامش من الحماية لبقية الأركاب المغاربية المتجزّئة، ويصبغ على الطريق نوعاً من الهالة والمهابة، فقد يكون له صدى في نفوس الصعاليك اللصوص؟.

04ـ زادُ الحجّاج وسلاحُهم:

أ ـ الزّاد الروحي والزّاد المادي:

إنّ أعظمَ ما يمكن أنْ يتزوّد به الحاج المسافر هو التقوى، مصداقاً لقوله تعالى [3] **"وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى"**، ومُلازمة ضروریاتها من إخلاص العمل لله، واللجوء إليه عند طلب التيسير، والإكثار من الذكر المأثور، وقد أسهمَ الرحالون

---

[1]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص166.

[2]) لمزيد التفاصيل عن أشهر الأمراء والأميرات من دولة العلويين الذين مرّوا بهذه الطريق خلال الفترة المدروسة يُنظر:

عبد الرحمن بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط01، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: 2008م، ج03، ص ص32،26.

[3]) سُورة البقرة، الآية 197.

المغاربة ـ في نصائحهم للحجّاج ولِمن يأتي بعدهم ـ في التوجيه إلى جملةِ الأذكار والأدعية المتعلّقة بالحفظ والمعافاة من آفات الطريق وصعاليكها، فقد نقلَ العياشي في رحلته الصغرى كثيراً من تلك الأدعية، أمّا الشرقي فقد أفردَ مقدمة وافيةً في رحلته لذلك الأمر.

من أمثلة ما نقلَ العياشي الفقيهُ الدعاء التالي [1] "اللهمّ إلهَ جبريل وميكائيل وإسرافيل وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، عافينا ولا تسلّطْ علينا أحداً من خلقك بشيء لا طاقة لنا به"، بينما وجّه السجلماسي المسافر الحاجَّ إلى الإكثار من قول "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ونظمَ في الدعاء للحفظ أرجوزة، من أبياتها[2]:

فهَبْ لَنَا عَافيَةً.. بِنَا تُحيطْ أنتَ الحَفيظُ والمُقيتُ والمُحيطْ

أُلطُفْ بِهذا الرَّكْبِ لُطْفاً لا يَذَرْ سُوءاً يَحومُ حَوْلَهُ.. ولا حَذَرْ

وبما أنَّ وجود الأعراب الصعاليك كان أكبرَ خطر يُهدّد ركب الحج المغاربي، فقد اهتدى الحجّاج إلى أخذ الحيطة والحذر فيما يتعلّق بالمؤونة والغذاء، من أجل اجتناب مضارب تلك القبائل وأسواقها قدر المُستطاع، وذلك بالتزوّد الشامل في المدن والمحطّات الكبرى فقط، ولأجل ذلك ينصح العياشي قائلاً [3]: ".. وخذ من الزاد من سجلماسة ما يبلّغك إلى بسكرة، وهي مسافة شهرٍ تزيد قليلاً"، والأمر ذاتُه بين محطتين أخريين هامتين، هما طرابلس وبرقة[4]، تحقيقاً للاكتفاء واحتياطاً لعوائق الطريق. ولا يتمّ الأمر إلاّ باستصحاب الدليل الماهر الخِرّيت، الخبير بالطريق وغوائلها، فهو أنفعُ رفيق، ويظلُّ من الله ـ وحده ـ التوفيق [5].

ب ـ ردود أفعال الحجّاج المغاربة:

في ظلّ غياب حمايةٍ رسمية لأركاب الحج، بسبب طبيعة الطريق والسلطات القائمة المتحكّمة حينئذ، وتباين أقاليمها سياسياً، لم يقفْ الحجّاج المغاربة مكتوفي

---

[1]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص55.

[2]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص185.

[3])العياشي، المصدر السابق، ص51.

[4])المصدر نفسه، ص74.

[5])الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص166.

الأيدي أمامَ تلك التحرّشات التي ألِفَها الأعرابُ الصعاليك، بل تحلّوا بالحيطة والحذر، وباتوا مستعدّين لأيّ طارئ أو طارق، لِما اعتادوا في الطريق من النهب والسرقة [1]. ومن الأساليب الناجعة حيالَ ذلك أنْ ينقسمَ أصحاب الخيل والبغال إلى قسمين: قسم أمام الركب وقسم وراءه، ليحرسوا من تطرَّف من الركب سابقاً أو لاحقاً [2].

ولا يمكن أن تنجح عمليات الحراسة دون امتلاك سلاح رادع مهيب ـ وقتئذ ـ يتأتّى امتلاكه وحملُه بيُسر للمشاة والخيّالة على حدّ السواء، لذلك اصطحبَ الحجاج معهم في أول الأمر البنادق البارودية، المعروفة محلياً باسم المكاحل[3]، فإنها ـ في نظر العياشي خلال القرن 11هـ/17م ـ [4] هيبةُ الطريق وأيّ هيبة؟ وهي نعم السلاح لمن هو في تلك الطريق"، ولاحقاً (القرن 12هـ/18م) تمّ استخدام البنادق (المدافع) المزودة بالرصاص الحي في الحراسة، حيث يذكر السجلماسي أنّ لصاً تمكن من سرقة بندقية من بعض الركب، وحين تبعوه رماهم برصاصة، لكنّه لم يُصِبْ أحداً[5]. ونظراً لِما عُرفت به الطريق فقد أصبح الحرّاس من أعوان الركب الرئيسيين، ومكوّناً هاماً لا يعدو أنْ يكون من ضمن الحجّاج أنفسِهم، شريطةَ التحلّي باليقظة والخفّة والقدرة على المُقارعة والمناورة. وقد تمكّن الحرّاسُ في إحدى المرات من سارق خطير تسلّل ليلاً، وأوثقوه إلى الصباح، ثمّ سلّموه إلى أمير المدينة المجاورة، فأمرَ بخنقه إذْ كان مشهوراً بالتلصّص عندهم[6].

ومنْ أساليب الحراسة والحماية من خطر الصعاليك إعلانُ النفير العام داخل الركب، وذلك أن تُنصب الراية الكبرى من طرف فارس يتقدم الركب ليستكشفَ الطريق

---

[1])ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة32.

[2])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص173.

[3]) **المكاحل:** كلمة عامية شائعة ببلاد المغرب، مفردها **المكحلة**، والمقصود بها هنا البندقية المستخدِمة للبارود. ومن معانيها اللغوية الوعاء، ولعلها سميّت بذلك لاحتوائها البارود وحشوه في الوعاء.
يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، مادة: كحل.

[4]) العياشي، المصدر نفسه، ص51.

[5])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص163.

[6]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج01، ص177.

والتأكد من سلامتها يُسمّى "العَلاّم[1]"، وإثر ذلك يتمّ نقرُ الطبل من طرف حاج متخصّص، حيث يسمعه جميع من في الركب، فيجتمعون ويتهيئون لمدافعتهم[2]. وقصد إرهاب الأعراب وتخويفهم بالليل ـ خاصة إذا كانوا كثيري العدد ـ يُلجأُ أحياناً إلى إيقاد النار خارج الأخبية والمنازل، ومن ثمّ ضرب المتربصين بالركب بالبنادق[3].

وفي حالات نادرة يكون ردّ فعل الحجّاج على اعتداءات الأعراب الصعاليك من نوع خاص، من ذلك مثلاً أنْ يشتكوا إلى شيخ العرب ـ إنْ هم توسّموا فيه الإنصافَ والإغاثة ـ ليردّ إليهم ما سلبهُ مُنتسبو قبيلته، فقد يُجدي ذلك أحياناً، مقابل كسوة أو هدية يعِدونه بها([4]) ؟. وفي حالة أخرى انتقامية لحظةَ غضب، قام أحد الحجّاج من الركب بالاعتداء على أعرابي تمكّنَ منه، فسلَبهُ ثوبَه ثأراً لحاجّين سُلبت ثيابُهما في نفس المكان، فأعطى الثوب لأحد الرجلين المسلوبَين، معتقداً من جهله جوازَ ذلك[5]؟.

05ـ الطريقُ ليست كلُّها صعاليك؟:

إنّ المطّلعَ على حجم الاعتداءات التي تعرّض لها الحجّاج في ظعَنِهم وإقامتِهم ببعض المحطات، من ترهيبٍ ونهبٍ وسلب وسرقة وابتزاز وخديعة، يكادُ يعتقد أنّ الطريق كلَّها لصوص وصعاليك؟ وأنْ لا مجالَ للقيم الإنسانية أو الأبعاد الحضارية فيها، غير أنّ الواقع الذي أثبتَه الرحالون يُفنّد ذلك الاعتقاد. فالطريقُ مكتباتٌ وكتب وعلوم يحرص الحجاج على مُدارستها، وأعلام وعلماء يبتغون زيارتهم، ورجالٌ ونساء وصبيان يتلقّون الركب بصدر رحب ويُكرمون وِفادته. الخ.

وعلى ذكر الكرم فكتبُ الرّحلات الحجازية لا تخلو من عبارات الثناء والعرفان على أهل القرى والمدن، وعلى بعض أعراب البوادي، الذين يُكرمون الركب غاية الإكرام، فمنهم من أتى الركب أفواجاً فُرادى وأزواجاً شيوخاً وكهولاً وشبّاناً رجالاً ورُكباناً

---

[1]) الحُضيكي، المصدر السابق، ص85.

[2])الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص197.

[3])العياشي، المصدر نفسه، ج01، ص177.

[4]) المصدر نفسه، ج02، ص489.

[5])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص169.

بفواكه كثيرة، بعنب وبسر وخوخ..[1]، وفي محطة بسكرة عاصمة الزاب، التي سار الحجّاج بإزائها، خرج أهل البلد جلُّهم للقاء الركب بالترحيب والتحبيب، فأحاطوا به من جميع الجهات، وشرعوا يلعبون بالخيل والبغال في زينتهم لإظهار السرور والترفيه عن الحجّاج [2]، والحفاوة ذاتها وجدها الحجاج في طرابلس الظريفة ذات الفواكه المنوعة والظلال الوريفة ـ كما وصفها الشرقي ـ فقد بالغ أهلها في الإكرام بأنواع الطعام والشراب[3]. وفي بلدة صغيرة بالطريق تمّ استقبال الحجّاج بأوانيَ من الطعام، على الواحد منها نصف شاة لحماً [4]... ومن أمثال هذه الحالات كثير.

وما يميّز هذه الطريق أيضاً وجود عشرات الزوايا والمدارس والمساجد العتيقة، من أشهرها زاوية سيدي عبد الرحمن الأخضري، صاحب التأليف المشهور ببلاد المغرب، الأرجوزةِ الموسومة بـ "السلم المرونق في علم المنطق"[5]، وقد نقلَ معظم الرحالين ـ وعلى رأسهم العياشي ـ بأن الأخضري المذكور هو من أبانَ عن قبر سيدي خالد (نواحي بسكرة)، وأكّد أنه النبيُّ خالد بن سنان العبسي، من حكماء العرب في الجاهلية، وإنْ كان الاختلاف حاصل بشأنه وشأنِ مدفنِهِ بالمغرب الأوسط [6]؟. ومن عبقِ التاريخ في طريق الصعاليك بإقليم الزاب أيضاً مدينة سيدي عقبة، التي يحرص الحجاج المغاربة أيّما حرص على زيارتها، حيث قُبِر القائدُ الفاتح الشهير "عقبة بن نافع الفهري الأموي"، فاتحُ إفريقية وباني مدينة القيروان[7]، إضافة إلى زيارة ضريح

---

[1]) الدرعي، المصدر السابق، ج01، ص28.

[2])الحُضيكي، المصدر السابق، ص86.

[3]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة43.

[4])الدرعي، المصدر السابق، ج01، ص30.

[5]) **عبد الرحمن الأخضري** (ت953هـ/1546م) من أعلام الجزائر المتصوّفة في بداية العهد العثماني، يُنظر ترجمته في:

بوزياني الدراجي: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوّق في عصره، ط02، البلاد للنشر، الجزائر: 2009م.

[6])العياشي، المصدر نفسه، ج02، ص543.

[7]) الحُضيكي، المصدر نفسه، ص86.

الصحابي أبي لُبابة الأنصاري، أحدِ صحابة النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ في قابس[1].

ومن لطائف رحلة الركب المغاربي في هذه الطريق، مرورهم في محطة قابس بِرَحَى لطحن الحبوب غريبة الصنعة، يتمّ تشغيلها بالماء من وادي المدينة الجاري، إلاّ أنها أصبحتْ تتعطّل كثيراً [2]. وبما أنّ هذه الطريق تعبُر هضاب الجزائر العليا شديدة البرودة، فقد عانى فيها الحجّاج كثيراً في موسم الشتاء، وصادفهم أحياناً نزولُ الثلج بكميات كبيرة لم يألفوها، إذْ يروي الدرعي في رحلته المشهد التالي: [3]... ونزل بنا ليلاً من الثلج ما كثرَ وثُقلت به الأخبية، وغُطّيت الطرقُ وظهورُ الإبل والدواب، ولمْ يزلْ كذلك إلى الظهر، وعجَّ الناس إلى الله بالدعاء والابتهال والتضرّع". والظاهرُ أنّ شدّة البرودة كانت ممّا يتخوّف منه الركب كثيراً، رغم انعكاس ذلك إيجاباً على المرعى ومناهل الماء، ففي الشتاء تقصُر الأيام وتكثر المراحل للمبيت، وتتّسع الأمعاء للأكل؟ فلا يكاد يكفي الإنسانَ ما يحمله من الزاد، خصوصاً في المقاطع الخالية من الطريق[4].

وطريقُ الصعاليك ـ فضلاً عمّا سبق ذكره ـ فضاءٌ للتواصل بين الحجّاج وساكنةِ القرى والمداشر والأمصار بيعاً وشراءً، لكن الاحتياط في ذلك واجب، لأنّ الشراء في الغالب إنما هو من عند النساء والصبيان وضعفة الرجال[5]؟ حيثُ إن بعض النساء يتسوقن مع الحجاج، ومن دخل إليهن يتسوّق معهن في الدُّور دون حجاب[6]. وبعض البلاد خصّها الرحالون بالتنبيه والتحذير من فتنة النساء، على

---

[1])الدرعي، المصدر نفسه، ج01، ص55.

[2])العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص69.

[3])الدرعي، المصدر نفسه، ج01، ص31.

[4])العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج02، ص491.

[5]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص48.

[6]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص165.

غرار قرية عين ماضي، فنساؤها[1]" يرُعْنَ بالحسن والجمال، من أزهرِ النساء سناءً وأزهاها، وأبهرِها سَناً وأبهاها، عيونٌ فواتر أمضى في القلوب من السيوف البواتر:

عَيْنُ مَاضي بِها عُيونٌ مَوَاضٍ فَاعِلاتٌ فِعلَ السُّيوفِ المَواضِي

وقُدودٌ تزْهو إذا قدّتِ القَلبَ ازدِهاءَ الأغصانِ بيْنَ الرّياضِ"

وكي لا تصيب تلك السهامُ الحجّاج، دأبَ الرحّالون المغاربة على إسداء النصح لِعابر هذه الطريق عامةً وللحاج خاصة: [2]"... إيّاك ثم إيّاك يا أخي أن تدخل القرية!؟ وَالْزَمْ منزِلَك وخَباءَك، واغضضْ بصرك، فإنهنّ يفتِنَّ من رمْقهن..ولقد افتتنَ بهن عامةُ الحجاج؟ والعياذ بالله من فتنة الأهواء واتباع الشهوات".

الخاتمة:

إنّ "طريق الصعاليك" وكلَّ ما بينّاهُ من يوميات حجّاجها، ما هو إلا جزء يسير من زَخَم ركب الحج المغاربي، العامرِ بأبعاد وجوانب اجتماعية، ثقافية، اقتصادية...وأيضاً وجدانية. فالطريق تحتاج إلى دراسات أخرى جادّة من أجل استنطاق تلك الأبعاد؟. وعلى ذكر الوجدان فإنّه رغم تلك المخاطر المتباينة والبيّنة، لا يأتي أوانُ ارتحال الرَّكب، إلا أطاعت الجفونُ داعيَ السّكب، وحنَّتْ حَنينَ الثكْلَى الوَالِه، إلى معاهد الرّسولِ وآلِه، ودبَّ بين الجلدِ والعِظام، دبِيبُ الشَّوق إلى تلكَ المشاعرِ العِظام[3]. ولسانُ حالها يقول:

يَا مُزمِعَ الارتِحالِ عنَّا أَسْعَدكَ اللهُ في ارْتِحَالِكْ

كانَ لكَ اللهُ خَيرَ واقٍ أَمَّنَكَ اللهُ في المَسَالِكْ

---

[1]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة32.

[2]) الحُضيكي، المصدر السابق، ص84.

[3]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج01، ص53.

المصادر والمراجع المعتمَد

- ابن زيدان عبد الرحمن: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط01، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: 2008م، ج03.
- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة.
- ابن العربي الصديق: كتاب المغرب، ط03، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1984م.
- بوسماحة عبد الحميد: رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، ط01، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر: 2008م.
- الحُضَيكي السوسي أبو عبد الله محمد بن أحمد: الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط: 2011م.
- الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت: 1977م، ج 04.
- الحِمْيَري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط02، تحقيق: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت: 1984م.
- الدراجي بوزياني: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوّق في عصره، ط02، البلاد للنشر، الجزائر: 2009م.
- الدرعي أحمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، مخطوط ACAD.BAT.BIBLIO، رقم: 61004..
- المقّري التلمساني أحمد بن محمد: نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت:1988م، ج1.
- العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية الكبرى (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: 2006م.
- العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد: الرحلة الصغرى (تعداد المنازل الحجازية)، ط01، تحقيق:عبد الله حمّادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت: 2013م.
- القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط: 1991م.
- السجلماسي أبو العباس أحمد الهلالي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة: 2012م.
- السوسي محمد المختار: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، الرباط: 1959م.
- الشرقي الفاسي محمد بن الطيب: الرحلة الحجازية، مخطوطة جامعة لايبزيك، فيينا، رقم: 746.

الملاحق

رسم توضيحي لمسار الطريق (طريق الصعاليك. خاص)

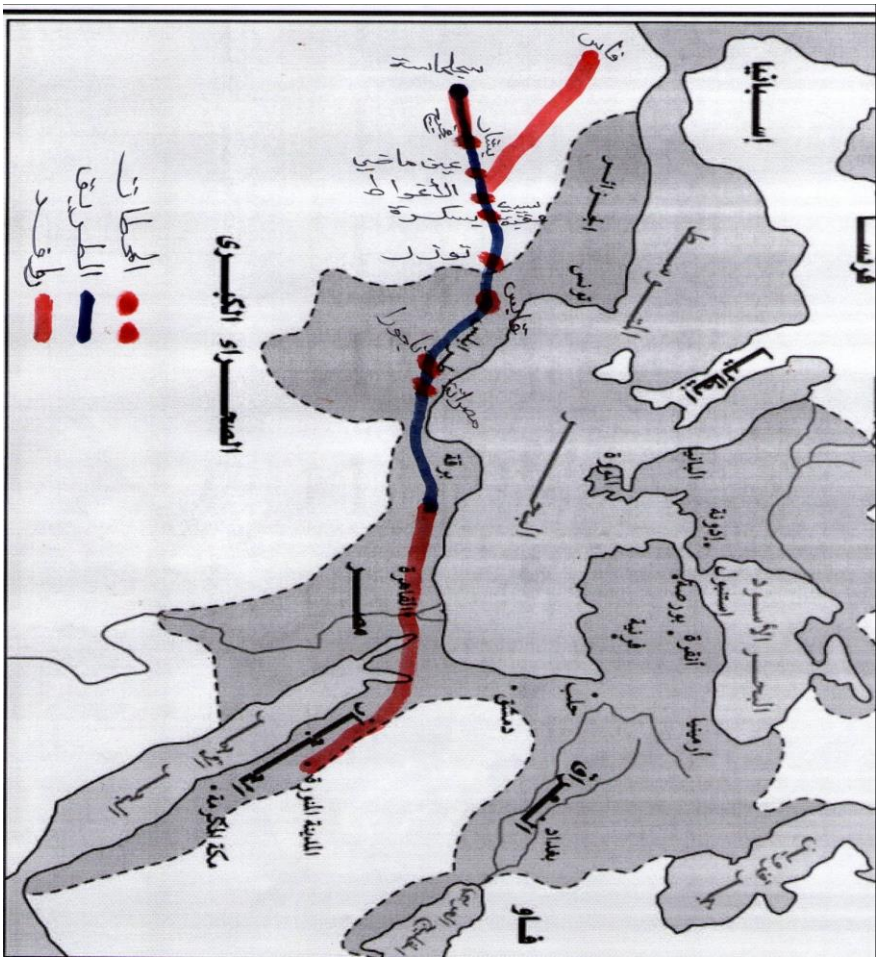

من رحلة ابن ناصر الدرعي سنة 1121هـ/1709م (مخطوطة المكتبة الوطنية. الجزائر)

من رحلة ابن الطيب الشرقي سنة 1139هـ/1727م (مخطوطة جامعة لايبزيك. فيينا)

كتاب "الرحلة الحجازية الأولى " للشيخ إبراهيم إنياس الكولخي

د. صالح أحمد أبوالفتح

مستخلص

هناك عدة شخصيات رحالة عربية وأوربية اهتمت بتسجيل رحلاتها شعراً ونثراً. وسجلها التاريخ في سجل الرحلة أو ما يعرف اليوم بأدب الرحلة وهناك بعض الشخصيات التي طافت الأقطار وسجلت لنا ما وقع تحت أبصارها ولمس شعورها، إلا أنها تشتهر في سجل الرحل، ومن هذه الشخصيات شخصية شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم أنياس الكولخي الأفريقي، فدواوينه مليئة بتسجيل المشاهد التي شاهدها في رحلاته،إذ أنه القائل عند زيارته للروضة الشريفة." وردت على هناك أدعية نظماً وشعراً،.....ومن الشعر :

ياربنا بالمصطفى والآل * وبالعتيق الندب ذي الجلال**

فهذه المقالة عبارة عن محاولة تسجيل رحلته الحجازية الأولى، قام بها الشيخ من مدينة كولخ بالسنغال إلى أرض الحجاز لزيارة الحرمين وهي بحرية.حيث نجد التصوير الفني لمشاهد الرحلة مرة، والرؤية والرسالة لمناسك الحج والعمرة لدى الشيخ مرة أخرى.

An analysis of Sheikh Ibrahim Inyass al-kaulahis *arrihalal Hijaziyal ula* (the first Hajj journey)

Dr. Saleh Ahmad Abulfathi

Abstract

There are famous travelers from among the Arab and European who were concerned with recording their travels poetically and historically in a travelogue.There are others who traveled around and recorded what they saw and felt but what they saw is neither known nor recorded in a travelogue.Sheikh Ibrahim Inyass alkaulakhi falls within this second category.His collection of poetry are full of Accounts of his travel in which he recorded most of what he saw. He once said on a visit to the honored al-Raudah" I got inspired therein، with supplication in verse and prose. Some of the poems are:

Our Lord through al-Mustafa and his family
And through loyal and esteemed company

This article is an attempt to study Sheikh Ibrahim's the first Hajj journey "which is through sea. The travelogue is full of imagery، a vivid description of the journey، his vision and his mission regarding the performance of Hajj and Umrah.

مدخل:

إن الرحلة الحجازية نوع من أنواع أدب الرحلة العربية التي تهدف إلى وصف رحلات المسلمين إلى مكة والمدينة، وإلقاء الضوء على شعائر الحج وأشواق الحجاج إلى المقامات المقدسة.وقد ازدهر هذا النوع من النصوص في الأدب العربي ازدهاراً كبيراً وذاع صيته وانتشر عبر القرون. ويتميز هذا النوع من الأدب بنقل مشاهدات الرحالة لما حوله من ظواهر اجتماعية وعمرانية ومعرفية وثقافية خلال رحلة العبور الإنتقال من بين الأمكنة.[1]

التعريف بصاحب الرحلة:

إن صاحب هذه الرحلة شخصية عظيمة في العالم الإسلامي في القرن العشرين، فهو شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم إنياس الكولخي الذي شهد نور الحياة بعد عصر الخميس الخامس عشر من شهر رجب سنة 1318هـ [2] / الموافق بـ: السابع عشر من شهر أكتوبر/1900م.- وكان الميلاد المبارك بقرية "طيبة نيسين" في إقليم "سين سالوم" في جمهورية السنغال بغربي أفريقيا".[3]

نشأ في بيت علم ودين، وحفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من العمر، فنبغ في العلوم الشرعية واللغوية، من فقه، وتصوّف، وأصول، وقواعد، ومغاز، وأدب، وسير، ونحو، وصرف الخ – نبوغًا قد تحيرت منه العقول؛ وأصيبت بالذهول حتى قال عنه أحد الكتاب: "والحقيقة إن ظروف دراسة الشيخ لا تخلو من بعض الغموض، فقد توفي عنه والده وعمره لا يزيد على العشرين، بينما نجده قد نص على

---

[1]) محمد المسعودي، بناء الرحلة الحجازية في كتاب " الحج إلى بيت الله الحرام.

[2]) مولود.محمد سالم. د. ت..ص:10.

[3]) عبدالله موسى، 2010. ص: 27.

أنه لم يتعلم على غير والده، بيد أنه تصدر للإفتاء في النوازل والتعليم عمومًا مع وجود الأخ الأكبر وخليفة والده الحاج محمد على علمه وجلالته، وهذه الفترة الزمنية التي سبقت وفاة والده لا تكفي لتهيئة شاب حدث خاصة في بلاد السودان (الغربي)– لمثل هذا المنصب، وقد ذكر الشيخ – رضي الله عنه – في إجابته للحسن بن السيد أنه ما قرأ إلا على والده، وأن والده لم يقرأ إلا على والده السيد محمد، وأنه حفّظه القرآن وليس عندهما – أي السيد محمد والحاج عبد الله – مصحف.[1]

وقدرحل الشيخ تاركًا وراءه ثلاثة شواهد دالة على مكانته الدينية والدنيوية. أما الشواهد فهم:

– رجال أكْفاء يحملون مشعل الدعوة الإسلامية في جميع زوايا العالم، جزاهم الله عن الدين والعلم خير الجزاء[2].

– وإنتاجات علمية ومعرفية خدمة للدين والعلم والمعرفة من نحو: كاشف الإلباس، ومطرب السامعين الناظرين، ووجه التحقيق في كون جامع المدينة هو العتيق، ورفع الملام عمن رفع وقبض اقتداء بسيد الأنام، وتحفة الأطفال في الصرف، وروح الأدب في السيرة والسلوك، وغيرها الكثير الكثير.

- – وإنتاجات أدبية رائعة وظفها كلها في خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.[3]
- – ورحلات رائعة ومن بينها رحلته هذه التي نحن بصدد الحديث عنها.

رحلاته:

يعد الشيخ إبراهيم من أشهر فطاحلة العلماء في أفريقيا الغربية الذين كرسوا جهدهم واهتموا بشد الرحال من مكان إلى مكان، ومن مدينة لأخرى بل من قارة إلى قارة أخرى.وقد طاف جميع القارات ونزل في بعض مدائنها وأمصارها زائراً وداعياً إلى الله.فقد رحل إلى الدول العربية مراراً وتكراراً، ونزل في بلاد أوربا كثيراً، وسافر إلى آسيا عدة مرات، وطاف كما طاف في بلاد أفريقية سيما أفريقيا الغربية.وقد خاض

---

[1]) محمد، ولد الشيخ عبد الله، 2012. ص: 385.

[2]) إبراهيم علي كويري، 2007. ص: 40.

[3]) محمد، ولد الشيخ عبد الله، مصدر سابق. ص: 385.

الشيخ غمار الرحلات واستخدم جميع أنواعها براً وبحراً وجواً.وسجل أحداثها نظماً ونثراً.وجمعت أهم هذه الرحلات في كتاب وأطلق عليها " مجموع رحلات الشيخ إبراهيم إنياس " وهي على النحو التالي:

الرحلة الحجازية الأولى:

نيل المفاز بالعود إلى الحجاز

الرحلة الكناكرية والكماشية

الرحلة الكناكرية. [1]

تصنيف الرحلة:

تُعزى رحلة الشيخ إنياس إلى نوع الرحلة الحجازية كما يتبين من عنوانها إذ إنها رحلة تمت إلى الديار المقدسة (بيت الله الحرام). وهي تدون جوانب تتعلق بالسفر إلى الحج وتسجل مراحل هذا السفر ومالاقاه الرحالة من ترحيب وتيسير عند دخول الأراضي الحجازية لمكانتيه الدينية والدنيوية.على نقيض بعض الحجاج الذين يعانون في أسفارهم.

تاريخ الرحلة:

وقعت هذه الرحلة سنة 1355هـ الموافق 1935م،[2] و كانت مدينة كولخ بالسنغال منطلق الرحلة حيث غادر يوم الخميس التاسع من شوال بعد أن صلى ركعتين وقرأ بعض الأدعية المأثورة وودع أهله و أقاربه وجيرانه ودعا لهم ودعوا له،كما طلب الوصية من أخويه. ثم ركب فرسه إلى المحطة حيث ركب سيارة متوجهة إلى العاصمة دكار ومنها استقل الباخرة المسماة ب كناد.متوجهاً صوب الحجاز يرافقه اثنان من تلامذته معبد ومحمد الأمين و استغرقت الرحلة من خروجه من كولخ إلى وصوله إلى ميناء جدة شهراً وأربعة أيام زار في أثنائها عدداً من المدن مثل فاس وصفر وطنجة كما مر بالسويس وبورت سعيد.

---

[1]) إبراهيم علي كويري، ص: 40.

[2]) المصدر نفسه.

القصدية:

ترتبط قصدية هذه الرحلة برغبة الشيخ في زيارة الديار المقدسة وأداء شعائر الحج. وقد صرح عن هذه الرغبة في مطلع رحلته حيث يقول " ففي انتصاف رمضان قوي عزمي على السفر إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وحرز زيارة الوسيلة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم" وقد عبر عن هذا الشوق في الأبيات التالية فور وصوله إلى المدينة المنورة:

لقد عادني الشوق المبرح إذ دنا * مزار حبيب الله والجسم أعلنا

مزار أمين الله مركز سره * عليك سلام بالتأدب مقرنا

مزار لنا منه العلوم تفجرت * وجبريل فيه خادم فله الهنا

وأنشد أيضا:

أتاك رسول الله زور معفرا * خديداً لدى أعتاب بابك معسرا

ويطلب منك البسط والقبض والجدى * أتاك محباً في الحقوق مقصرا [1]

وهذا الحنين والشوق إلى لقاء المصطفى صلى الله عليه وسلم هو الذي دفعه إلى قطع المسافة الشاسعة وتحمل مشقة السفر للوصول إلى المبتغى.

القانون الخطابي:

يتشكل القانون الخطابي لهذه الرحلة من أطراف خطاب، يمكن تحديدها في العناصر الثلاثة الآتية:

1- المرسل / السارد وهو كاتب الرحلة

2- الرسالة / السرد، وتتشكل من متن الرحلة و محتواها بما تضمنته من وقائع و أحداث وأوصاف ومشاهدات.

3- المرسل إليه / المسرود له، ويتعلق بالمتلقي المفترض للرحلة وهو القارئ.[2]

[1]) الشيخ ابراهيم الياس، د.ت. ص: 25.

[2]) محمد المسعودى، مصدر سابق.

تقاليد كتابة الرحلة:

هذه الرحلة على غرار الرحلات العربية صاغها قلم علم من أعلام أفريقيا، حيث ذكرها بكل دقائقها وتفاصيلها. وعلى الرغم من خلو الرحلة من عناوين تحدد مسار الرحلة مثل وضع الفصول والأبواب.

إلا أنه يمكن إدراك أن الرحلة تتكون من مشاهد عدة؛ بدءاً بمغادرة الشيخ ميناء دكار وتوجهه إلى الدار البيضاء عن طريق بلسمالس عاصمة أسبانيا التي امتنع عن دخولها لأسباب أمنية.مروراً بطنجة وفاس وصفر حيث استقبله أهاليها بكل حفاوة وأكرموه غاية الإكرام.وصولاً إلى جدة ومنها إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة عن طريق الاسكندرية وبورت سعيد والسويس.وانتهاء برجوعه إلى وطنه سالكاً الطريق نفسه.

ولم نلحظ في رحلته هذا ما يدل على المعانات التي يكابدها الحجيج على متن البواخر وفي دخول الأراضي المقدسة وفي التنقل بين أرجائها.فقد ذكر عن انسيابية حركة ناقلته عند تحركه من دكار حيث يقول" وسرنا في لطف الله ما تحرك البابور ولا ماد بنا..... ولم نزل بحمد الله نسير في صحة وعافية ونعم من الله ضافية والبحر رهو والجو صحو.[1]

وذكر أنه ركب باخرة أخرى وهي هولت في مدينة طنجة.استمع إليه في قوله" ورحنا معهم بعد صلاة العصر إلى السفينة الانجليزية المسماة ب " هولت" وهي صاحبة المدخنة الزرقاء وهي بابور صغير مليح مستعد لنقل الحجاج كل سنة من مرسى طنجة إلى جدة، وعينوا لها ذباحين وطباخين من المسلمين وهيئوا فيها محلاً لاجتماع الحجاج للصلوات الخمس وقراءة الوظيفة والحزب، ولهم مؤذن يؤذن، والماء مهيّأ بارداً وسخينا"[2] ويقول عن تعامل الملاحين معهم في طريق رجوعهم " ويوم الخميس ضحوة وصلنا الطور فاستقبلنا الطبيب وصعد ودخل في السفينة، وبعد ساعة استقبلتنا السنابك ونقلتنا جميعاً إلى " الكرانتينة" وأدخلونا في الحمام وألبسونا بعد الغسل جلابيب معدة للحجاج وأجلسونا نحو ساعتين في دار نظيفة فيها كراسي معدة

[1]) الشيخ ابراهم الياس، مصدر سابق. ص:18.

[2]) المصدر نفسه. ص:24.

لذلك. وبخروا ملابسنا ببخور عندهم وسرحونا ورجعنا إلى السفينة وسارت بنا."[1] وبالإضافة إلى ذلك فقد لمسنا سلاسة في تعامله مع الجمرك وسائر موظفي الأراضي المقدسة.

خصائص الرحلة:

تتميز هذه الرحلة – كغيرها من الرحلات الأدبية – بطابع سردي حواري توظف فيه أنماطاً متعددة من الخطابات الأدبية والمعرفية.وتحضر هذه الأشكال بنوع من التفاوت في النص الرحلي. وتسهم إسهاماً فعالاً في بناء دلالاته و أبعاده الفنية. و يتبين أن رحلتنا استثمرت الخطابات التالية:

التاريخ:

يبدو أن الشيخ يستحضر في رحلته معطيات تاريخية ترتبط بعصره وخاصة في بعض البلاد التي مر بها.وقد قام بها سنة 1355هـ الموافق 1935م و كشف النقاب عن تردي الأوضاع الأمنية في أسبانيا آنذاك حيث قال "ألقت كناد مراسيها بلسبالماس عاصمة أسبانيا بعد طلوع الشمس.....ولم ننزل فيها لأنا تعرضنا للنزول فيها فقال لنا صاحب السفينة: إن أردتم النزول فلا يصحبكم من الدراهم ما يزيد على مائة فرنك لأن الغصب هنا كثير فتركنا النزول بالكلية"[1] وأشار إلى الحرب الدائرة في قوله " ويوم الخميس مررنا ببلاد إسبانيا التي فيها الحرب بينهم.[2] ومع أنه لم يتعرض لحكام تلك الأراضي بالذكر فقد سلط الضوء على صورة المجتمعات في البلاد التي زارها حيث ذكر كرم أهلها وحفاوتهم لاسيما في تلك الفترة.

وبالإضافة إلى عناية الشيخ بالزمن والأحداث نجده يعتني بذكر بعض الشخصيات التي قابلها كالسيد محمد بن محمد الكناني ناظر الزاوية التجانية والسيد أحمد بن السائح باشا صفر والسيد محمد التازي باشا فاس وقاضي القضاة الشيخ أحمد سكيرج وعبد الله بن عباس أمير كنو والشيخ عبد الله الشيبي حاجب الكعبة والحاج الأمين رئيس المجلس الإسلامي بالقدس الشريف وغيرهم.

---

[1]) المصدر نفسه. ص:38.

[2]) المصدر نفسه. ص:18.

السيرة النبوية:

إن صاحب الرحلة – إلى جانب وصفه الدقيق للبيت العتيق ومايجري في ساحته وأطرافه من مناسك الحج كما أداها– يستحضر بعض ملامح السيرة النبوية العطرة عند ما يشرح زيارته لبعض المعالم التاريخية في كل من مكة والمدينة.يقول مثلاً: " وذهبنا إلى مسجد قباء يوم السبت مرتين عملاً بحديث " من تطهر في بيته وأتى قباء وصلى ركعتين كان كأجر عمرة" أو كما قال.وفيها رأينا طاقة الكشف التي انكشفت له منها صلى الله عليه وسلم الكعبة حين أراد تحويل القبلة. ومبرك الناقة ومحل نزول الآية كل ذلك معلم. وزرنا بئر الخاتم وهي بئر أريس التي وقع فيها خاتمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان وهي التي جلس عليها صلى الله عليه وسلم وأبوبكر وعمر وعثمان ".[1] ويقول عند مازار الآثار المكية " وفي يوم السبت خرجنا لزيارة المآثر والآثار أولها وأولاها دار الأرقم التي بدأ فيها الإسلام غريباً وهي الخيزرانة ومنها إلى جبل أبي قبيس ومنه إلى مشق القمر، ومنه إلى مولد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومنه إلى مولد سيد المرسلين".[2] وقد رأينا أنه وظف بعضاً من ملامح السيرة النبوية في بناء رحلته بإحكام.

السيرة الذاتية / الجماعية:

يتبين من خلال نص الرحلة أن صاحبها يقف عند تفاصيل مهمة تتعلق به وبمن رافقه في حجه وبذلك يرصد ملامح من سيرة ذاتية / جماعية، وبما أن الحج منسك جماعي وركن مهم في التواصل ومد الجسور.والملاحظ أن ضمير المتكلم الجمع هو الضمير السائد في أغلب الأوقات.وإن كان يتخللها ضمير المتكلم المفرد أحيانا. يقول " ولما طلعت الشمس على ثبير ذهبنا إلى عرفة ضحوة يوم السبت ونزلنا عند مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام المسمى بنمرة وضربت خيمتنا ولما زالت الشمس اغتسلنا غسلاً بلا دلك أو بدلك ضعيف وذهبنا وصلينا مع الإمام قصراً وجمعاً.[3]

---

[1]) المصدر نفسه.ص38.

[2]) المصدر نفسه.ص 29.

[3]) المصدر نفسه. ص:33.

ونجده يستعمل ضمير المفرد المتكلم عند حديثه عن الأمور الخاصة. يقول " وفي يوم الأربعاء تلاقيت بحبي الولي الصالح والنور الواضح الشريف المنيف سيدي أحمد التبر وفرحت به فرحه بي..... وفُتحت الكعبة وازدحمت مع الناس حتى دخلت وقال لي الشيخ حاجب الكعبة عبد الله الشيبي: مالك لم تعلمني أفتح لك في وقت ما فيه أنت ومن تحب.[1] (وقد فتحها له بعد ذلك).

ملامح جغرافية:

لشدة اعتناء الرحالة بتفاصيل رحلته فإننا نجده يضع كشافة جغرافية للطرق القديمة يقول "والمحطات بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أربع عشرة أولها بئر علي وهي ذوالحليفة والثانية الفريش.....والثانية عشرة بحرة.والثالثة عشرة الشميس"[2] وهذه الخريطة تقدم رسماً واضحاً للمحطات الرئيسة بين مكة والمدينة في تلك الحقبة.

الخبر العمراني:

إن ما يفيده مفهوم الخبر العمراني هو ما يذكره الرحالة من مؤشرات تتعلق بأشكال البناء والعمران. وهذا الجانب حاضر بقوة عند وصفه للحرمين الشريفين فيقول في شأن الحرم المكي مثلاً طول المسجد المكي من الداخل مائة وخمسة وستون متراً وعرضه مائة وثمانية وعد سواريه خمسمائة وخمسة وأربعون وفي وسطه هيكل الكعبة المشرفة زادها الله شرفاً وتعظيماً، وقد جاءت على شكل مربع بناؤه بالحجارة الصلبة وارتفاعها خمسة عشر متراً.[3] و أما بالنسبة للمسجد النبوي فيقول:" ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم وفي المدينة ستة عشر مسجداً لا غير هو في وسط المدينة المنورة ومنظره الجميل يبهر العقول ويدهش الناظرين شكله البديع ويملأ القلب فرحاً وسروراً وحبوراً وهو مستطيل طوله مائة وستة عشر متراً وعرضه من باب جبريل إلى باب السلام ستة وثمانون مترا".[4]

---

[1]) نفسه. ص:ص32.

[2]) نفسه، ص:31.

[3]) نفسه. ص:54.

[4]) نفسه.ص:55.

هذه العبارات إن دلت على شيء فإنما تدل على إعجاب الشيخ بالمعمار الحجازي.

المكونات السردية:

الحكي:

يستند النص الرحلي إلى بنية حكائية تؤدي المتواليات السردية والخبرية التقريرية المباشرة والجمل الإيحائية فيها دوراً كبيراً.[1] و مابين حديث الذهاب والإياب ووصف مراحل السفر ومناسك الحج تتشكل أبعاد الرحلة. ومن هنا تتسم هذه الرحلة ببعد سردي حكائي واضح.يقول الشيخ " وفي يوم الأحد عشية لإحدى عشرة خلت من ذي القعدة ركبنا إلى طيبة الغراء مدينة الرسول ودار الهجرة ومنبع العلوم والمعارف والدين والصلاح. وسارت بنا السيارة عند غروب الشمس ليلة الاثنين وقطعنا مرحلتين ونزلنا وصلينا العشائين وتعشينا وسرنا إلى انتصاف اليل وبتنا في منزل يسمى " رابغ " والمنزلتان قبله " ذهبان " و " توله " وعند صلاة الصبح ارتحلنا ولم تزل السيارة تجري بنا لا تلوي على أحد حتى قطعنا مرحلتين ونزلنا لتناول الطعام وارتحلنا حتى وصلنا ذا الحليفة المسمى اليوم ب بئر على كرم الله وجهه". [2]

الفعل:

تعد الأفعال محركات فاعلة لبناء الجملة السردية والمعمار الحكائي للرحلة، [3] و من ثم يمكن تقسيم هذه الافعال في نص الرحلة إلى نوعين:

أ- بنية أفعال الانطلاق

وهي أفعال ترد في مواضع مختلفة من الرحلة موظفة ضمير المتكلم الجمع مرتبطاً بالفعل الماضي أو مسبوقاً به. وتتبين هذه الافعال جلية في مستهل هذا النص " وسرنا في لطف من الله ما تحرك البابور ولاماد بنا.....ولم نزل بحمد الله نسير في صحة وعافية ونعم من الله ضافية والبحر رهو والجو صحو.....وبعد صلاة الصبح

---

[1]) محمد مسعود، مصدر سابق. ص: 21.

[2])المصدر نفسه.ص:34.

[3]) المصدر نفسه. ص 34.

ألقينا بها المراسي في هناء وسرور وظللنا يوم الاثنين نتزه فيها وتلقانا بعض الاحباب التجانيين"([1]).

ب- بنية أفعال التجسير

وهي أفعال تربط بين السرد والوصف وتضم الأحداث بعضها إلى بعض وتنوء بالأخبار عن حقائق الرحلة وعن أعمال الحج وأفعال الرحلة.[2] والأفعال التجسيرية الحاضرة في الرحلة من ذلك قوله" وتبدت طنجة في شكل من الحسن عجب فكأن مصابيحها في الظلام شهب ولم يزايلها إلا بعد العشاء لم تزل تشق بنا حباب الماء حتى انكشف عن الصبح العشاء وتراءت لنا الاسكندرية عشية يوم الثلاثاء". [3]

الوصف:

يوظف الشيخ الوصف في رصد ما يشاهده أو بتدقيق المشاهد التي يمر بها وتصويرها تصويرا فنيا. وفي هذه الرحلة حرص الشيخ على وصف الامكنة وما يرتبط بمشاهداته وما يمت إلى مناسك الحج وشعاره بحبل الصلة.فالوصف هنا يقوم بدور فاعل في الرحلة.استمع إليه يصف أهل المغرب " مشى بنا السيد الحاج المصطفوى إلى منزله الجميل الرحب وهذا الرجل هو قاطن الزاوية التي بطنجة وهو من أكابر الأغنياء وصنع لنا مأدبة جمع فيها جميع الالوان التي في المغرب". ويصف مشهدا آخر فيقول " وعند طلوع الشمس رأينا صفيرة السويس المسماة بكنال السويس فصارت السفينة تمشي رويدا وظللنا ذلك اليوم نتنزه بالنظر إلى البراري والأشجار والتلول والجبال"[4]..... ويقول في وصف الروضة الشريفة" ومشينا إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم حتى وقفنا أمام القبر الشريف عند باب المواجهة وهي صفحة الفضة وفيها كوة تقابل وجهه صلى الله عليه وسلم.....أما المسجد النبوي فيكل القلم عن وصفه متسع بارك الله فيه مزخرف مكتوب في جميع أركانه آيات وأحاديث نبوية وسور

---

[1]) المصدر نفسه.

[2]) الشيخ ابراهيم اناس، مصدر سابق. ص:34.

[3]) المصدر نفسه. ص:23.

[4]) المصدر نفسه. ص: 23.

مكتوب على جهة القبلة سطر فيه آل عمران وسطر فيه براءة وسطر فيه أسماؤه صلى الله عليه وسلم وسطر فيه سورة الفتح بماء الذهب والقباب قرأت فيها سورة الجمعة والغاشية والمنافقون والإخلاص وسورة النصر ولا ترى فيه من القباب إلا وفيها سورة القرآن.....[1] ويقف هذا النص الوصفي عند مشاهد متنوعة تتعلق بالرحلة. ونلمس فيه دقته وبراعته في تصوير المشاهد وفي رسم لوحة فنية رائعة. وما هذا إلا غيض من فيض الأوصاف الجميلة والدقيقة في الرحلة.

الخاتمة:

تناولت الورقة فن الرحلة الحجازية كنوع من أنواع أدب الرحلة العربية التي تعنى بوصف رحلات المسلمين إلى المشاعر المقدسة.مشيرة إلى ازدهاره وانتشاره على مدى السنين.وقد توقف الباحث عند رحلات الشيخ إبراهيم إنياس بصفة عامة ورحلته الحجازية الأولى بصفة خاصة. حيث درسها من الناحية التاريخية والجغرافية والعمرانية والقصدية وقانونها الخطابي كما تناول خصائصها ومكوناتها السردية والوصفية إلى غير ذلك.

[1]) المصدر نفسه. ص: 24.

الهوامش والمراجع

- محمد المسعودي. بناء الرحلة الحجازية في كتاب " الحج إلى بيت الله الحرام " مؤسسة مؤمنون بلاحدود: متوفر من:

http://www.mominoun.com/arti

- مولود.محمد سالم.(الأستاذ) ترجمة شيخ الإسلام.مخطوطة موجودة في مكتبة الشيخ عبدالله موسى دتسو.بكدونا، نيجيريا.د. ت.
- عبدالله موسى دتسو (الشيخ) لب اللب في شرح منظومة روح الادب لما حوى من حكم وأدب. لشيخ الإسلام الحاج إبراهيم ابن الشيخ عبد الله نياس الكولخي،شركة أبناء الشريف الأنصاري للطباعة والنشر والتجليد ؛لبنان:1431هـ /2010م.
- محمد، ولد الشيخ عبد الله (الشيخ) مجموعة التعريف بالشيخ إبراهيم رضي الله عنه وفيضته ومقدميه. مجمع اليمامة للنشر والتوزيع، تونس:2012م.
- إبراهيم علي كويري. أدب الرحلة عند الشيخ إبراهيم إنياس الكولخي رسالة تكميلية للحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية، مقدمة إلى جامعة بايرو كنو سنة 2007.
- الشيخ.إبراهيم إنياس. مجموع رحلات الشيخ إبراهيم رضي الله عنه.دون اسم المطبعة ودون تاريخ الطبعة.

رحلات علماء برنو إلى الحج وأثره في تطوير أدب الرحلة (بعض علماء برنو نموذجاً)

د. يعقوب يونس موسى

مستخلص

الحج ركن من أركان الإسلام الخمس، وفرض على كل مسلم ومسلمة استطاع إليه سبيلا. ساهمت أمة برنو لتحقيق أداء هذا الركن بجميع الفرص المتاحة لديهم، وخاصة العلماء عن طرق متعددة للوصول إلى أرض الحرمين براً وبحرًا وجواً. وكان لعلماء الإسلام تسجيل حي لرحلاتهم إلى الحج، هذه التسجيلات التي دونت عن رحلات الحجاج نتج عنها ولادة أدب الرحلة ويعد ذلك من ضمن عناصر الأدب الإسلامي. وتهدف الورقة إلى إلقاء الضوء على بعض تسجيلات علماء برنو في رحلاتهم إلى الحج في القرن العشرين وأورث ذلك تطوير اللغة العربية وثقافتها بين الأمة.

Abstract

Pilgrimage is one of the five pillars of Islam، and it requires every Muslim man and woman who can afford physically financially and religiously to perform the obligation. Borno as a state has over the years contributed to the achievement of the performance of this pillar with all the opportunities available they have، especially Ulama، from multiple access road to the land of the Holy places، Mekkah and Madina. The history traces that the Ulama of Islam documented their trips to the pilgrimage through various roots; these recordings which codified for pilgrim tours resulted in the birth of travel literature، and is therefore among the elements of Islamic literature. The paper aims to shed light on some of Borno Ulama documentations on their travels to the Hajj and other places in the twentieth century and bequeathed it to develop the Arabic Language and Culture of the Nation.

المقدمة:

الحمد لله الذي فرض الحج على الأمة الإسلامية إلى البيت العتيق، ويسر لقاصديه أسباب الرزق والتوفيق. والصلاة والسلام من خير معبود وإلي أعظم عابد سيدنا ومولانا وقائدنا وشفيعنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن والاهم بإحسان

إلى يوم الدين. إن الحج ركن من أركان الإسلام العظيمة، وقد تقرر وجوبه وفرضيته في نصوص الكتاب والسنة وإجماع العلماء. فقد رأينا عبر تاريخ الإسلام الطويل كيف استجابت الأمة رجالا ونساء إلى هذه الدعوة الإلهية للتحرك إلى أرض الحرمين لأداء هذه المهمة الدينية العظيمة فأتوا من كل فج عميق إمتثالاً لقوله تعالى "**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**". وقال عليه الصلاة والسلام **[أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا]**.

فالمقالة تحاول إلقاء الضوء على فرضية الحج وكيف استجابت أمة برنو لهذا القرار الإلهي من ضمن الأمة على مر العصور والذهاب إليه براً وبحراً وجواً، ودونوا هذه الرحلات المباركة إلى أرض الحرمين بالشعر وبالنثر مما أدى إلى تطور أدب الرحلة في المنطقة.

الحج في الإسلام:

الحج ركن من أركان الإسلام الخمس، وقد فرض الله الحج على أمة الإيمان في السنة الخامسة من الهجرة النبوية. "**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**"[1]. وقوله "**إن أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركا وهدى للعالمين**"[2].

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **[بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**"[3]. ورواية أخرى لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **[أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا"]**[4].

---

[1]) سورة آل عمران الآية: 97.

[2]) سورة آل عمران الآية: 96.

[3]) رواه البخاري حديث رقم: 8. ومسلم حديث رقم: 16.

[4]) رواه مسلم حديث رقم: 1337.

تلبية الأمة لحج بيت الله من إفريقيا:

أثبتت جل مصادر التاريخ أن الإسلام دخل القارة الإفريقية في القرن الأول الهجري بعد استقراره في الجزيرة العربية وما يجاورها عبر البحر الأحمر في أول الأمر حينما هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة فراراً بالدين والإيمان، وتابع ذلك فتح مصر ودخول المسلمين بعض مناطق شمال إفريقيا ومنها إلى غرب ووسط إفريقيا.

ومنذ ذلك الوقت إهتمت أمة الإسلامية بأداء هذا الركن، ولم تكن إفريقيا منقطعة من هذا فسلكت دون تراجع أو تكاسل عبر مختلف الطرق في سبيل تحقيق أداء هذه المهمة الدينية والروحية، فبحثت عن طرق الوصول إليه في أول الأمر مشيا على الأقدام أو بواسطة الدواب وخاصة الإبل عن طريق الحبشة ومصر والسودان والبحر الأحمر، ويستغرق ذلك سنين عديدة فتحركت بقوة إيمانها بمرور الزمن للذهاب إلى أرض الحرمين براً بالعربات وبحراً بالشاحنات وجواً بالطائرات حسب المقدرة والطاقة.

وقد أثر هذا التحرك الديني عن طريق الرحلات إلى الحج على حياة المجتمع الإفريقي روحيا وثقافيا واقتصاديا وعلميا ودبلوماسيا. ونتج عن ذلك وجود نشاطات حركات تجارية بين افريقيا، شمالها وغربها ووسطها مع عرب الحجاز والشام واكتسب ذلك تغيير في المجتمع الإفريقي المسلم والعرب في الحجاز.

رحلات المسلمين إلى الحج من نيجيريا براً وبحراً وجواً.

إن فترة ما قبل الاستعمار قد شهدت رحلات وفود نيجيريا إلى الحج (مكة والمدينة) تلبية لأمر ربها عن طريق السودان براً وبحراً مما ترتب عليه ونتج وجود استقرار لجاليات نيجيرية في السودان وواصل ذلك حتى بعد الاستقلال.

وفي خمسينيات وستينيات حتى تسعينات كان سفر حجاج نيجيريا إلى الحج جواً وارتفع حتى وصل إلى ستين بالمائة بالمقارنة إلى حجاج بقية دول غرب إفريقيا.[1]

[1]) تقرير صحيفة الدول اليومية النيجيرية Punch 28/4/1996 صفحة 18

وفي منتصف عام ألف وستمائة وأربعة وتسعين ارتفع سعر الحج إلى مائة وخمسة وعشرين ألف نيرا بنيجيرية N125)،(000 مقابل خمسين ألف وخمس وثماين ألف دولار بدلاً من خمسين ألف نيرة N50)،(000 المعتاد وهذا ما بين سنة 1991-1995م لظروف اقتصادية مما دفع الحاكم والمحكومة إلى التفكير للعودة إلى استعمال طريق البر لحل أزمة ارتفاع الأسعار الذي نتج عن تدهور الاقتصاد في الوطن آنذاك.[1]

فقد قررت الحكومة بتصريحات لحجاج نيجيريا السفر إلى الحج عن طريق البر عبر تشاد والكميرون وإفريقيا الوسطى إلى السودان لمن لا يطيق اتباع طريق الجو أو غيره لعامل الاقتصاد.

فصدرت هذه التصريحات لبدء الرحلة فيما بين 1991-1995م، ولكن توقف المشروع لظروف أمنية في سنة 1996م[2].

رحلات علماء برنو إلى الحج وأثره في أدب الرحلة

رحلات جمع رحلة ومعناها التحرك بنية السفر من مكان إلى مكان آخر أو من بلد آخر بأية طريقة ووسيلة براً وبحراً وجواً.

وعلماء برنو هم قواد الفكر والعلم في المجتمع البرناوي وقاموا بدور الأدباء لأهداف دينية وكانت لهم تسجيلات وتدوينات في مختلف العلوم والفنون من ضمنها أدب الرحلة.

التعريف بأدب الرحلة ومساهمات بعض علماء برنو في تطويره

أدب الرحلة وآداب الرحلات:

هي مجموعة الآثار الأدبية التي تناولت انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسحيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع

---

[1])المصدر نفسه.

[2]) المصدر نفسهه

بين كل هذا في آن واحد. وقد اشتهر العرب بأدب الرحلات، ومن أهمها "رحلة ابن بطوطة" (770هـ).[1]

ويعتبر أدب الرحلات – إلى جانب قيمته الترفيهية أو الأدبية، أحياناً– مصدراً هاماً للدراسات التاريخية المقارنة، وذلك بالنسبة للعصور الوسطى خاصة كما أن علماء الأدب المقارن اعتبروه قسماً من أقسام هذا الأدب في تصنيف الحديث.[2]

أولاً: أدب الرحلة في برنو:

عبارة عن مجموعة من القصص الفني يقص على القارئ ما شوهد في رحلة من الرحلات بأسلوب أنيق إما أن يكون منظوما أو منثوراً، وساهم في هذا الموضوع علماء من المسلمين حيث كتبوا عن رحلاتهم إلى الحج أو إلى المدينة المنورة [3].

وعن رحلاتهم إلى الدعوة الإسلامية وحضور الحفلات الإسلامية وزيارة المشايخ، وقد شارك علماء برنو إخوانهم المسلمين بالإسهام في هذا المجال.[3]

ثانياً: عرض النماذج:

قد كتب عدد كبير من علماء برنو الذين عاشوا في القرن العشرين عن رحلاتهم المختلفة نثراً وشعراً.

وإليك بعض النماذج منها:

النموذج الأول: الرحلة المسماة بـ"الدر المنثور بذكر العودة إلى زيارة كولاخ ومدينة فاس والمدينة المنورة ومكة المكرمة للشيخ أحمد أبي الفتح اليرواوي التجاني المولود سنة 1343هـ والمتوفي سنة 1424هـ

هذه الرحلة تحتوي على رحلة قام بها الشيخ إلى الحج، ولكنها شملت مدناً ودولاً كبيرة قبل الوصول إلى المقصد وكان التسجيل نثراً.

فافتح تسجيل رحلته بالبسملة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله حيث ذكر عزمه للخروج في هذه الرحلة الميمونة كما سماها، وكان أول خروجه يوم

---

[1]) مجدي وهبة وكامل مهندي. ص:17.

[2]) نفس المرجع والصفحة.

3) عبد الله غونى التيجانى.1984.

[3] عبدالله غوني التجاني (الدكتور) – المرجع السابق.

الاثنين من شهر رجب سنة 1401هـ زيارة مدينة كولخ، ومدينة فاس بالمغرب والمدينة المنورة ومكة المكرمة لزيارة الشيخ الفاضل الحاج إبراهيم إنياس ولخليفة خلفائه وأستاذ أولاده وشيخ مريديه أبي الحسن سيدي الشيخ الحاج علي سيس إمام أعزه الله وشرفه نفعا للعباد أمين.[1]

وفي بداية الرحلة ذكر الشيخ وداعه لبعض إخوانه العلماء العاملين بقوله:"وودعت بعض إخواني العلماء العاملين في الدار كإخينا في الله الشيخ الحاج أبي بكر المسكين البرناوي التجاني، والسيد الماهر الصديق والسيد الماهر العالم آدم طن كللوي والمحب الموافي السيد الحاج منذو، والعالم الشهير صاحب دلائل الخيرات الصهر المكرم الخادم الأديب التاجر الرابح سعد، والأخ الفاضل المحترم الحاج لوان التجاني، والسيد الفاضل العابد الناسك التجاني عقيد، والأخ الفاضل والتاجر الرابح الشريف محمد محمود الكنوي، والسيد العلامة والمقدم الكبير الشريف أحمد التجاني البرناوي والسيد الأمين. وشيعني بعض الإخوان إلى المطار البرناوية كسيدي الشريف الشيخ إبراهيم صالح، والأخ المبارك الحاج عمر محمد، وصهري الحاج صالح النور والولد البار الحاج محمد العربي والخديم الأرضي عثمان بن عبدالله الحاج أحمد العسكري وعميد مدرستي العالم محمد ثالث ونائبه العالم محمد الصهر الأديب، وجماعة كثيرة من التلامذة والطلبة والمريدين والمحبين من الغرباء والجيران.

وبعد سرد الشيخ قصة قيامه من ميدغري:

وأتينا المطار المعروف وسألنا عن أخبار الطائرات اليومية والليلية وقال خدام الطائرة الموظفون هناك لا تأتي اليوم إلا طائرة واحدة مملوأة الكراسي ولا يوجد فيها مقعد، لأي إنسان لأجل ذلك ودعت إخواني وأصحابي وأحبابي وأخبرتهم بما في ضميري وطويتي بأني نَاوٍ السفر على سيارتي إلى كانو عاصمة الفيضة التجانية ذات الأسرار الربانية، وقالوا بالسلام، وركبنا السيارة الجديدة مع ولدي المبارك الحاج سكيرج والمريد الصادق والطبيب الماهر حسين والسائق الأديب محمد غالي في الساعة الخامسة متوجهين إلى كانو[2].

---

1 مخطوط الرحلة بخط يدوي.

2 مخطوط الرحلة نفس المرجع.

ثم ذكر وصوله إلى كانو وقيامه منها

ووصلناها في الساعة الحادية عشرة ليلة الثلاثاء وذهبنا إلى منزلنا المعروف بحارة سنك دار أستاذنا المرحوم أستاذ الشريعة المحمدية وشيخ الطريقة التجانية الأحمدية ذات الأسرار الربانية العارف بالله الشيخ أبي بكر عتيق بن خضرا أكرم بها منزلا واسعا وقرى ضيف واسعة ووجدت بها شريفين كريمين شقيقين الشريف أحمد وهما من أهل نيجر ففرحا بنزولي في البيت التي نزلنا فيه وبت ليلة واحدة ومعهما، ولما أصبحنا يوم الثلاثاء قاما وذهبا إلى مستشفى لعيادة المريض المفروش الذي يعالج هناك، وبقيت في المنزل وحيدا لأسلم على أولاد أستاذي المذكور الخليفة أحمد التجاني وإخوانه وأمهاتنا عيال الشيخ الحاج أبي بكر عتيق، وبعد أداء ما يجب علي من الإكرام والتعظيم والتبجيل في جنابهم أرسلت غلامي إلى سليل الشيوخ الكرام والعلماء العظام ألا فهو السيد العارف بالله العلامة الشيخ محمود سلغا ليسلم عليه ويخبره بنزولنا ليلة الثلاثاء ومقصودنا المرور إلى كولاخ بحول الله وقوته وطلبنا منه المساعدة لوجود توقيع الجوزات من سفير السعودية بكانو وقام بنفسه وتأهب وذهب للمكتب وبذل جهده حتى حصلنا على التوقيع والإمضاء فوق ما يرام بارك الله فيه وطول عمره وأبقاه نفعا للعباد أكرم به فتى كريما وبتنا في مدينة كانو ثلاث ليال لعدم وجود الطائرة التي تتوجه إلى ليغوس عاصمة اتحاد نيجيريا حاليا وفي كانو ذهبنا إلى دار محبنا المكرم التاجر الرابح المقدم الكبير العالم العلامة الحاج عبد الرحمن عبار نغم وتانسنا به سويعة يوم الثلاثاء، وقمنا منه مودعين له ورجعنا إلى منزلنا الواسع. وفي يوم الأربعاء زرنا السيد العلامة والقدوة الشهير الشيخ عمر فاروق ابن العلامة عبدالله سلغا بداره وفرح بنا وتآنسنا معه هنيهة قليلة ثم ودعناه ودعا لنا بالفاتحة وصلاة الفاتح وبالذهاب والإياب بالخير العميم الحادي لراحة القلب والبدن، وفي كانو التقيت بولدي الكرمين الطالبين لجميع العلوم النافعة الحاج إبراهيم أحمد ومحمد المرتضى أحمد. وفي كانو التقيت ببعض الإخوان والأحباب والأصحاب كالعالم الهادي عشر صهر الشيخ الشريف عبد المؤمن، والحاج أحمد التجاني بن العالم علي ياكاسي والحاج أحمد ميغورو الحاج يوسف صاحبي قديما، والمحب الوافي العارف

بالله محمد رابع دالا، والحاج حمزة، وأمير موقف سيارة رنغم، والمحب الوامي العالم محمود منصور.

ثم القيام من كانو والنزول بليغوس (أغيغي) وذلك يوم الخميس بمرافقة السيد محمود سلغا بسيارة خاصة إلى مطار كانو للسفر إلى ليغوس، وفيها رحب بنا المضيف وهو إمام الفيضة التجانية بأغيغي لاغوس وإمام الجمعة والجماعة وخطيبها وخليفة من خلفاء الشيخ الإسلام الحاج إبراهيم إنياس ومكثنا مدة فيها وتبادلنا الزيارة، ثم قمنا من أغيغي لاغوس إلى ساحل العاج، ومن ساحل العاج إلى دكار عاصمة سنغال ونزلنا ببيت الشيخ هناك واتصلنا بنائب سفير نيجيريا هناك وأكرمنا غاية الكرم، ثم قمنا إلى دكار وإلى مدينة كولخ.

وفي نفس اليوم الساعة الحادية عشرة قمنا من دكار متوجهين إلى كولخ وكان وصولنا بعد فراغ المدينة من صلاة الظهر بقليل وإذا بسيدي الخليفة علي سيس منصرفا من المسجد الكبير الجامع مع جماعة كثيرة يذكرون الله قياماً لا إله إلا الله لا إله إلا الله ووصلنا إلى بيته وزرناه ودعا لنا وجهز لنا المأكولات والمشروبات. ثم عدنا إلى دار الضيافة من العصر حيث خرجنا إلى المسجد الجامع لصلاة العصر، وبعده أمرنا الشيخ الخليفة لزيارة الشيخ عبدالله إنياس ودعا لنا ثم بتنا، وفي يوم التالي قمنا من كولخ فعودة إلى دكار ثم إلى الدار البيضاء.

ثم من الدار البيضاء إلى مدينة فاس ووصلنا فاس الإدريسية ليلة الإثنين وذهبنا إلى فاس الجديدة، وقمنا صباح يوم الإثنين إلى فاس القديمة لزيارة شيخ الشيوخ أبي العباس الشيخ أحمد التجاني بالفرح والسرور والوقار لضيف المسالك حيث وجدنا السيد خليل ولد الشريف محمود حيث أتى بالمفتاح وفتح لنا باب ضريح مولانا الشيخ أحمد التجاني وزرناه وسلمنا عليه بالأدب والوقار، وخرجنا وودعنا مدينة فاس، ومن فاس إلى مراكش ومن مراكش عدنا إلى الدار البيضاء ثم إلى جده.

ومن جده إلى المدينة المنورة وقد وصلنا المدينة المنورة قرب صلاة المغرب ليلة الجمعة ونزلنا بفندق الحرم وذهبت بين المغرب والعشاء إلى الحرم لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفت عند ضريح روضة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقرأت سر الزيارة المعروفة، ومنها إلى مكة المكرمة.

ووصلنا مكة بعد انتصاف الليل بقليل وبمجرد نزولنا في فندق الرحاب وتركنا امتعتنا فيه وذهبنا إلى الحرم المكي لأداء طواف العمرة والسعي بين الصفا والمروة، وأحرمنا بالعمرة بذي الحليفة عند مسجد الشجرة المعروفة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدينا عمرتنا بليلة المعراج ليلة السابعة والعشرين وأتممنا مناسك عمرتنا لله في ليلة المعراج ودخلنا المسجد الحرام من باب بني شيبة، وبدأنا الطواف من الحجر الأسود إليه سبع مرات، وأتينا خلف مقام إبراهيم ودعونا الله الكريم الوهاب بما نرجو من الله تعالى إجابته. ثم ذهبنا إلى السعي وسعينا بين الصفا والمروة سبع مرات، والابتداء من الصفا والانتهاء بالمروة. وخرجنا من مكة المشرفة يوم الإثنين بعد طواف الوداع، وطلبنا سيارة وسعة لتنقلنا كلنا إلى جدة فوجدناها وتوجهت بنا إلى فندق الرحاب لنقل أمتعة بعض الإخوان بها وقلت ارتجالا على الطريق ومنشدا بالأبيات الواردات:

يـا كعبـة الله إنـي فيـك محتـرق * مـن الفـراق أجـل يـا كعبـة الله
متـى رجـوع إليـك كعبـة الله * أم المسـاجد أنـت كعبـة الله
بيـت الإلـه إلـه العـرش خالقنـا * فيـك المقـام نعـم يـا كعبـة الله
وقـد رجعـت إلـى وطنـي علـى وجـل * تائبـا آيبـا لله بـالله
الله يغفرنـا الله يسـترتنا * مـن الـذنوب بسـر الله عبـدالله
يـا رب صـل وسـلم دائمـا أبـدا * علـى محمـد روح الكـون نـور الله
وإلـه وعلـى أصـحابه أبـدا * مـا قـال منشـدنا يـا كعبـة الله[1]

ومن مكة المكرمة انتقلنا إلى جدة، وبعد وصولنا إلى فندق الرحاب وتنظيم أمتعتنا وحملها على السيارة المستأجرة من مكة المشرفة وطوينا بساط المقام وأخذنا عصا التسيار وكل واحد منا أخذ مكانه في السيارة وأمرنا بالمسير فخرجنا عند فندق الرحاب مسرعين إلى مطار جدة الجديدة الواسعة العالمية، ونحن أول راكبين في

[1] نفس المرجع.

الخطوط الجوية ثم أمرنا خدام الطائرة بالدخول الطائرة وطارت بنا نحو القاهرة يوم الإثنين.

ومن جدة إلى القاهرة، حيث أتيناها قبل الغروب ومكثنا بالمطار قدر الإمضاء التأشيرة وصرف عملة الركاب بعملة القاهرة، ثم طلبنا سيارة أجرة وحملتنا إلى فندق خان الخليلي ونزلنا بها ليلة الثلاثاء وبمجرد نزولنا بالفندق قام ولد أخينا في الله الإمام أغيغي الولد البار الحاج محمد بدماصي الملقب بِيَارُنْ باب، وذهب إلى الأخ الفاضل العالم أحمد العبد لاوي إبن أستاذنا الشيخ أبي بكر عتيق وأخبره بزولنا الليلة ليدله على دار ابني البار الحاج علي سمي والدي، وبمجرد سمعهم بأتياننا قاما وأتيا إلينا وسلما علينا وتأنسنا بهم قليلا ثم أمرناهم بالرجوع إلى ديارهم.

ومن القاهرة إلى كانو، حيث قمنا يوم الاثنين في الساعة اثنى عشر وسبع دقائق وطرنا فيالسماء متوجهين إلى كانو عاصمة الفيضة التجانية نيجيريا، وقطعنا هذه المساحة الشاسعة البعيدة الجوية في خمس ساعة ونصف ساعات لا تسل من السحب المركومة فوصلنا مطار كانو في الساعة الخامسة وربع الساعة، ووجدنا هناك السيد العالم الحسين إمام شيخنا الشيخ أبي بكر عتيق منتظراً قدوم صنوه العالم يحيى الكبوي فأخرجوا أمتعتنا بلا تعب ولا نصب وأتوا بسيارة أجرة ودخلناها إلى دارهم ونزلنا بها لقربها من المطار وأكرموني جداً فأخبروا تلامذة أستاذنا الشيخ أبي بكر عتيق كأخينا في الله العالم معاذ والعالم طلحة والعالم نوح والعالم أبي بكر وغيرهم فأتوني سريعا وسلموا علي وأنزلوني على قصرهم في مكان واسع تهب فيه رياح طيبة من كل جهاتها أكرم بها داراً مباركة وبت هناك ليلة كاملة وقمنا لسفرنا على الخطوط الجوية البرناوية وقمنا من كانو في الساعة الثامنة نصف الساعة فوصلنا لعاصمة برنو خروا ميدغري في الساعة التاسعة ونصف الساعة ونزلنا بخير وعافية وصحة كاملة بفرح وسرور [1].

وسيرى الواقف في تفاصيل هذه الرحلة أن مقصدها الأسمى هو زيارة شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم إنياس الكولخي وزيارة أبي العباس الشيخ أحمد التجاني بفاس

[1] نفس المرجع.

وجدهم الأعلى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة في أثناء أداء الحج والعمرة.

ولكن قبل الوصول إلى ذلك هناك وقفات ببعض المدن والقرى، ثم أشرنا أثناء تحدثنا عن هذه الرحلات بالكلمات وفصلنا القول في رحلة الحج مع ذكر الأماكن المشرفة فيهما مثل المدينة المنورة ومكة المكرمة والأعمال التي قدمت فيها بعون الله وقدرته.

وإذا أمعنا النظر في سرد قصة هذه الرحلة نجد أنها تؤرخ لنا عن المدن التي وقف بها الشيخ وأهم الأماكن التي زارها والأشخاص الذين ألتقى بهم وكان سرد هذه الرحلة نثراً بلغة عربية سهلة التناول وبأسلوب مألوف.

النموذج الثاني:

الرحلة إلى الحج لصاحبها الشيخ محمد بركوما المولود بقرية سمباره في شمال مدينة انغروا وتوفي سنة 1400هـ 1979م. وفي أثناء حياته تتلمذ على يد الشيخ أية سلولم بولوري ثم انتقل بعد وفاته إلى الشيخ غبريم بانغرو ولازمه حتى أن صار كاتباً له.[1]

عرض مؤجز لرحلته إلى الحج:

بدأ الشيخ بركوما سرد رحلته بمقدمة يقول:

الحمد للفاعل كل الشأن * كما يشاء لا كما للكون
حمدا يدوم بدوام الروح * في بدن الخلق إلى الفلاح
صلى وسلم على النبي * محمد خير الورى المدني
وآله وصحبه الأخيار * الفضلاء السادة الأبرار
وبعد فالقصد بهذا النظم * تذكرة لحجنا المعظم
أعاننا الله على أدائه * بحبه إمام أنبيائه

[1] عبدالله غوني تجاني، مخطوط رحلة الحج للشيخ محمد بركوما.

ثم شرع يبين لنا وقت انطلاق طائرتهم من مطار مدينة كانو ووقت هبوطها على مطار جدة، ومكثهم بجدة لثلاثة أيام وسيرهم إلى مكة مع الحجاج كما يقول:-

سـرنا مـع الحجـاج وقـت العتمـة * لمكـــــة الآمنـــــة المكرمـــــة

ثم استمر الشيخ يقص عن طوافهم للقدوم وعن خروجهم إلى منى يوم التروية وعن ذهابهم إلى عرفات في التاسوعاء وعن رجوعهم من عرفات إلى المزدلفة وعن رميهم للعقبة وعن إفاضتهم وعن إقامتهم بمنى لثلاثة أيام متأخرين لا متعجلين، ويذكر لنا أسماء رفقته في هذه المناسك ثم يخبرنا عن ارتحالهم إلى المدينة المنورة وعن زياراتهم هنالك، يقول مثلا:

وبعـــدما زرنـــا شـــفيع الخلـــق * وصـــاحبيه معـــه فـــي الخلـــق

ســـرنا إلـــى مضـــاجع الســـعداء * فـــي أحـــد زيـــارة الشـــهداء

مـن بعـد مـا زرنـا صـحابة الشـفيع * فـــي بقعـــة شـــريفة تـــدعى البقيـــع

فيواصل الحديث عن زياراتهم الأخرى مثل مسجد القباء ومسجد القبلتين، وستة المساجد ثم يدعو الله متوسلاً بأصحاب هذه الأماكن المقدسة:-

يـــا ربنـــا بجـــاه هـــؤلاء * أعطنـــي منـــاي واســـتجب دعـــائي

وزدنـــي العلـــم مـــع الأرزاق * واعطنـــي مكـــارم الأخـــلاق

ثم يحن إلى المدينة المنورة ويود أن لو يعيش فيها مدى الحياة. ثم يخبرنا عن ارتحالهم من المدينة إلى "جدة" ثم إلى الوطن، ويختم الرحلة بالدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يقول:-

يـا رب يسـر كـل مـا تعسـرا * لـــي ولهـــم وتنفـــين الغيـــرا

صـل علـى خيـر البرايـا أحمـد * وآلـــه وصـــحبه والمقتـــدى[1]

[1] نفس المرجع.

نجد في عرض نموذجيين من رحلات علماء برنو إلى الحج وأماكن أخرى سرداً لقصص فنية يقص الراحل على القارئ ما شوهد أو وقع أو ما قدم بنفسه في رحلة من الرحلات بأسلوب أنيق إما منظوما أو منثوراً كما رأينا في سرد رحلة الشيخ أحمد أبو الفتح والشيخ محمد بركوما في رحلتيهما إلى الحج. ويحتوي هذا على ذخيرة لغوية وتاريخية وفنية، وإن مثل هذه الرحلات كان الغرض منها مطلوباً شرعاً مما أكسبه أن يكون من ضمن أدب الرحلات الذي يضاف ضمن خصائص الأدب الإسلامي.

الخاتمة:

في ختام هذا السرد يجد القارئ أن علماء برنو وشعبها قد ساهموا على مر العصور منذ أن إعتنقت الإسلام في أداء مهمة فريضة الحج بما لديهم من طاقة وقدرة لأداء هذا الركن الديني المهم تلبية لأمر الله. ولم يكتفوا عن أدائها فقط بل سجلوا مشاهداتهم في طريق الذهاب والإياب، وفي أداء بنود أركانها وأماكنها ومواقعها وترتب على ذلك وجود ديوان للرحلات إلى الحج وأماكن أخرى مقدسة ونتج عن ذلك تطوير للغة والأدب والتاريخ تحت إطار أدب الرحلة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الحديث الشريف.
- تقرير صحيفة الدول اليومية النيجيرية Punch 28/4/1996
- مجدي وهبة وكامل مهندي، معجم المصطلحات العربية في اللغة العربية والأدب، مكتبة لبنان.
- عبدالله غوني التجاني، مقالة ندوة بعنوان: الأدب الإسلامي وخصائصه في أراجيز الرحلة لعلماء برنو 1984م.
- عبدالله غوني تجاني، أدب الرحلة للشيخ المسكين البرناوي، بحث لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بجامعة بايرو كانو نيجيريا عام 1996م.
- عبدالله حمد الحقيل، أدب الرحلات فن متميز، مقالة منشورة في مجلة المنهل، العدد496، المجلد 53 ذو الحجة 1413هـ يونيو 1992م.

المخطوطات:

- الشيخ أحمد أبي الفتح – مخطوط الرحلة بخط يدوي بخط الشيخ أبوبكر المسكين بعنوان: الدرر المنثورة بذكر العودة إلى زيارة الكولخ ومدينة فاس والمدينة المنورة ومكة المكرمة للشيخ أحمد أبي الفتح اليرواوي.
- الشيخ محمد بركوما – الرحلة إلى الحج.

طريق الحاج من شمال إفريقيا عبر مصر(1268 – 1883)
دراسة تاريخية – جغرافية

د. نزار علوان عبد الله

الملخص

مر هذا الطريق بمراحل عدة تبعاً للظروف السياسية التي ألمت بمصر وبلاد الشام، والتي أسهمت بدورها في تغيير مساراته الجغرافية على مراحل تاريخية وحقب مختلفة، حتى استقر به الأمر في الحقبة المشار إليها في عنوان البحث، التي تمتد إلى مايقرب من السبعة قرون. ويبدأ تاريخه مع اعتناق أغلب المصريين للإسلام، وهنا يمكن عده الطريق الأول للحج من شمال إفريقيا الذي كان ينطلق من الفسطاط عاصمة مصر الأولى، ثم يمر بشبه جزيرة سيناء حتى أيلة، ومنها يتجه إلى غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر، إلى أن يصل الى مدين في الحجاز، وبعد مراحل متعددة ينتهي بمكة المكرمة، غير ان حروب الصليبيين التي تعرضت لها بلاد الشام اوقفت هذا الطريق، ودعت الى ايجاد بديل له عبر ميناء عيذاب، من خلال رحلة نهرية تبدا من ركوب نهر النيل عند ساحل مدينة الفسطاط الى ان تنتهي بقوص، ومن ثم رحلة برية عبر الصحراء الشرقية لمصر لتنتهي عند عيذاب، ومنها يتم عبور البحر الأحمر إلى جدة وصولاً إلى مكة المكرمة، وقد استمر طريق عيذاب يعمل به لما يقرب من القرنين من الزمان، لكن توقف الحروب الصليبية وزوال خطرها كان سبباً للعودة إلى الدرب البري ابتدء من عام 1268 م، عندما سمح السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بمرور قافلة الحج عبر أراضيه، وهو الدرب الذي اصطلح على تسميته (بدرب الحاج المصري القديم)، وكان من الطبيعي أن تتغير فيه أسماء بعض المواضع تبعاً لتغير الأزمنة، وانتقال مصر من الحكم المملوكي إلى الحكم العثماني، وهكذا استمرت مسيرة الطريق المشار إليه حتى 1883 م ثم توقف نتيجة لفتح قناة السويس عام 1869م، ووصول السكك الحديدية المصرية إلى السويس قادمة من القاهرة وتحول الحج معه إلى هذا الطريق الجديد، ومنه إلى ميناء جدة بطريق البحر، فمكة المكرمة أخيراً.

Haj Road from North Africa across Egypt (1262 – 1883)
Historical & Geographical Study

Dr. Nazra Alwan Abdullah

Abstract

This road went through many stages in accordance with the political conditions prevailing in Egypt and the Levant. These conditions changed its geographical routes over various historical periods and eras، until it ultimately took its final shape in the period referred to in the title of this study. This period spanned over seven centuries. The history of this Road started when the Egyptians converted to Islam. Thus، the first road of this kind may be considered the one stretching from Al-Fustas، Egypt's first capital، through Sinai Desert until Aila، then towards Western Arabia alongside the Red Sea Eastern Coast، until it reaches the Sea in Hijaz، and finally from there to Medina and Mecca. The Crusades in the Levant، however، caused people to abandon this road and find an alternative across Aithab Desert by boarding boats in the Nile at Al-Fistas City Coast till Bakoos، then a land trip across the desert to Aithab Harbour and across the Red Sea to Jedda and finally to Mecca. This Road continued to be used for two centuries، but it made way for the land road after the Crusades had ended.

1268 A.C. is considered the actual date of the return to the latter، known as "Old Egyptian Haj Road". In that year، Al-Mamluki Sultan Al-Zahir Baibars sent a haj convoy across his lands. It was only natural that some of the locations names have changed with time and with the shift of power from Mamluks rule to Ottoman rule. Thus، this road continued to be used until 1883، as the transformations occasioned by opening Suez Channel in 1869 and the advent of Egyptian railways to the said Channel from Cairo paved the way for a new road to transport pilgrims across those railways to Suez and to Jeddah therefrom by sea.

توطئة:

كانت ركائب الحج من الأمصار الإسلامية المختلفة في اتجاهاتها الى مكة المكرمة – منذ أن فرض الحج على المسلمين قاطبة عام 630م[(2)]–، تسلك أربع طرق رئيسة تشق الجزيرة العربية من شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، وهي الطرق التي ظهرت في فجر الإسلام كطرق للحج، بعد أن كانت هي نفسها طرق التجارة

القديمة المعروفة لدى العرب في الجاهلية[3]، وهي مسارات تعارف المسافرون على سلوكها تفادياً للعوائق التضاريسية والعدائية، وبعضها قديمة يعود وجودها إلى ما قبل الإسلام مثل طريق الشام واليمن، والبعض الآخر مرت عليه أزمنة انتعشت فيها حركة الحجاج لمدد طويلة، ثم عادت إلى الخفوت لأسباب سياسية، وإن لم تتوقف تماماً كطريق الحج العراقي، أو قد تكون لها مسالك ودروب ذات محطات ومناهل مياه معروفة، لكن قد يطرأ على مسارها تعديل طفيف أو كبير فتتحول الحركة من احدها إلى الآخر لمدد تطول او تقصر لدواعٍ تتراوح بين اختلاف تأثير الظواهر الجوية عليها في فصول السنة إلى الاعتداءات المسلحة لهجمات الأعراب أو اعتداءات الصليبيين الذي توقف بسببهم طريق الحج المصري القديم عبر صحراء سيناء وتحول الى طريق عيذاب البحري، انطلاقاً من بحر القلزم (البحر الأحمر)، حتى تم القضاء على الحركة الصليبية ليعود الى مساره الأول[4].

ولما كانت هذه الطرق عامل حسم في ربط أقاليم العالم الإسلامي الممتدة على مساحة شاسعة ومترامية الأطراف من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فأنها بالتأكيد لقيت العناية الخاصة من الدول الإسلامية المختلفة منذ عهد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) وما تلى ذلك من العهود المتعاقبة خلال القرون الوسطى وصولاً الى العصر الحديث[5].

وعلى امتداد تلك الدروب شيدت المساجد والمنازل والخانات والقلاع وآبار المياه والبرك، كما أقيمت الأسواق التجارية لتفي بحاجة الحجاج من كل المتطلبات، الأمر الذي أدى إلى رواج المدن والقرى التي كانت تمر بها قوافل الحج حتى أصبحت معالم بارزة في خارطة العالم الإسلامي[6].

وهكذا استمرت طرق الحج بتأدية وظيفتها الدينية منذ فجر الإسلام، وحتى بداية ظهور وسائط النقل الحديثة في نهايات القرن التاسع عشر، عندها اندثرت تدريجياً واختفت مع تقادم الزمن وتأثير الأحوال المناخية والسياسية والاقتصادية، وهجرت من قبل السكان القاطنين في المناطق التي كانت تجتازها، ومع ذلك فإن المصادر التاريخية والجغرافية حفظت لنا معلومات مهمة عنها ساعدت الباحثين في التحقق من المواقع الأثرية والمعالم الباقية عليها إلى يومنا هذا[7].

خريطة (1) طرق الحج الرئيسة في البلاد الاسلامية[8]

طريق الحج المصري القديم نشأته وتطوره التاريخي:

حين التحدث عن طريق الحج المصري القديم وعن تأريخ نشأته كطريق للحج، لا بد أن نشير إلى تأريخ الفتح الإسلامي لمصر عام 640م الذي ابتدأ معه هذا الطريق بالعمل[9]، حتى أصبح همزة وصل بين الغرب والشرق الإسلاميين، والطريق الهام والرئيس لعبور قوافل الحج القادمة من مصر وبلدان شمال افريقيا والأندلس[10]، والمتجهة بعد ذلك إلى الديار المقدسة في مكة المكرمة، ومما يزيد من

أهميته ارتباطه بالعديد من الطرق والمسالك التي تلتقي به أو تتفرع منه، فضلاً عن توفر الخدمات اللازمة على طول مراحله[11].

وكانت مسيرته تبدأ من الفسطاط أولى العواصم الإسلامية لمصر ومن ثم يتجه إلى جب عميرة، وهو الموضع الذي تجتمع به قافلتا مصر وشمال إفريقيا، قبل الانطلاق نحو البويب، ومن البويب الى منزل أم سعد، ومن منزل أم سعد الى عجرود[12]، ومن عجرود الى جسر القلزم (السويس)[13]، ومن جسر القلزم ينزل الدرب ست مراحل مروراً بصحراء سيناء، حتى آيلة(العقبة)، أو كما تعرف بعقبة ايلة، وهي مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) يلتقي بها حجاج الشام ومصر وبلاد المغرب، وتقام فيها الأسواق أثناء موسم الحج[14].

بعد ذلك يواصل الدرب المسير عبر منازل حقل ووادي الغراب وشرف البغل (الشرف أو شرف بني عطية)، علي أن يتابع تقدمه الى مدين (مغاير شعيب)، وهي مدينة عامرة فيها الكثير من العيون والأنهار العذبة وبساتين النخيل[15].

وعند مدين ينشطر الطريق الى شطرين وكما هو مشار في خريطة رقم(2)، فمن أراد أن يذهب إلى مكة المكرمة مباشرة، أخذ ساحل البحر الأحمر إلى عينونا، ومن عينونا الى المصلى، ومن المصلى الى النبك (المويلح)، ومن النبك الى ضبأ ومن ضبأ إلى المرة، ومن المرة إلى عويند، ومن عويند إلى الوجه، ومن الوجه إلى منخوس، ومن منخوس إلى الحوراء، ومن الحوراء الى قصيبة، ومن قصيبة إلى ينبع البحر،[16] ومن ينبع البحر إلى الجار، ومن الجار إلى الجحفة، ومن الجحفة إلى قديد، ومن قديد إلى عسفان، ثم إلى وادي فاطمة فمكة المكرمة[17].

أما من أراد أن يذهب إلى المدينة المنورة أولاً، ثم إلى مكة المكرمة ثانياً، فعليه أن يأخذ بعد مدين(مغاير شعيب) طريق قالس مروراً بالأغر، ومنها إلى الكلابية وبدا والشغب والسرحتين حتى السقيا، وبها يلتقي طريق الشام ومصر.[18]

ومن السقيا الى عتاب، ومن عتاب الى المروة، ومن المروة الى المر ومن المر الى السويداء، ومن السويداء الى الأراك، ومن الأراك الى ذي خشب، ومن ذي خشب الى المدينة المنورة[19].

خريطة (2) الطريق الساحلي والطريق الداخلي لدرب الحج المصري [20]

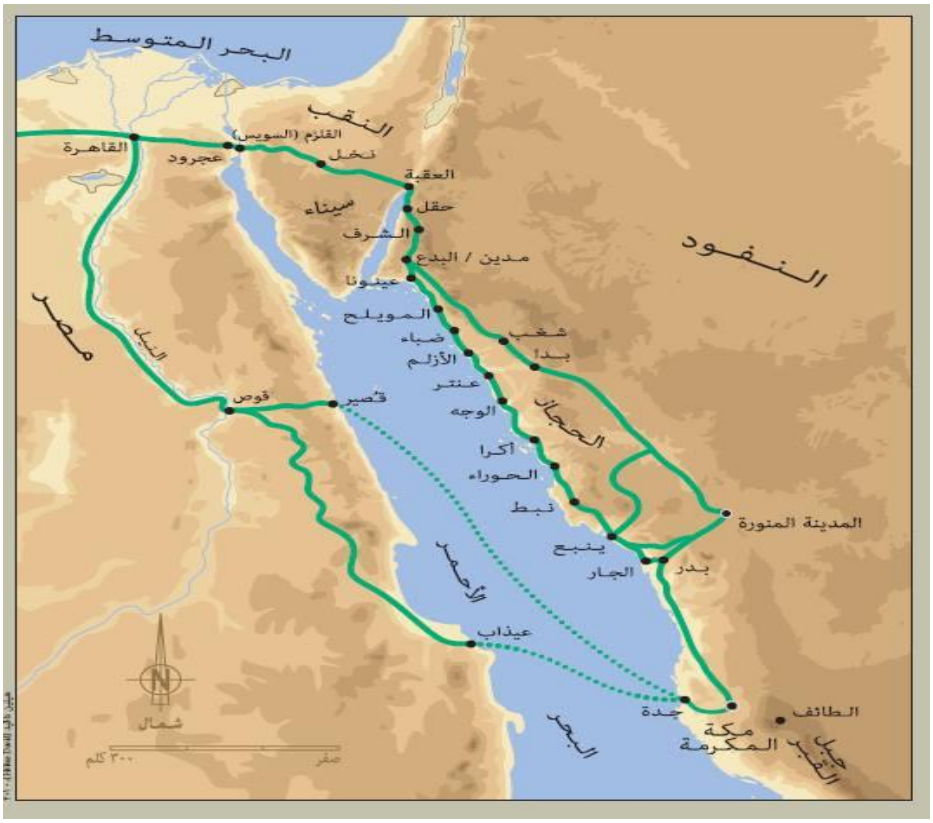

وكان الطريق الأول قد اصطلح على تسميته بالطريق الساحلي، أما الطريق الثاني فقد سمي بالطريق الداخلي، والأخير كان أكثر استخداماً وشيوعاً خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين، ومع بدايات القرن التاسع الميلادي زاد استخدام طريق الساحل حتى انتهى الأمر إلى استمراره وترك طريق الداخل[21].

طريق الحج المصري القديم الهجر والتحول إلى طريق البحر:

وعلى الرغم من الاهتمام المتباين لطريق الحج المصري بشطريه الأول والثاني من قبل الدول الإسلامية المتعاقبة، الا أنه مر بمراحل من التعثر والاضطراب في النصف الثاني من العهد الفاطمي حتى عطل وهجر بشكل نهائي عام 1058م[22]، وغيرت مساراته من شبه جزيرة سيناء إلى الصحراء الشرقية في مصر وكما هو مبين في خريطة رقم (3)، وتبدأ تلك المسارات من ميناء الفسطاط جنوبي القاهرة عبر نهر النيل، مروراً بأسكر ومنية ابن الخصيب وانصف ومرسى جبل المقلة أو المقلا، ومن المقلا تتجه المراكب إلى الساحل الغربي للنهر حيث تمر بإسيوط وبلدة أبي تيح، وأخيم والبلينا وهي من مدن الصعيد، ثم يعود المسار الى الساحل الشرقي عبر بلدة وشنا وقنا حتى يصل الى قوص آخر المحطات النهرية[23] وهي مدينة كبيرة على الدرب، وملتقى لحجاج مصر والمغرب، ومنها ينطلق الطريق البري إلى عيذاب على البحر الاحمر عبر صحراء مصر الشرقية، ومن عيذاب يكون عبور البحر بواسطة السفن الشراعية نحو جدة الميناء المقابل لمصر في الأراضي الحجازية، ومن جدة يستمر المسير الى مكة المكرمة[24].

ويعزى ترك الطريق القديم الى المحنة التي ألمت بمصر أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله معد بن الظاهر أبو تميم (1035– 1094م) ممثلة في المجاعة التي عرفت (بالشدة العظمى)، والتي استمرت سبع سنوات متتالية[25]، وكان من نتائجها عجز الفاطميين عن مواصلة دفع نفقات الطريق البري، والإشراف على قافلة الحج المصري التي تمر بأراضيه[26]، فضلاً عما آل اليه الوضع في البلاد أيام وصول الصليبيين إلى الشام أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وتأسيسهم لأربع إمارات صليبية، أخطرها إمارة بيت المقدس التي أسهمت في وصول النفوذ الصليبي الى صحراء

النقب، والسيطرة على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر إلى خليج آيلة[27]، من خلال تشييد الحصون والقلاع في آيلة ذاتها، الأمر الذي شكل تحدياً أمام استمرارية الطريق البري، مما اضطر الفاطميين الى إغلاقه، بعد أن عزلت مصر تماماً عن بقية العالم الاسلامي في الشرق[28].

وتحت وطأة تلك الظروف أصبح طريق قوص- عيذاب البحري هو الطريق الأمثل للحج، بما يتلاءم وطبيعة المرحلة التاريخية التي عاشتها مصر آنذاك، وقد حج من خلاله الرحالة الفارسي ناصر خسرو عام 1050م[29]، كما استخدم من قبل الرحالة ابن جبير، الذي يعطينا وصفاً دقيقاً لمسالكه المختلفة، أثناء مروره الى الديار المقدسة عام 1183م[30].

لكن هذا الطريق كانت تعتريه الكثير من المشاكل، منها وعورته، وطول مسافاته، وقلة الماء فيه[31]، وسوء معاملة الحجاج من قبل عرب البجاة[32] الذين كانوا يتولون أمر نقلهم بالإبل من قوص الى عيذاب[33]، ناهيك عن المراكب المتهالكة التي تحملهم الى جدة مقابل رسوم باهظة تفرض عليهم من أصحابها[34]، والذين يشحنونها بأعداد كبيرة من الحجاج تفوق حمولتها، مما يؤدي في كثير من الاحيان الى غرقها وسط البحر، وهلاك أغلب من عليها[35].

خريطة (3) طريق قوص – عيذاب عبر الصحراء الشرقية لمصر[36]

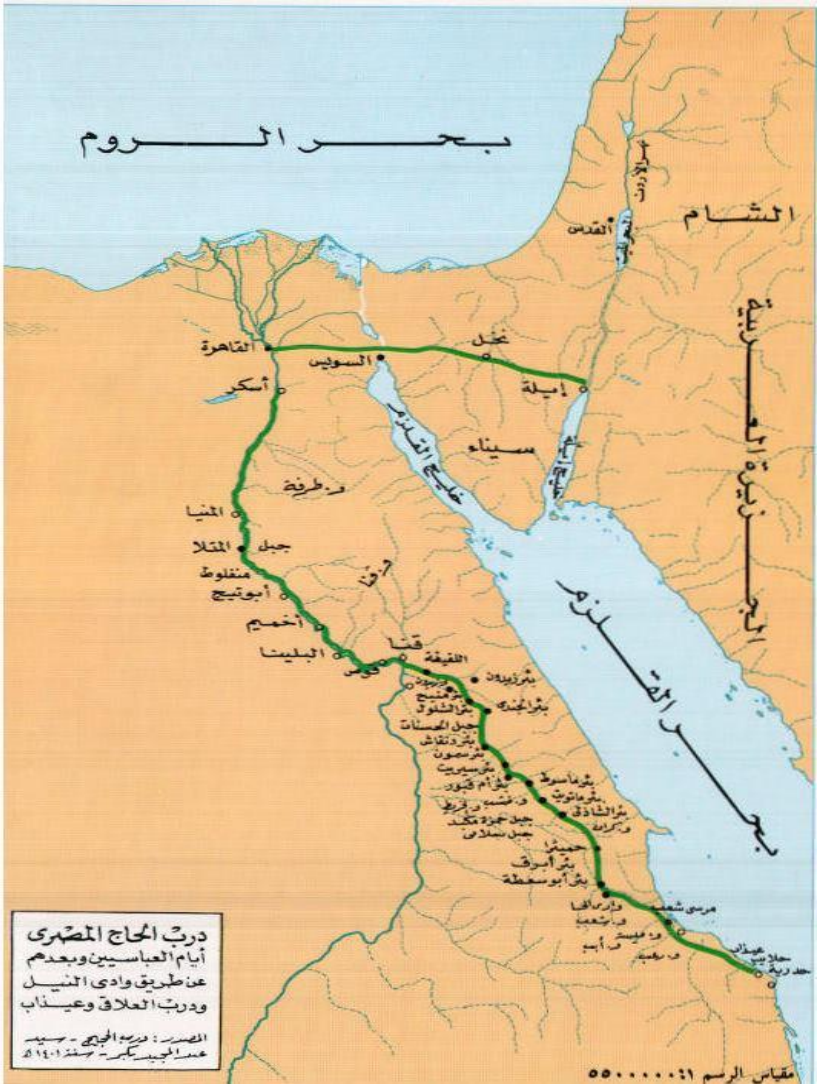

استمر طريق قوص– عيذاب– رغم المصاعب التي جابهته– لقرنين من الزمان خلال المدة الممتدة بين عامي (1059– 1262 م)، ومع نهايات العهد الايوبي بدأت ملامح استخدامه تضعف تدريجياً، وقلت مبررات مرور قوافل الحج عبر أراضيه، بسبب تطور الأحداث السياسية والحربية التي شهدتها المنطقة، والتي أعادت الأمن والاستقرار الى المنازل التي كان يمر بها الطريق البري عبر سيناء، بعد أن

تمكن صلاح الدين الايوبي (1174- 1193 م) من هزيمة الفرنج في موقعة حطين عام 1187م وما ترتب على ذلك من سقوط العديد من المدن والقلاع الصليبية، ومن ثم كسر شوكة الصليبيين في بلاد الشام[37]، الأمر الذي مهد الظروف في العودة الى طريق الحج المصري القديم، وأول استخدام له جاء من قبل ركب شجرة الدر عام 1247م عندما قررت الحج في تلك السنة[38].

الحقبة المملوكية والعودة الى طريق الحج المصري القديم:

جاءت البداية الحقيقية لفتح طريق الحج المصري القديم من قبل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري (1277-1260م)، عندما كسا الكعبة المشرفة عام 1262م، وعمل لها مفتاحاً [39]،ثم أخرج قافلة الحج الى البر عام 1267م، وأرسل معها الكسوة الى البيت المعظم[40]، ولما تمت كل تلك الترتيبات أقدم عام 1268م على التوجه الى مكة المكرمة، وهو في طريقه الى الحج، لتأكيد عودة الدرب البري القديم في استقبال قوافل الحج المتجهة من القاهرة الى الديار المقدسة في الحجاز [41].

وهكذا بدأت أهمية طريق قوص- عيذاب تتضاءل وانتهى أي دور له مطلع القرن الخامس عشر، نتيجة تحول الحج عنه بالعودة الى الطريق القديم، فضلاً عن تنامي النزاعات المحلية بين بعض القبائل المحيطة بعيذاب[42]، والتي أفقدت المدينة الأمن والسلام، وجعلت استحالة مرور القوافل عبر أراضيها[43]، وقد تحدث لنا التجيبي عما أصاب الطريق البحري من مشاكل في رحلته الى الحجاز عام 1296م[44]، كما لم يستطع أن يحج خلاله ابن بطوطة عام 1325م، قائلاً عنه: " لما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا في البحر..."[45].

وفي هذا الصدد يمكن أن نؤكد بأن تراجع ميناء عيذاب عن دوره الحضاري قد أفسح المجال لتنامي دور ميناء جدة ليصبح الميناء الرئيس على البحر الأحمر منذ آواخر العهد المملوكي، وقد أتاح ذلك استخدام الأخير كطريق ثانوي للحج من قبل الميسورين، وعدد قليل من حجاج شمال وغرب إفريقيا ممن وجدوه أفضل لهم من البر، على أن يبدأ المسير فيه بواسطة السفن الشراعية انطلاقاً من ميناء السويس[46].

وحج عبر هذا الطريق الرحالة الأندلسي أبو الحسن علي القلصادي عام 1447م وهو يصف مراحله المتعددة التي تمر بالسويس والطور وينبع البحر ورابغ وجدة آخر المحطات البحرية له، قبل النزول الى البر والتوجه بعدها الى مكة المكرمة[47].

وحين العودة الى طريق الحج المصري الأول الذي أعيد إلى الاستخدام عام 1268م والتحدث عن منازله في العهد المملوكي، فنقول هي نفسها التي ظهر عليها سابقاً في العهود الماضية، عدا ما طرأ عليها من تغيير في أسماء بعض المواضع، وبروز مواضع جديدة، فقد تبدل اسم جب عميرة الى بركة الحاج، وظهرت محطة نخل في قلب سيناء، واندثر ميناء الجار وأصبح ميناء ينبع البحر وريثاً له[48].

وفي تلك المرحلة التاريخية لم يعد ينشطر هذا الدرب الى شطرين، اعتباراً من مدين كما مضى الى ساحلي وداخلي، وانما شطر واحد فقط هو الساحلي[49]، ويظهر ذلك من خريطة رقم(4) وخريطة رقم(5)، ويبدأ فيهما المسير أيضاً من مدين مروراً بعينونا والنبك (المويلح)، والأزلم وأسطبل عنتر والوجه والحوراء والنبط وينبع البحر وبدر ورابغ وقديد وعسفان، ثم وادي فاطمة ومكة المكرمة[50].

وقد نال الطريق المشار اليه في ذلك الوقت اهتماما كبيراً من قبل سلاطين الدولة المملوكية، والظاهر بيبرس البندقداري هو أول من عني بمنازله التي امتدت على طول الأراضي التي يسير فيها بين مصر والحجاز[51]، فإليه يعزى إنشاء برج إلى الجنوب من آيلة، على مسافة قصيرة من خليجها، لا تزيد على 50 متراً في سفح الجبل المجاور لها[52].

وأقدم الناصر محمد بن قلاوون (1309– 1340م) على بناء خان في كل من عجرود[53]، وآيلة[54]، والأزلم، ووكل بحفظ تلك الخانات إلى أشخاص أجرى لهم رواتب ومخصصات معلومة[55]، أما خليفته في الحكم وولده الناصر حسن (1354– 1361م)، فإنه قام بتمهيد الطريق عند آيلة حين أزال كل العقبات الشاقة فيه، وقد عرف هذا العمل بنقب آيلة، ليسهل على الحجاج المرور فيه[56].

كما حرص المماليك على إصلاح آبار المياه المنتشرة على طريق الحج، فقد أرسل السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (1422– 1438م) الى الحجاز عام

1430م الأمير شاهين الطويل، ومعه الكثير من الحجاريين والمتخصصين في اصلاح آبار المياه، وحفر آبار جديدة في الأماكن التي تتطلب ذلك[57].

خريطة (4) الطريق الساحلي[58]

أما أبرز المآثر المملوكية، فأنها تعود الى السلطان الأشرف قانصوه الغوري (1501– 1516 م) الذي بنا خاناً وبرجاً في كل من نخل والسويس وحقل، وأضاف

أبراجاً أخرى الى الخانات التي بنيت على أيام الناصر محمد بن قلاوون، وهي خانات عجرود والازلم [59]، ليجعل منها قلاعاً حصينة تحمي مسالك الحج المصري من جهة حدود مصر الشرقية[60]، فضلاً عما قام به من أعمال وترميم في تلك المنشأة الحيوية[61].

خريطة (5) الطريق الساحلي[62]

ونذكر أيضاً بالأسواق التي راجت أيام حكم المماليك على طول الدرب، وكانت هذه الأسواق بمثابة أماكن لتجمع واستراحة الحجاج، مع إمدادهم بما يلزم من المؤن والزاد، وذلك بما يحقق النفع العام، والفائدة للجميع على حد سواء.[63]

الحقبة العثمانية والازدهار الحضاري لطريق الحج المصري القديم استمر درب الحج المصري القديم يشق صحراء سيناء أثناء العهد المملوكي الذي انتهى عام 1517م

على يد الدولة العثمانية التي أصبحت هي من ترعى طرق الحج، باعتبار أن الزعامة على العالم الإسلامي قد انتقلت إليها تلقائياً.

لكن ذلك الطريق سرعان ما توقف بشكل موقت في العام المشار إليه، نتيجة للمستجدات السياسة التي عاشتها مصر أثناء المرحلة الانتقالية التي ألمت بها حين تحولت من الحكم المملوكي الى الحكم العثماني، الأمر الذي ارغم الدولة العثمانية على إرسال كسوة الكعبة المشرفة عبر البحر الاحمر من خلال طريق السويس- جدة [64].

وريثما استقر الحكم للعثمانيين في مصر عاد الطريق البري- في العام التالي- الى سابق عهده في استقبال قوافل الحج المتجهة إلى الأراضي المقدسة في مكة المكرمة، ولم يتغير شيء في منازله التي كان يمر بها أيام المماليك، عدى ما طرأ عليها من اهتمام عثماني واضح، كرس لإنشاء الآبار، وإقامة الحصون، وتشجيع بناء الخانات والمخافر، وتعزيز دور الحاميات العسكرية على طول الدرب، لحفظ الأمن والنظام[65]، مع ما شهدته بعض الأبراج التي تعود إلى الحقبة المملوكية من توسعه[66]، فكان نصيب عجرود من تلك الرعاية تجديد وترميم قلعتها (الخان والبرج) لأكثر من مرة، إذ جددت في عهد السلطان سليم الأول(1512-1520م)[67]، وجددت في عهد السلطان سليمان القانوني (1520- 1566م)، ورممت من قبل السلطان محمد الثالث (1595- 1603م)[68]، وكانت الخزينة المصرية هي من تكفلت بتغطية جميع النفقات لتلك الأعمال[69].

ونالت قلعة السويس نصيباً وافراً من اهتمامات السلطان سليم الأول، عندما أقدم على تجديد بنائها عام 1520 م، وذلك بهدف تحقيق الأمن والسلام لطريق الحج عند الحدود الشرقية لمصر، وقد خصصت مبالغ طائلة للقائمين على تلك القلعة[70].

طالت تلك الرعاية أيضا قلعة نخل التي تتوسط سيناء[71]، وفي هذا الجانب يمكن القول بأن السلطان سليمان القانوني والسلطان مراد الثالث (1574- 1595م)، والسلطان أحمد الثالث (1703- 1730م) أسهموا إسهاماً كبيراً في أعمال البناء والترميم في منشآتها الحيوية[72]، وامتدت تلك التعميرات الى قلعة آيلة بأمر من السلطان مراد الثالث[73].

خريطة رقم (6) مسار الطريق من القاهرة الى السويس[74]

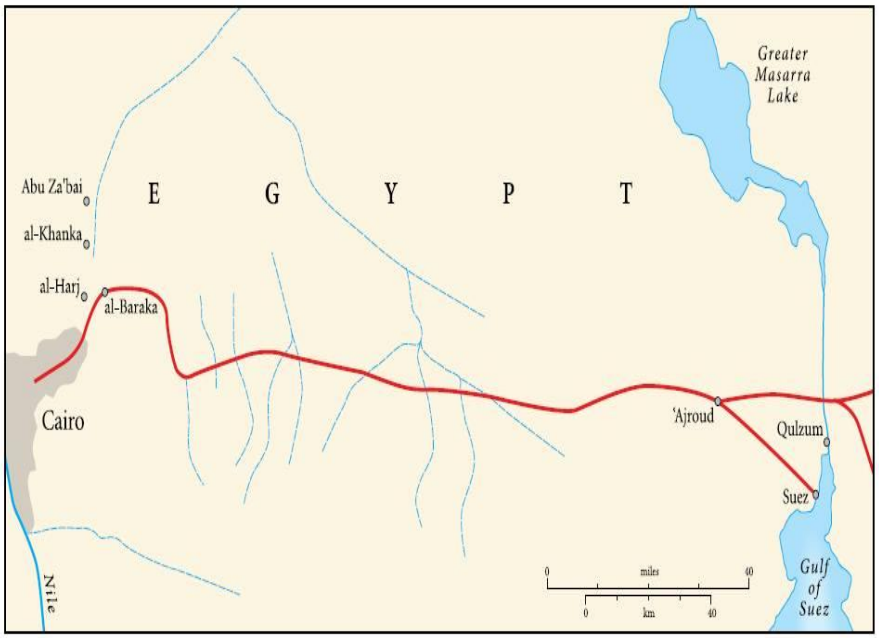

Plate 2 The map of the Egyptian Hajj route between 'Ajroud and 'Aqaba, showing the *khans* in 'Ajroud, Nakhl, Abyar al-'Ala'i and 'Aqaba (map by Martin Brown)

خريطة رقم (7) مسار الطريق من السويس الى آيله[75]

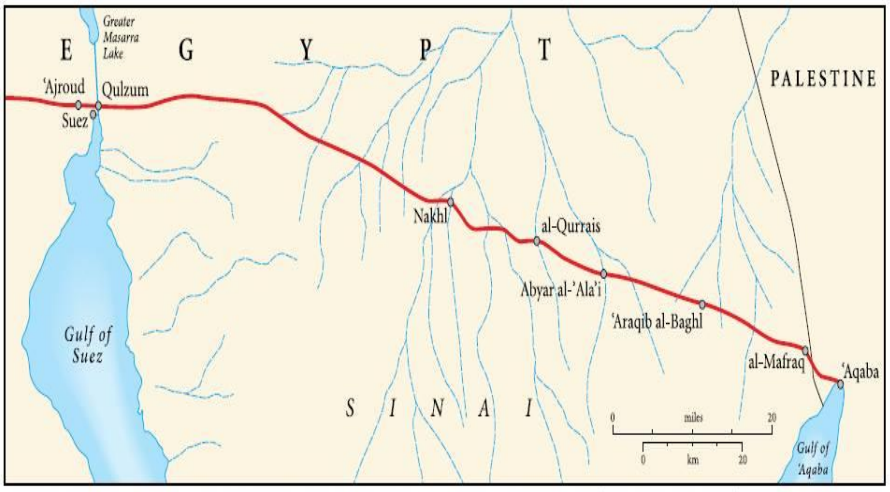

Plate 1 The map of the Egyptian Hajj route between Birkat al-Hajj and the fort-*khan* of 'Ajroud (map by Martin Brown)

كما أقدم السلطان سليمان القانوني عام 1560م على جملة من الإنشاءات الضرورية التي استهدفت مناهل الدرب على الأراضي الحجازية، منها قيامه بإنشاء

قلعتي المويلح[76]، والوجه[77]، بهدف تأمين الحج وخدمته وتوفير الحماية اللازمة له، وتمكين الحجاج من التزود بالماء، وحفظ الامتعة[78].

وقد تابع الباشوات العثمانيون في مصر سياسة الإعمار التي بدأها سلاطين الدولة العثمانية بطريق الحج المصري، وذلك من خلال العمل الدائم لتمهيد مراحله وكل ما يعتريه من مشاق، فضلاً عن حفرهم الآبار التي تردم فيه أو إنشاء آبار جديدة، مع العناية الدائمة بالقلاع والمحطات الممتدة عبر أراضيه، بهدف توفير الحراسة والراحة للحجاج، وفي هذا الصدد يمكن أن نشير إلى ما قام به الوالي داود باشا (1538- 1549م) من بنائه خان على الطريق الرابط بين القاهرة وبركة الحاج[79]، وإنشائه عام 1544م حوضاً على بئرين قديمين في البركة ذاتها، وتوسعته وتجديده لقلعة الازلم.[80]

وعند نهاية القرن الثامن عشر أصدر الوالي أبو بكر باشا (1796-1798م) أوامره بتعمير وترميم سواقي قلعة نخل وعجرود، وحفر آبار جديدة بطريق الحج، وقد خصص لهذا الغرض مبلغ ثمانية أكياس من الخزينة الأرسالية للسلطان[81].

ولا يفوتنا ذكر ما ورد في رحلة الفرنسي شارل ديدييه (Charles Didier) من قيام الوالي محمد علي باشا (1805-1848م) عام 1809م بترميم القلاع المنتشرة بين القاهرة وينبع البحر، والتي شملت عجرود ونخل وآيلة والمويلح والأزلم والوجه[82]، بعد أن أفرد لها وضعاً إدارياً خاصاً، من خلال تعيينه محافظاً يدير شؤونها ويتبع باشوية مصر، وقاضياً ينظر في احكامها الشرعية، وظلت تدار بهذا الشكل حتى انقطاع الحج براً عام 1883[83].

وعلى الرغم من الاهتمام المتزايد الذي أبدته الدولة العثمانية تجاه الطريق البري القديم، الا أنه لم يكن هو الطريق الوحيد للحج، بل استمر معه الطريق البحري المار بالسويس، والذي شاع استخدامه منذ أواخر العهد المملوكي كمعبر ثانوي في الوصول الى مكة المكرمة[84]، وظل مقتصراً على بعض الوافدين من حجاج شمال افريقيا وغربها ممن يفضلونه [85]، أو ممن تخلف عن الالتحاق براً بالركب المصري[86]، أما مراحله أثناء الحقبة العثمانية فإنها تتبع مسار البر الأول من القاهرة

مـروراً ببركـة الحـاج والبويـب وعجـرود، ومـن ثـم السـويس، آخـر المحطـات قبـل الإبحار[87]، والتحرك باتجاه الطور والوجه وينبع البحر حتى ميناء جدة، أقرب الموانئ إلى مكة المكرمة[88]، على أن تبدأ بعدها مرحلة برية جديدة عبر طريق معبد أنشئت عليه الاستراحات والقلاع المتعددة للحراسة[89].

خريطة(8) الخانات والمنازل بين السويس وآيله في العهد العثماني[90]

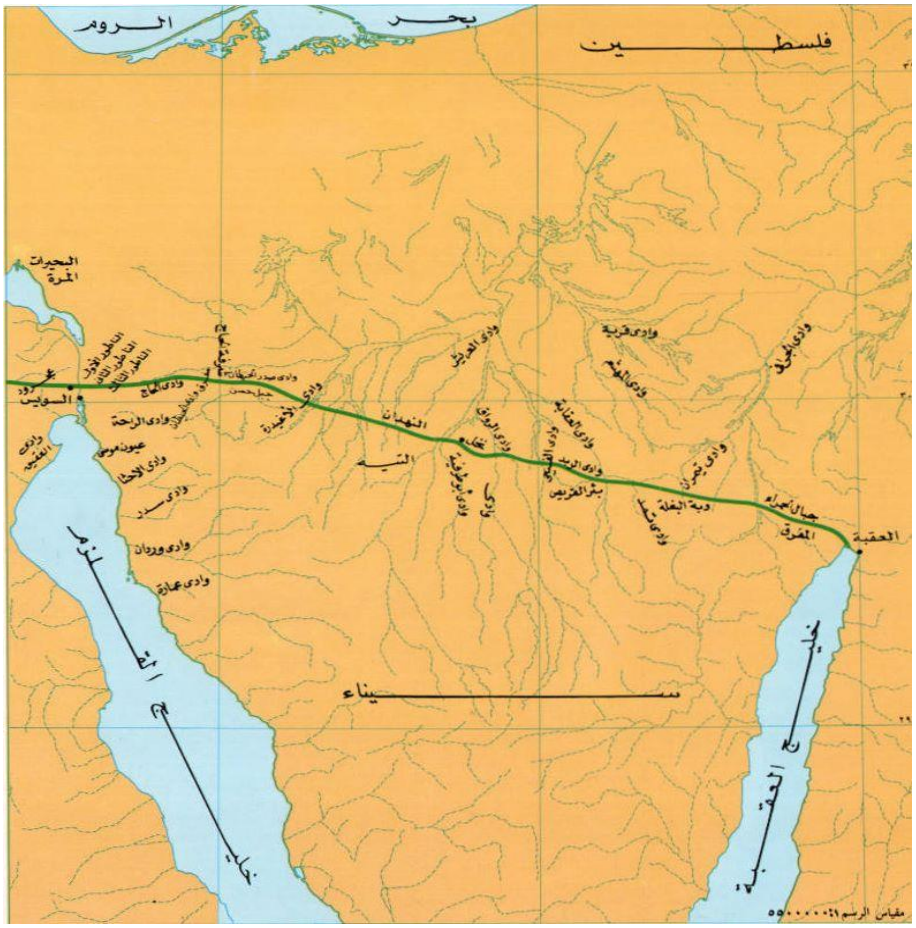

وقد أخذت أهمية هذا الدرب بالتنامي بعد فتح قناة السويس عام 1869م وظهور السكك الحديدية التي ربطت بينها وبين القاهرة، مما جعلها توفر أيسر الطرق

لنقل الحاج إلى البحر الأحمر، وبالتالي الى الحجاز[91]، وهكذا بدأت استخدامات الطريق الأول للحج تتضاءل مع التقدم في الزمن[92]، حتى ترك وهجر بشكل رسمي عام 1883م، عندما أعلنت الحكومة المصرية انطلاق سفر المحمل المصري بصحبة الكسوة وحجاج بيت الله الحرام عبر مينائي السويس والطور، وكانت آخر قافلة خرجت إلى البر في ذلك العام ليأخذ بعدها الطريق الأخير مساره الطبيعي[93].

لم تغلق تلك التغيرات الطريق البري القديم، وظل– حتى بدايات القرن العشرين– مستخدماً من قبل فقراء الحجاج، وبعض التجار، فضلاً عن استمرار تحركات العربان فيه من القاطنين بالمنطقة، لكن الاهتمام بعمارته أوقف من قبل السلطة المركزية في القاهرة، وهجرت منشآته الحيوية، باستثناء الآبار والبرك، أما القلاع فأنها تعرضت للتدمير، بسبب التطورات السياسية والحربية التي ألمت بمصر والحجاز في سنوات الحرب العالمية الأولى، ومن ثم أصبحت عمائره في أغلب المنازل والمناهل التي كان يمر بها أثراً بعد عين[94].

استنتاجات البحث

1- تأثر الطريق بالأحداث السياسية التي عاشتها مصر والبلاد المجاورة طيلة مدة استخدامه، والتي كانت سبباً رئيساً في تغيير مساراته المختلفة.
2- شكل ذلك بالطبع تحدياً للسلالات الحاكمة في مصر، والتي كانت ترعى الحج وكل ما يتعلق به، وتسعى الى توفير أيسر الوسائل لإنجاحه.
3- ولذلك يمكن القول بأن طريق الحج المصري، كان أكثر طرق الحج الأخرى عرضة لعدم الاستقرار والتبدل.
4- أما الاهتمام به فأنه جاء على وتيرة واحدة من كل الدول التي خضعت لحكمها مصر، ويعزى ذلك الى محاولة تلك الدول إضفاء الشريعة على حكمها، من خلال العناية بشؤون المسلمين ورعايتهم.

الهوامش:

- سليمان عبد الغني مالكي، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، الرياض، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، 1987، ص36.
- عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002، ج2، 52- 53.
- ابتسام بنت محمد صالح بن عبد الرحمن كشميري/ مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني الى نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي (923-1000هـ)(01517-1591م) دراسة سياسية – حضارية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 2001، ص345.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل غرب العالم الاسلامي بالحرمين الشريفين (دراسة تأريخية- آثارية)، بحث مقدم الى الندوة الكبرى المقامة بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة الثقافة الأسلامية لعام 1426هـ، المحور التاسع الرحلات وأثرها في العالم الإسلامي، مكة المكرمة، مطابع جامعة ام القرى، 1426هـ / 2005م، ص9-10.
- آمنة جلال، طرق الحج ومرافقه في العصر المملوكي 648- 923 هـ، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 1986، ص5.
- سعد بن عبد العزيز الراشد، درب زبيدة طريق الحج من الكوفة الى مكة، في: علي إبراهيم الغبان وآخرون، دليل معرض (طرق التجارة القديمة روائع آثار المملكة العربية السعودية)، باريس، (د.مط)، 2010، ص417.
- علي إبراهيم الغبان وآخرون، دليل معرض (طرق التجارة القديمة روائع آثار المملكة العربية السعودية)، ص413.
- Translated by – ، the Islamic Openings،Abdul Aziz Al- Shinhawy ، Umm Al –Qura for Translation، Egypt،Heba Samir Hendawi 289;، P. 1- 209، 2002،Publishing and Distribution

- عبد العزيز إبراهيم العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور دراسة تاريخية لحركة الجهاد الاسلامي من عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى اواخر العهد العثماني، الرياض، دار اشبيليا، ط3، 2000، ص 100- 179.
- كانت القاهرة تمثل أكبر محطة في رحلة الحج المغربية التي تمثل بلدان شمال افريقيا، ولم يكن للمحمل المغربي هيكل خشبي وكسوة مثل سائر المحامل، وإنما عبارة عن قوافل متعددة تضم ركائب حج المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، لتؤلف ركباً مغربياً واحداً يسير براً عبر تلك البلدان بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، ويتزامن مع تحرك هذا الركب تحرك حجاج الأندلس الذين يأتون بحراً عبر الشواطئ المغربية حتى يصل الجميع الى الاسكندرية، ومن ثم إلى القاهرة، التي لا يغادرونها إلا يوم 27 شوال، بعد أن يكون قد رحل عنها الركب المصري يوم23 شوال، عندها يلتحق به الركب المغربي، ويجتمع الركبان في بركة الحاج، ومن هناك يكون الانطلاق باتجاه الأراضي المقدسة في الحجاز، ينظر: عواطف بن محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، 2008،ص256.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص16.
-) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1981، ص84.
- جسر القلزم: ورد في الكتابات اليونانية القديمة، وهو اسم لميناء القلزم الذي تعود أهميته الى ما قبل الفتح العربي لمصر، ويقع في أقصى النهاية الشمالية لبحر القلزم، على مسافة كيلو ونصف الكيلو شمالي مدينة السويس الحالية، وظل على أهميته في العصر الإسلامي حتى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، ثم أخذ في الضعف والاضمحلال ليندثر بعدها وتبنى على أنقاضه مدينة السويس الحالية وميناؤها، وآثار القلزم لم تزل قائمة بين مساكن السويس الى يومنا هذا، وهي تحمل اسم (قلعة القلزم)، للتفاصيل ينظر: صفاء حافظ عبد الفتاح، الموانئ والثغور المصرية من الفتح الاسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، دار الاشعاع للطباعة، (د.ت)، ص34- 35.
- أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكتاب، كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل، 1860، ص 129- 130.
- أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق وتقديم: ادريان فان ليوفن، ندري وفيري، (د.م)، الدار العربية للكتاب، 1992، ج1، ص419.

- الإمام أبو إسحاق الحربي، كتاب المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة العربية، تحقيق: حمد الجاسر، بيروت، مطبعة المتنبي، 1969، ص651- 652.
- سيد عبد المجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، جدة، مطابع دار البلاد، 1981، ص76.
- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، كتاب مسالك الممالك، ليدن، مطبعة بريل، 1870، ص27.
- الإمام ابو إسحاق الحربي، المصدر السابق، ص650-651.
- علي بن إبراهيم الغبان، طريق الحج المصري، في: علي ابراهيم الغبان وآخرون، دليل معرض (طرق التجارة القديمة روائع آثار المملكة العربية السعودية)، ص460.
- المصدر نفسه، ص461.
- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، دار احياء الكتاب العربية، 1975، ج1، ق1، ص20.
- محمد بن حسين بن حامد الحارثي، الثغور البحرية الحجازية من البعثة النبوية الى نهاية العصر المملوكي (البعثة/ 611م- 923 هـ/ 1517م) دراسة تاريخية، رسالة ماجستير(غير منشورة)، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2001، ص334.
- تقي الدين أبو العباس احمد بن علي المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1987،ج1، ص202.
- للتفاصيل عن تلك المجاعة، ينظر: حسن ابراهيم حسن، الفاطميون في مصر واعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة، المطبعة الاميرية، 1932، ص251-252.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص31.
- سليمان عبد الغني مالكي، طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الاسلامي الى منتصف القرن السابع الهجري، الدارة (مجلة)، المملكة العربية السعودية،س1، ع1، 1984، ص16.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص32-33.
- ناصر خسرو علوي، سفر نامة، ترجمة: يحيى الخشاب، (د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1993، ص131-135.
- محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، (د.ت)، ص 32- 53.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص 34-35.

- عرب البجاة: ويعرفون أيضاً (بالبجا أو البيجة)، وهم صنف من الحبش شديدو السواد، يقطنون على شكل قبائل في الصحراء الشرقية لمصر، بين الساحل الغربي للبحر الاحمر وبين عيذاب وقوص، للتفاصيل أكثر عن البجاة، ينظر: نعوم شقير، تأريخ السودان، تحقيق وتقديم: ابراهيم ابو سليم، بيروت، دار الجيل، 1981، ص79-83.
- عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي، المصدر السابق، ج1، ص248- 249.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص35-36.
- محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر، مصر، مطبعة الجمالية، 1329هـ/ 1911م، ص29.
- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للأعلام العربي، ط1، 1987، ص391.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص 43.
- ابراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1935م، ج2، ص306.
- عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2005، ج3، ص87.
- تقي الدين أبو العباس احمد بن علي المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص202.
- عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، المصدر السابق، ج3، ص94.
- نهى عبد الحافظ عبد العزيز، الأهمية التأريخية لميناء عيذاب الاثري، ص4-5.
- محمد عبد العزيز محمد سياج، النقل والمواصلات في مصر عصر سلاطين المماليك (648-923هـ/ 1250-1517م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، 2008، 71.
- القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، تونس، الدار العربية للكتاب، 1975، ص196- 206.
- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي،الرباط، (د.مط)، 1997، ج1،ص231.
- Darrag ،[1] Ahmad، L Egypte Sous Le Regne de Barsbay (826-841، 1422- 1438) ، Damas، 1961.، P. 201- 208.

- أبو الحسن علي القلصادي الاندلسي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد ابو الاجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص129-131.
- سيد عبد المجيد بكر، المصدر السابق، ص79.
- علي بن ابراهيم الغبان، المصدر السابق، ص461.
- لتتبع سير تلك المنازل، ينظر: هيام علي عيسى، الحج الى الحجاز في العصر المملوكي (648/ 1250- 923/ 1517)، اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة القديس يوسف، لبنان، 2010، ص126-134.
- الشيخ أحمد الرشيدي، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي امارة الحاج، تحقيق: ليلى عبد اللطيف أحمد، مصر، مكتبة الخانجي، 1980، ص38.
- السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب، كتاب تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840، ص87.
- سيد عبد المجيد بكر، المصدر السابق، ص106 و120.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص315.
- آمنة جلال، المصدر السابق، ص55.
- نعوم شقير، تأريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، بيروت، دار الجيل، 1991، ص204.
- محمد محمد التهامي، الاصلاحات المملوكية في الاراضي الحجازية، الدارة (مجلة)، المملكة العربية السعودية، العدد الاول، س11، يونيو، 1985، ص88.
- محمد بن احمد بن اياس الحنفي، المصدر السابق، ج4، ص151- 152؛ أ. موسل، شمال الحجاز، ترجمة: عبد المحسن الحسيني، الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1952، ص152.
- صبري العدل، تأريخ سيناء الحديث (1869- 1917)، (د.م)، (د.مط)، 2004، ص17.
- آمنة جلال، المصدر السابق، ص39-40 و 44 و56.
- حسين مؤنس، المصدر السابق،ص 392.
- Sami Saleh Abd Al- Malik، The Khans of the Egyptian Hajj Route in the Mamluk and Ottoman Periods، P. 59.
- محمد محمد التهامي، المصدر السابق، ص88.
- الإمام الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص390.

- أيوب صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، ترجمة: احمد فؤاد متولي، الصفصافي احمد المرسي، القاهرة، دار الافاق العربية، 1999، ص15.
- P. 58، Op.Cit.، Sami Saleh Abd Al- Malik
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص86-87.
- سميرة فهمي علي عمر، امارة الحج في مصر العثمانية 923- 1213هـ/ 1517-1798م، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية، 2001، ص291.
- the Financial and Administrative Organization and ، S.J.،Shaw ، N. J، Princeton، 1517- 1798،Development of Ottoman Egypt ، 1962، P. 212.
- محمد علي فهيم بيومي، مخصصات الحرمين الشريفين في مصر ابان العصر العثماني في الفترة من 923- 1220هـ/ 1517- 1805م، رسالة ماجستير (غير منشور)، كلية اللغة العربية، جامعة الازهر، جمهورية مصر العربية، 1999، ص240.
- أبو عبد الله محمد بن احمد الخصيكي السوسي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، الرباط، دار الامان للنشر والتوزيع، 2011، ص94.
- سامي صالح عبد المالك، البياضي، الموروث التاريخي في خدمة الاكتشافات الآثارية: الواقع والمأمول طريق البريد والحاج المصري في سيناء انموذجاً ثمانية عشر عاماً من البحث والتنقيب في مجاهل سيناء، ص13.
- اللواء محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية، اعداد وتحرير: محمد همام فكري، بيروت، بدر للنشر والتوزيع، 1999، ص272.
- . P. 53، Op.Cit.،Sami Saleh Abd Al- Malik
- P. 53.،Ibid
- هشام محمد علي حسين عجيمي، قلعة المويلح، دراسة معمارية حضارية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 1983، ص29.
- مطلق البلوي، العثمانيون في شمال الجزيرة العربية، 1326- 1341هـ/ 1908-1923م، بيروت الدار العربية للموسوعات، 2007، ص90-91.
- يدي الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار، بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1974، ص319.
- . P. 59، Op.Cit.،Sami Saleh Abd Al- Malik
- الشيخ أحمد الرشيدي، المصدر السابق، ص20.

- المصدر نفسه، ص21.
- شارل ديدييه، رحلة الى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي 1854م، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، الرياض، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، 2002، ص249.
- محمد لبيب البتنوني، المصدر السابق، ص223.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص52.
- رتشارد. ف. بيرتون، رحلة بيرتون الى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص146-147.
- ابو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في اخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق: عبد الكريم العبيلالي، الرباط،مطبعة المعارف الجديدة، 1991، ص213- 214.
- حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر،(د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999،ص223.
- جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995، ص41- 44.
- ابتسام بنت محمد صالح بن عبد الرحمن كشميري، المصدر السابق، ص345.

[1] حسين مؤنس، المصدر السابق، ص392.

- محمد لبيب البتنوني، المصدر السابق، ص37.
- جمال حمدان، سيناء في الاستراتيجية والسياسية والجغرافيا، القاهرة، مطبعة اطلس، 1993، ص19.
- أحمد السباعي، تأريخ مكة دراسة في السياسة والعلم الاجتماع والعمران، الرياض، مكتبة العبيكان، 1999، ج2، ص529 و 650.
- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل، ص57- 58.

قائمة المصادر:

أولاً: الرحلات:

- ابراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1935م، ج2.
- أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق: عبد الكريم العبيلالي، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1991.

- أبو الحسن علي القلصادي الاندلسي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد ابو الاجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978.
- أبو عبد الله محمد بن احمد الخصيكي السوسي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، الرباط، دار الامان للنشر والتوزيع، 2011.
- جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ،(د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.
- رتشارد. ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.
- سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الانظار في فضل علم التأريخ والاخبار، بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1974.
- شارل ديدييه، رحلة الى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي 1854م، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، الرياض،، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2002.
- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط، (د. مط)، 1997، ج1.
- القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، تونس، الدار العربية للكتاب، 1975.
- اللواء محمد صادق باشا، الرحلات الحجازية، اعداد وتحرير: محمد همام فكري، بيروت، بدر للنشر والتوزيع، 1999.
- محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، (د.ت).
- محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر، مصر، مطبعة الجمالية، 1329 هـ/ 1911م.
- ناصر خسرو علوي، سفر نامة، ترجمة: يحيى الخشاب، (د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1993.

ثانياً: المصادر:

- الإمام ابو إسحاق الحربي، كتاب المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة العربية، تحقيق: حمد الجاسر، بيروت، مطبعة المتنبي، 1969.

- الإمام الشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع (د.ت).
- أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، كتاب مسالك الممالك، ليدن، مطبعة بريل، 1870.
- أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق وتقديم: ادريان فان ليوفن، ندري فيري، (د.م)، الدار العربية للكتاب، 1992، ج1.
- أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكتاب، كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل، 1860.
- تقي الدين ابي العباس احمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1987، ج1.
- السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب، كتاب تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840.
- الشيخ أحمد الرشيدي، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي امارة الحاج، تحقيق: ليلى عبد اللطيف احمد، مصر، مكتبة الخانجي، 1980.
- عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الانصاري الجزيري الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002،ج1و ج2.
- عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع،ط3، 2005، ج3.
- قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1981.
- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، 1975، ج1/ ق1 و ج 4.

ثالثاً: الرسائل والاطاريح الجامعية:

- بتسام بنت محمد صالح بن عبد الرحمن كشميري، مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني الى نهاية القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي (1000-923هـ) (1517- 1591م) دراسة سياسية - حضارية، اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2001.
- آمنة جلال، طرق الحج ومرافقه في العصر المملوكي 648- 923 هـ، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1986.
- محمد بن حسين بن حامد الحارثي، الثغور البحرية الحجازية من البعثة النبوية الى نهاية العصر المملوكي (البعثة/ 611م - 923 هـ/ 1517م) دراسة تاريخية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الشريعة، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 2001.
- محمد عبد العزيز محمد سياج، النقل والمواصلات في مصر عصر سلاطين المماليك (648- 923هـ/ 1250- 1517م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الاداب، جامعة الزقازيق، 2008.
- محمد علي فهيم بيومي، مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني في الفترة من 923- 1220هـ / 1517- 1805م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية اللغة العربية، جامعة الازهر، جمهورية مصر العربية، 1999.
- هشام محمد علي حسن عجيمي، قلعة المويلح دراسة معمارية حضارية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية والدراسات الاسلامية، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، 1983.
- هيام علي عيسى،الحج الى الحجاز في العصر المملوكي (648/ 1250هـ- 923/ 1517 م)، اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة القديس يوسف، لبنان، 2010.

رابعاً: المراجع العربية والمعربة:

- أحمد السباعي، تاريخ مكة، دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الرياض، مكتبة العبيكان، 1999، ج2.
- أ. موسل، شمال الحجاز، ترجمة: عبد المحسن الحسيني، الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1952.
- أيوب صبري باشا، مرآة جزيرة العرب، ترجمة: احمد فؤاد متولي، الصفصافي أحمد المرسي، القاهرة، دار الآفاق العربية، 1999.

- جمال حمدان، سيناء في الاستراتيجية والسياسة والجغرافيا، القاهرة، مطبعة أطلس، 1993.
- حسين إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة، المطبعة الاميرية، 1932.
- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1987.
- حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، (د.م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- سعد بن عبد العزيز الراشد، درب زبيدة طريق الحج من الكوفة الى مكة، في: علي إبراهيم الغبان وآخرون، دليل معرض (طرق التجارة القديمة روائع آثار المملكة العربية السعودية)، باريس، (د.مط)، 2010، ص417.
- سليمان عبد الغني مالكي، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، الرياض، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، 1987.
- سميرة فهمي علي عمر، إمارة الحج في مصر العثمانية 923- 1213 هـ/ 1517- 1798م، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية، 2001.
- سيد عبد المجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، جدة، مطابع دار البلاد،1981.
- صبري العدل، تأريخ سيناء الحديث (1869- 1917)، (د.م)، (د.مط)، 2004.
- صفاء حافظ عبد الفتاح، الموانئ والثغور المصرية من الفتح الاسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، دار الاشعاع للطباعة، (د.ت).
- عبد العزيز إبراهيم العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، دراسة تاريخية لحركة الجهاد الاسلامي من عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى اواخر العهد العثماني، الرياض، دار اشبيليا، ط3، 2000.
- علي بن إبراهيم الغبان، طريق الحج المصري، في: علي ابراهيم الغبان وآخرون، دليل معرض (طرق التجارة القديمة روائع آثار المملكة العربية السعودية).
- مطلق البلوي، العثمانيون في شمال الجزيرة العربية 1326- 1341هـ/ 1908- 1923م، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2007.
- نعوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق وتقديم: ابراهيم ابو سليم، بيروت، دار الجيل، 1981.
- _____، تأريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها، بيروت، دار الجيل، 1991.

خامساً المراجع باللغة الانكليزية:

- Abdul Aziz Al-Shinnawy، the Islamic Opening، Translated by: Heba Samir Hendawi، Egypt، Umm Al - Qura for Translation، Publishing and Distribution، 2002.
- Darrag، Ahmad، L Egypt sous le Regne de Barsbay (826-841، 1422- 1438)، Damas، 1961.
- Sami Saleh Abd Al- Malik، the Khans of The Egyptian Haji Route in the Mamluk and Ottoman Periods.
- Shaw، S.J.، the Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt، 1517- 1798، Princeton، N.J.، 1962.

سادساً: البحوث والدراسات المنشورة:

- سامي صالح عبد المالك البياضي، درب الحاج المصري همزة وصل غرب العالم الإسلامي بالحرمين الشريفين (دراسة تاريخية- اثارية)،بحث مقدم إلى الندوة الكبرى المقامة بمناسبة اختيار مكة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 1426هـ، المحور التاسع الرحلات وأثرها في العالم الإسلامي، مكة المكرمة، مطابع جامعة ام القرى، 1426هـ/ 2005م.
- ـــــــ، الموروث التاريخي في خدمة الاكتشافات الآثارية: الواقع والمأمول طريق البريد والحاج المصري في سيناء أنموذجاً ثمانية عشر عاماً من البحث والتنقيب في مجاهل سيناء.
- سليمان عبد الغني مالكي، طرق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامي الى منتصف القرن السابع الهجري، الدارة (مجلة)، المملكة العربية السعودية، س1، ع1، 1984.
- محمد محمد التهامي، الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية، الدارة (مجلة)، المملكة العربية السعودية، العدد الاول،س11، يونيو، 1985.
- نهى عبد الحافظ عبد العزيز، الأهمية التاريخية لميناء عيذاب الاثري.

طريق الحج المصري عبر عيذاب من القرن الخامس إلى نهاية القرن الثامن الهجري

أ. محمد بن نوح بن ثامر العصّامي

مستخلص

هدف البحث إلى التعريف بالحجاج المسلمين القادمين من كل حدب وصوب للوصول لمكة المكرمة بشتى الطرق والوسائل، وكان من الحجاج القادمين إليها حجاج المغرب الإسلامي، وأفريقية، والأندلس، فعبروا الصعاب وتكبدوا المشاق في سبيل رؤية الكعبة المشرفة، وكانت الطرق التي تشق أفريقية برغم صعوبة تضاريسها، ووعورة مسالكها، وخطورة السير فيها معبراً للحجاج الذين يخرجون من بلادهم بعد أن يودعوا أحبتهم وداع غير العائد؛ لأن الرحلة محفوفة بالمخاطر التي تكتنفها من كل جانب، فعبر حجاج الأندلس، والمغرب الطرق البحرية للبحر الأبيض المتوسط، والطرق البرية المحاذية له، ومن ثم تصل هذه القوافل إلى ميناء الإسكندرية ثم الفسطاط ومنها إلى جب عميرة مروراً بمحطات عديدة حتى تصل إلى القلزم ومنها يتفرع إلى طريقين: الأول: بري والآخر: بحري، فالبري يتجه إلى أيلة ويلتقي بطريق الشام متجهاً إلى الحجاز ويتفرع هذا الطريق إلى طريقين: الأول: يسير باتجاه المدينة المنورة ومنها إلى مكة، والثاني: يسير بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر دون المرور بالمدينة متجهاً إلى مكة، وأما الطريق البحري فيبدأ من السويس على البحر الأحمر حتى ميناء الجار، ومنها براً إلى المدينة ومنها إلى مكة.

أما الطريق الثاني: فعندما يصل الحجاج إلى الفسطاط يتجهون عبر النيل إلى أسيوط مروراً بمحطات ومراكز على ضفتي النيل حتى قوص، ثم يتجهون إلى الصحراء الشرقية، ومنها إلى عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وهذا الطريق فيه طريقان: الطريق الأول: من إخميم إلى عيذاب، والثاني: يسير عبر النيل إلى أسوان ومنها يخرج عبر الصحراء إلى عيذاب، ومن ثم يبدأ الجميع في ركوب البحر الأحمر إلى جدة عبر رحلة تنتابها المشاق، وكان لاستخدام الطريق الجنوبي

المعروف "بطريق عيذاب" أسباب منها؛ الشدة العظمى في زمن المستنصر الفاطمي، ولوجود الصليبيين في الشام وقطعهم طريق الشام، وكان طريق الحج طريقاً للتجارة. كان لهذه الطرق التي تخرج من مصر مراكز ومحطات يستقر فيها الحجاج والتجار للراحة والتزود، ومن ثم التحرك نحو محطة أخرى حتى يصلوا إلى عيذاب، ويتخلل هذه التوقفات: أعمال تجارية، وعلمية، واجتماعية، وحلقات علم، وإيجازات علمية. وكانت تُقدَّم خدمات للحجاج من قبل الدول التي تحكم مصر، وقدم المحسنون خدمات أيضاً وقد كان لصلاح الدين الأيوبي أثر في ذلك العمل الخيري، حدث في بعض السنين أن توقف الحج لأسباب داخلية وخارجية؛ وأبرزها القحط الذي ضرب الحجاز. ويتعرض الحجاج في هذا الطريق – وأقصد طريق عيذاب – إلى مشكلات أمنية تتعلق بقطاع الطريق مما يتطلب من الدولة أن تجهز حملات تأديبية، وحماية على الطريق بل ومحاولة ترضية مالية، أو عينية لبعض القبائل المستقرة على الطريق، مقابل عدم الاعتداء والحماية للحجاج والتجار، وقد قام الصليبيون بالهجوم على عيذاب والسيطرة عليها وقتل أعداد غفيرة من الحجاج والتجار وتخريب البلاد؛ لأن التجار والحجاج تركوا طريق الشام خلال الفترة تقريباً من 450هـ–666هـ وضعف المردود الاقتصادي لقطعان النصارى في الشام، فعندما ترك الحجاج المغاربة، والأندلسيين، والأفارقة، والمصريون طريق الشام، وسلكوا الطريق الجنوبي عبر عيذاب شعر الصليبيون أن خطوط التجارة ستمتنع عن الوصول إلى أيلة، ولذا قاموا بالهجوم على عيذاب أملاً في إثنا التجار عن سلوك هذا الطريق، وكان الحجاج قد استعملوا وسائل التنقل في مصر تحديداً والبحر الأحمر ومنهم من يستخدم السفن النهرية في النيل للوصول إلى أقرب محطة لجهة عيذاب، ومنهم من يسير على الطريق المحاذية للنيل على الإبل، ومنها إلى عيذاب، ومن ثم يتجمعون في ركوب الجلاب في البحر الأحمر. وكان للحجاج آثار إيجابية سواء أكانت ثقافية، أو دينية، أو سياسية، أو اقتصادية على مصر عموماً وطريق الحج خصوصاً، وقد نشأت علاقات اجتماعية بين الحجاج القادمين والمصريين وحدثت بينهم حالات مصاهرة نتج عنها امتزاج للعناصر الإسلامية، واستقر أناس من الحجاج في مصر وأفادوا كثيراً.

مفاتيح: حجاج المغرب الإسلامي – رحلة حج – طرق – مشكلات أمنية – خدمات – وسائل نقل – آثار الحجاج

Abstract

Muslims Pilgrims Who Come From all over the World Aimed to Reach Makkah by all Mean. Those Pilgrims Were Coming From Islamic Occident، Africa، Andalus (Spain) and they Faced Difficulties to Watch the Holy Kaaba. The Roads in Africa Which Were the Pilgrims Way Were So Mountainous and Sharp. They Were Dangerous for the Pilgrims Who leave their Countries After they Farewell their Relatives and Lovers as if they Wouldn't Return. The Journey is Full of dangers from all Sides. The Pilgrims from Andalus (Spain) and Morocco Crossed the Mediterranean and its Coasts. Then These Caravans Reach Alexandria then Pavilion and then to Omaira. Until they Reach Red Sea Then it Forks in to two Ways One by Land and the Other by Sea. The Overland Way trends to Elah City. and Meets Levant Way and then to Hejaz. This Road Forks into two ways. The First Goes Towards Madinah and then to Makkah. The Second Goes Past the Eastern Coast of the Red Sea Without Passing through Madinah and Directly to Makkah.The Sea Way Begins from Suez on the Red Sea to Jar Port and then by Land to Madinah and then to Makkah. The Second Road; When Pilgrims Reach Pavilion، they trend Across the Nile River to Asyut Passing Many Cities on the Nile Coast Until Qaws. Then They head to the Eastern Desert. After That، they go to (Aithab) on the Western Coast of the Red Sea. This Road has two ways: The First From Ekhmim to Aithab، The Second Goes Across the Nile to Aswan and then to Aithab Through the Desert. Next، They All go tothe Red Sea to Jedda in an exhaustingjourney. There Were Some Reasons For Using The Southern Road (Aithab Road) Suchas; The Hard Era of Al-Mustanser Al- Fatimiand The Crusaders in Al-Sham and They Waylaid The Roads and the Pilgrimageroad was the Trade road. The roads which began from Egypt Centers and Stations Where Pilgrims and Traders Stopped There to Rest and got Their Needs. Then They Moved to the Next Centre or Station until Aithab. During These Stops، There

Were Trading، Scientific، Social and Discussion Chances. The Governments in Egypt Used to introduce Aids and in Services to the Pilgrims. Also Benefactors Introduced Services. Salahuddinhelped a lot in this Charity. Sometimes the Pilgrimage Stopped According to Inner and Outer Problems Which Poverty in Hejaz Was one of These Problems. Pilgrims Faced Security Problems on this Road (Aithab) and this Required Raiding and Some Times Giving Money to The TribesSettlingalong The Road in Order Not to Attack and to Protect the Pilgrims and Traders. The Crusaders Attacked (Aithab)، Controlled it and Killed Great Numbers of Destroyed The Countries. Because The Pilgrims and Traders Quit Sham Road Between (450-699)،The Income Decreased. When the Moroccan، Spanish، African and Egyptian Pilgrims Quit This Road and They Took The Southern Road Across (Aithab). The Crusaders Thought That The Trade Wouldn't Reach Ealh City، so They Attacked Aithab Hoping to Prevent Pilgrims From Taking This Road. Pilgrims Had Used The Means of Transport Especially in Egypt and The Red Sea. Some Used The Ships in The Nile to Reach The Nearest Station to Aithab. Some Rode Camels and Walked The Land on The Nile Coast and to Aithab. Then They All Gather in The Red Sea. Pilgrims Affected Positive on Culture، Politics، Religion، and Economics in Egypt in General and The Pilgrimage Road Specifically، There Were Social Relation Ship Between Pilgrims and The Egyptians and Affinity Which Resulted Mixture For Islamic Elements، Some، Pilgrims Settled in Egypt and They Benefited alot.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأهل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين وأتباعه على الحق والحقيقة إلى يوم الدين أما بعد:

فإن مكة المكرمة بقعة مقدسة للمسلمين أجمعين، وهي أطهر أرض وأشرف مكان، وعندما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة وقف ينظر لمكة ويقول: " علمت أنك خير أرض الله، وأحب الأرض إلى الله عز وجل، ولولا أن أهلك

أخرجوني منك ما خرجت"[1]، ومن مكة بُعث خير البشر بالنور المبين داعياً إلى الله ومنذراً الناس.

وقد عرف المسلمون قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها فضل هذه البقعة فضربوا أكباد الإبل إليها لأداء فريضة الحج التي افترضها الله عليهم كما أخبر به النبي صل الله عليه وسلم في قوله: " إن الإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت " [2].

وقد عرف المسلمون الطرق المؤدية إلى الديار المقدسة من أماكن سكناهم وأخذوا في سلوكها ذهاباً وإياباً، وقد تسببت بعض الأحداث على هذه الطرق من إيقاف رحلة الحج على هذا الطريق أو ذاك.

وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يتناول بالدراسة الأحداث التي أدت إلى ترك الطريق الشمالي وسلوك الطريق الجنوبي على الرغم من المصاعب التي تواجههم، كما يتناول ذكر المحطات والمدن والقرى والمنازل، ووسائل نقلهم، لاسيما أن بلاد مصر بموقعها الجغرافي فيها مناطق يمكن ركوب نهر النيل، ومناطق تستخدم الدواب في النقل، وكذلك تنوع التنظيمات الإدارية من خلال تعاقب ثلاث دول على حكم مصر خلال فترة البحث، وكذا التنظيمات التي سنها أهل عيذاب من البِجَاة.

آمل أن يكون هذه البحث مساهمة جادة في إكمال دراسة طرق الحج، حيث قام عددٌ من الباحثين بدارسة طريق الحج الشامي والعراقي واليمني بفروعها المتعددة، وآمل أن يكون هذا البحث مكملاً لدراسة طرق الحج.

([1]) الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ/ 2001 م، ج31، ص 13، حديث رقم 18717.

([2]) الإمام مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص 45، حديث رقم 16.

التمهيد وفيه ثلاث مباحث:

لقد ارتبطت كافّة الأقطار والأمصار الإسلامية بمكّة المكرمة والمدينة المنوّرة،لأداء فريضة الحجّ، والعمرة وزيارة المشاعر والأماكن المقدسة، وذلك بأربعة طرق رئيسة: طريق العراق وما إليه من ناحية الشرق، وطريق الشام، وطريق اليمن، وطريق مصر وما إليها من أفريقية جنوباً وغرباً، وبلاد الأندلس[1].

والطرق بطبيعة الحال، حسب الطبيعة الجغرافيّة والتضاريسيّة التي تمرّ بها، فمنها: البريّة، والبحريّة، والنهريّة، وطرق الحجّ تشتمل على هذه الأنواع من الطرق جميعاً، وإن اختلفت في ذلك من إقليم إلى آخر.

ومنذ فجر الإسلام نالت الطرق عامّةً وطرق الحجّ خاصّةً اهتمام الخلفاء والولاة، والعلماء والأعيان، من ذوي الشأن واليسار، فاعتنوا بها، ولاسيما الطرق البريّة، فهي الغالبة في البلاد العربيّة والإسلاميّة، وذلك بإقامة الجسور والقناطر على الأودية والأنهار التي تعترض الطرق، وبحفر الآبار لتأمين المياه، وإقامة مراكز ومحطّات استراحة، أُنْشئ فيها منازل ومنشآت ومساجد،إضافةً إلى تأمين حراسة مواكب الحجّ، بحيث يرافقها فرسان لحمايتها من اللصوص وقطّاع الطرق وأحياناً يجرّد الحكّام حملاتٍ عسكريّة لملاحقتهم والإيقاع بهم، وفي هذا الجانب كثيراً ما كانت السلطة الحاكمة تكلّف القبائل التي يمرّ طريق الحجّ في ديارها بحماية قافلة الحجّ، و يُؤخذ عليها تعهّدٌ بتأمين سلامة الحجّاج، وعدم التعرض لهم بسوء، وأحياناً كانت السلطة تدفع مبالغ ماليّة لزعماء تلك القبائل مقابل ذلك، وقد يضطر الحجّاج لدفع ما يطلبه هؤلاء الزعماء وقبائلهم مقابل الأمان، وكان لكّل قافلة أمير – أمير الحجّ – يُكَلَّفُ بالقيام بأمورها وتدبير شؤونها، والمهمّ في ذلك سلامة الطريق [2].

([1]) الجزيري: عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن محمد (1295هـ)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكّة المكرمة المعظّمة، المطبعة السلفّية، القاهرة، 1384هـ هـ، ص 447، وما بعدها.

([2]) آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1360 هـ، 1941م، ج 2، ص70 – 73، الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ص 87 –89، سعيد عبدالله القحطاني: تجارة الجزيرة العربيّة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، التاسع والعاشر للميلاد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، 1424هـ، ص 94 –100.

وكذلك نالت الطرق البحريّة والنهريّة الاهتمام اللازم، ببناء السفن، والمراكب وإنشاء الفرض(الموانئ) وحراسة سفن الحجّ من القراصنة، فبعض طرق الحجّ كانت مراحلها تشتمل على أنواع الطرق الثلاثة، البريّة والبحريّة والنهريّة، ولاسيما طريق الحجّ المصري الجنوبي عبر عيذاب.

وطرق الحجّ كانت – في الوقت نفسه – طرقاً للبريد، والقوافل التجاريّة، التي كثيراً ما كانت ترافق قوافل الحجّ، ممّا ساعد على ازدهار هذه الطرق، حيث نشأت عليها المحطّات والمراكز التجاريّة، كما نشأ إلى جانبها قرى ومدن آهلة بالسكان، ومنها ما كان على شواطئ البحار والأنهار[1].

ومن أهمّيّة طرق الحجّ وأثرها في حياة الأمّة الإسلاميّة ؛ ما كان من آثار الرحّالة والعلماء الذين رافقوا قوافل الحجّ، فيما كتبوا عن طرق الحجّ والبلدان والأماكن التي تمرّ بها، فوصفوها وصفاً حيّاً في مشاهداتهم، وتحدّثوا بالتفصيل عن أحوالها وظروفها، في كتب رحلاتهم، فكان ذلك جانباً مهمّاً في الحركة العلميّة، كما كان لقوافل الحجّ دورٌ مهمٌّ في هجرات الأفراد والجماعات بين الأمصار الإسلاميّة، لأسباب متعدّدة، وكان منها هجرات كثيرٍ من العلماء وطلبة العلم، الذين كانوا يهاجرون مع قوافل الحجّ.

ولكنّ طرق الحجّ لم تكن على هذه الصورة أو الحالة من الأمان في كلّ العصور والعهود، فقد شهدت ظروفاً وأحوالاً خلاف ذلك، من ضياع الأمن وكثرة المخاطر، والمصاعب، وفقدان الماء في المفازات البعيدة، وانتشار اللصوص وقطاع الطرق وقراصنة البحار، بل ظهرت عصابات وجماعات صارت تفرض ضرائب وإتاوات على السلطات الحاكمة وترغمها على ذلك سنويّاً، وأحياناً تأخذها من الحجّاج مباشرةً، بالإضافة إلى غلاء الأسعار، وجشع أصحاب المراكب البحريّة [2]، وسوى ذلك، ومنذ أن بدأت الخلافة العباسيّة تضعف في عهودها الأخيرة، تقسّمت الدولة

([1]) آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ج 2، ص 342، أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلاميّة والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1421هـ 2000م، ص 138 –146 وما بعدها.

([2]) القلقشندي: أحمد بن علي (821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج 3، ص 385 – 386.

الإسلاميّة وأصبحت دويلات وإمارات عديدة، ودخلت في صراعات وحروب مزّقت الأمّة الإسلاميّة،فكانت تظهر دول وتزول دول، وتزامنت تلك الظروف والمتغيرّات السياسيّة مع هجمات الصليبيين على بلاد الشام، وكان بعد ذلك اجتياح المغول للبلاد الإسلاميّة، أيّام المماليك فتصدّوا لهم، وبعد ذلك سيطر العثمانيوّن على العالم الإسلامي، بما فيه البلاد العربيّة [1].

كان لتلك الأحداث والظروف السياسيّة تأثيرٌ مباشر على طرق الحجّ فقد شهدت أحوالاً مختلفة بين الأمن حيناً، والخطر حيناً آخر،تبعاً للأوضاع السياسيّة وصراعات الدول والجماعات المختلفة في البلاد الإسلاميّة، وتضارب أطماعها وأهدافها، وكان الحجاز هدفاً رئيساً لها، لوجود الحرمين الشريفين لما لهما من شأنٍ في حياة المسلمين جميعاً.

والهدف هنا إلقاء الضوء على طريق الحجّ من مصر إلى الحجاز وخاصّة الطريق الجنوبي عبر عيذاب، والعوامل المؤثّرة فيه،قبل القرن الخامس الهجري.

المبحث الأول: طُرق الحجّ من مصر إلى الحجاز قبل القرن الخامس الهجري:

تميزت مصر بموقعها الجغرافي بين قارات العالم القديم، أفريقية وآسية وأوربا، بحدودها المعروفة فمن الشرق يحدّها البحر الأحمر، ويصلها بالجزيرة العربيّة، كما أنّها تتصل بها وببلاد الشام برّاً عبر شبه جزيرة سيناء، وبذلك فهي تتصل بالمشرق الإسلامي عامّةً، وعبر خليج عدن وبحر العرب والمحيط الهندي ببلاد الهند والسند والصين، وجنوب شرق آسية، ويحدّها شمالاً البحر الأبيض المتوسّط وعبره تتصل ببلاد الشام، وأوربا، والمغرب العربي ومن ثم بالأندلس عبر موانئها، على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، وتتصل مصر من جهة الغرب ؛ بشمال وغرب أفريقيّة، وتتصل بتلك الجهات بحراً من ميناء الإسكندريّة إلى موانئ المغرب على المحيط الأطلسي، ومن ثمّ إلى بلاد الأندلس، ذلك ما جعل مصر ترتبط بالحجاز وبكّل الأقطار الإسلامية، منذ أن فتحها المسلمون على يد عمرو بن العاصτ سنة (20هـ)

([1]) محمد أحمد محمد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1425هـ 2004م، ص 242.

على الأرجح[1]، في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطّاب τ فكانت أهم الولايات الإسلاميّة، نظراً لأهمّية موقعها الجغرافي، فهي همزة الوصل بين قارات العالم القديم آسية وأفريقية وأوروبا، وبحكم موقعها الجغرافي، وتضاريسها، فهي تتمتع بشبكةٍ من طرق المواصلات، البريّة والبحريّة والنهريّة، تصلها بمختلف البلدان من كلّ الجهات، وبطبيعة الحال قامت على هذه الطرق العديد من المدن والموانئ والمحطّات والمراكز التجاريّة، على شواطئ البحرين الأبيض المتوسّط والأحمر، ونهر النّيل، وعلى الطرق البريّة، وذلك ممّا أدّى إلى ازدهار التجارة في مصر داخليّاً وخارجيّاً، بل وسيطرتها على طرق التجارة ما بين الشرق والغرب، وبخاصّة طرق التجارة العالميّة، من آسية إلى أوروبا، ولاسيما في عصر المماليك [2].

أمّا طرق الحجّ من مصر إلى الحجاز فقد بدأت منذ أصبحت مصر ولايةً إسلاميّة، وفي العصور التالية كان هناك طريقان رئيسان لقوافل الحجّ والتجارة من مصر وما إليها في أفريقية والأندلس، إلى الحجاز:

الطريق الأوّل[3]: من داخل مصر،حيث تنطلق القوافل من مدينة الفُسْطَاط[4]، باتجاه الشرق وأوّل منزلٍ على هذا الطريق يُعرف باسم جُبُّ عُمَيْرَة [5]،

---

(1) البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (297هـ) فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م، ص 214.

(2) محمد أحمد محمد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 291.

(3) ناصر خسرو: أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي (481هـ)، سفر نامة، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 1983م، ص 86،الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ص 449 –451.

(4) الفُسْطَاطِ: بضم الفاء وكسرها وتسكين السين، مدينة في مصر، وتُعرف أيضاً بمدينة (مصر) اختطها عمرو بن العاص τ بعد فتح مصر، وموقعها بين النّيل وجبل المقطّم. (ياقوت الحموي:شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (626هـ)،معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ج6، ص 434–437، المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر (845هـ)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار،دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ، ج1، ص 28).

(5) جُبُّ عُمَيْرَة: نسبةً إلى عُميرة بن تيم بن جزء التميمي، يتجمّع فيه الحجاج لينطلقوا بعده باتجاه الحجاز، وتعرف اليوم باسم البركة بمحافظة المنوفية في الشمال الشرقي من القاهرة. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 28).

وفي هذا المنزل يتجمّع الحجّاج بعد خروجهم من الفسطاط، وبعده القَرْقَرَةُ، وعَجَرْوَدُ، ومن ثمّ إلى القُلْزُم[1]، وهي أهمّ محطّةٍ على هذا الطريق، ومنها يتفرّع إلى طريقين: الأول برّي، والآخر بحري.

1. الطريق البرّي يتجه إلى أَيْلَة[2]، وهناك يلتقي بطريق الشام إلى الحجاز، ويتفرع إلى طريقين:الأول: يسير باتجاه المدينة المنوّرة ومنها إلى مكّة المكرمة.

والثاني: يسير بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر، دون المرور بالمدينة المنوّرة، فيمرّ بالجُحْفَة، وعُسْفَان، إلى بطن مَرّ ، ومنه إلى مكّة المكرمة.

2. الطريق البحري، يبدأ من القلزم عبر البحر الأحمر بدءًا من خليج السويس، حتى ميناء الجار[3]، على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ومن ثم برّاً إلى المدينة المنوّرة ومكّة المكرمة، وقد تسلك السفن إلى ميناء جدّة ومنه إلى مكّة المكرمة.

والطريق الثاني: في الجهة الجنوبيّة من مصر، ويبدأ من القاهرة أو الفسطاط عبر النّيل فأَسْيُوط، مروراً ببعض المراكز على ضفّتي النّيل، أهمّها إخْميم، وإلى قوص، ومنها يبدأ الطريق إلى عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر.

وهناك طريقان أيضاً، يتفرعان من النّيل إلى عيذاب:

الأول: يخرج من إخميم إلى عيذاب.

والثاني: يستمر عبر النّيل إلى أُسْوان[1]، ومنها يخرج عبر الصحراء إلى عيذاب، ويبدأ القطاع البحري من ميناء عيذاب عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدّة.

([1]) القُلْزُم: مدينة قديمة من أعمال مصر، عند رأس خليج السويس، وهي ميناء مهم، وكان البحر الأحمر يحمل اسمها (بحر القُلْزُم). (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج7، ص 80 – 81).

([2]) أَيْلَة: عند رأس خليج العقبة ممّا يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأوّل الشام، ويلتقي فيها حجّاج الشام ومصر. (المصدر السابق: ج 1، ص 232 – 233).

([3]) الجار: ميناء كان على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، ترفأ إليه السفن من أرض الحبشة ومصر، ومن البحرين والصين، وفي الجار منبر، وهي قرية كبيرة آهلة بالسكان، وأهلها تجار، وفيها قصور كثيرة، ونصف الجار في جزيرة من البحر ونصفها في الساحل، بحذاها جزيرة في البحر وهي ميل في ميل، لا يُعبر إليها إلاّ بالسفن، وهي مرفأ للحبشة خاصة يُقال لها قراف. (السُّلَميّ: عزّام بن الأصبغ (مات في القرن الثاني الهجري)، كتاب أسماء جبال تهامة وسكّانها، ص 428 – 429هـ من: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، بيروت، 1411هـ 1991م، مج 2، ص 419–472، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 22).

لقد كان الطريق الأوّل من شمال مصر عبر القلزم وأيلة، هو طريق الحجّ المصري، منذ أن أصبحت مصر ولايةً إسلاميّة، وقد اهتمّ الخلفاء والولاة – في مختلف العهود – بسلامة قوافل الحجّ إلى الحجاز، فعملوا على توفير ما يلزم، من إنشاء محطات ومنشآت يتوفّر فيها الماء،كما قام حكّام مصر بحفر الآبار، وبناء المساجد، والمنشآت العمرانيّة المناسبة لإقامة الحجّاج في فترات الاستراحة والتزوّد بالماء، وكان ذلك محلّ اهتمامهم.

على أنّ الجانب الأهم الذي عني به حكّام مصر هو آمن الطريق، فكان من إجراءاتهم الأمنيّة تجريد حملاتٍ عسكريّة لملاحقة اللصوص وقطّاع الطرق، الذين كانوا يترصّدون قوافل الحجّ، وكثيراً ما كانت ترافق قافلة الحجّ قوّة عسكريّة لحمايتها، إضافة إلى دفع مبالغ ماليّة للقبائل التي يمرّ بها طريق الحجّ، وأحياناً لشخصيّات أو جماعات معيّنة، بسبب بعض الظروف والأحوال.

أما الطريق الثاني: في جنوب مصر – طريق عيذاب – فقد كان قبل القرن الخامس الهجري طريقاً تجارياً نشطاً، حيث كانت عيذاب ميناءً تجاريّاً مهمّاً لمصر على البحر الأحمر، ولاسيّما بعد أن توطّد حكم الفاطميين في مصر[2].

وقد أخذت قوافل الحجّ المصري تسلكه، منذ أواخر القرن الرابع الهجري، بسبب اضطراب الأمن على الطريق الشمالي، فأخذ شأن القلزم يضمحل، حتى أنّ الحاكم الفاطمي الحاكم بأمر الله (386هـ 411هـ) أعفى أهل القلزم وأصحاب المراكب من المكوس والضّرائب، تشجيعاً لارتيادها، في محاولة لاستعادة نشاطها[3].

وعلى ذلك فإنّ قوافل الحجّ – في هذه الفترة – كانت تسلك الطريقين، حسب الظروف والأحوال الأمنيّة، وذلك حتّى منتصف القرن الخامس الهجري، حيث تحوّلت

([1]) أُسْوان: بضم الهمزة وسكون السين، مدينة على الضفّة الشرقية للنّيل في آخر صعيد مصر، وأوّل بلاد النوبة، يُذكر أنّها كانت محصّنة، ويقابلها وسط النّيل جزيرة فيها مياه وأشجار، كأنّها حديقة.(ناصر خسرو: سفر نامة، ص 116– 117، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 156–157، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 365).

([2]) اليعقوبي: البلدان، ص 94.

([3]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 393.

قوافل الحجّ، وقوافل التجارة إلى طريق عيذاب جنوباً، بصورةٍ نهائيّة، وهُجر الطريق الشمالي لمدّة قرنين من الزمان[1]، على ما سيتبيّن لاحقاً.

المبحث الثاني: موقع عيذاب الجغرافي وأحوالها السياسيّة قبل القرن الخامس الهجري:

تقع مدينة عَيْذابَ على الساحل الغربي للبحر الأحمر،بين ميناء القصير وسواكن، وهي من أشهر المواني‌ء على البحر الأحمر وتقع قبالة جدة، وقد اختلف الباحثون في تحديد موقعها، فبعضهم يحدّدها قرب دائرة عرض 21– 22ْ شمالاً، وخط طول 28 – 36ْ شرقاً[2]، بينما يحدّدها آخرون – على وجه التقريب – إلى الجنوب من خرائب (برانس) القديمة، وهذه " تقع على خط عرض 24ْ أو 22.5ْ قريباً من رأس بيناس الحاليّة "[3].

وعلى ذلك فإنّ موقع عيذاب على ساحل البحر الأحمر في الجهة الشرقيّة الجنوبيّة من الصحراء الشرقيّة بمصر، فالمنطقة التي خلفها غرباً إلى النّيل وإلى الجنوب والجنوب الغربي منها كلّها صحراويّة، و بها مراعٍ واسعة، وخلقٌ كثيرون يُسَمَّوْنَ البِجَة [4]، وأمّا البِجَة، سكّان هذه المنطقة، فقد عُرِفوا منذ القدم بهذا الاسم،

([1]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 374، ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي(ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1402هـ 1982م، ج1، ص 20.

([2]) سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافيّة لدروب الحج، دار تهامة، ط1، جدّة، 1401هـ 1981م،ص 159.

([3]) أحمد درّاج: عيذاب من الثغور العربية المندثرة، مقال بمجلة نهضة أفريقيا، العدد التاسع والعاشر، يوليو وأغسطس، 1958م، ص 52– 56.

([4]) البِجَة: قبائل تسكن الصحراء الشرقية جنوبي مصر، وهم من السكان الضاربين في القدم في هذه المنطقة، وقد اختلف المؤرخون في نسبتهم فبعضهم نسبهم إلى حام بن نوح، وآخرون قالوا إنهم صنف من الحبشة، وقال آخرون إنهم من بني فزارة، وقيل إنهم هم البقة المدونون على الآثار المصرية، ويمكن الترجيح أنهم يرجعون إلى حام أو إلى كوش بن كنعان.(ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (حوالي 280هـ) المسالك والممالك،دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1408هـ/1988م، ص 92، التجيبي: القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (730هـ)،مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور،الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1965م، ص208).

واختلف المؤرّخون في أصولهم، ولعلّ أرجح الآراء أنّهم من القبائل الحاميّة، وأنّهم من السودان، وامتزجوا بأعراقٍ أخرى، عربيّة، ومصريّة قديمة، وحبشيّة، ونوبيّة [1].

والبِجَة قبيلة بدائية، بعيدون عن العمران والحضارة، والحياة المدنيّة، وهم يعتمدون على تربية المواشي، والذين كانوا في المنطقة حول عيذاب إلى سواكن كانوا يعملون في البحر، وعُرِفتْ سفنهم بالجلاب، وذلك حين أصبحت عيذاب ميناءً تجارياً هاماً، وكان لعيذاب – من حيث موقعها – أهمّيّة كبيرة في عصري الأيوبيين، والمماليك، فقد ظلّ طريق الحجّ عبرها قرنين من الزمان، وكان طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب، والشريان الوحيد بين مصر والحجاز.

المبحث الثالث: أسباب تحوّل حجّاج مصر والمغرب وأفريقية والأندلس إلى الطريق الجنوبي عبر عيذاب:

كان طريق الحجّ المصري – على نحو ما سبق وصفه – في شمال مصر، وكان مزدهراً خلال القرون الهجريّة الأربعة الأولى، وكانت مدينة القلزم بمينائها على رأس خليج السويس أهم محطّةٍ على هذا الطريق، ولكن شأن هذا الطريق بدأ يضعف منذ أواخر القرن الرابع الهجري، بما فيه محطّة القلزم، وذلك لأسبابٍ تعود جميعها إلى ضعف سلطة الدولة الفاطميّة، عسكرياً واقتصادياً، فلم يعد بإمكانها تسيير قوات لحماية قافلة الحجّ، لعجزها عن دفع تكاليفها، فأصبح طريق الحجّ من شمال مصر إلى القلزم محفوفاً بالمخاطر، ممّا أدّى في النهاية إلى التحول عنه إلى جنوب مصر عبر عيذاب، وكان من أبرز الأسباب الفعليّة المباشرة:

1- الغارات المتكرّرة التي أخذ يشنّها الأعراب على قوافل الحجّ،سواء في عرض الطريق أو في بعض المحطات والمراكز حينما تسنح لهم الفرصة، ومن ذلك ما كان في عهد الحاكم بأمر الله (386 -411هـ) حيث قامت جماعةٌ من الأعراب بمهاجمة قافلة الحجّ داخل مصر، ونهبت منها كسوة الكعبة، كما تعرّضت قافلة الحجّ المغربيّة لخطر هؤلاء الأعراب عدّة مرات، كما تسلّط الأعراب، على القلزم بالنهب والسلب والتخريب، فأخذ يتجنّبها الحجّاج والتجّار، فلمّا بدأ شأنها يضعف أعلن الحاكم بأمر

([1]) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهيب بن واضح (توفي بعد 292هـ)، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ج1، ص 192.

الله الفاطمي عن إلغاء الضرائب والمكوس التجاريّة فيها، لتشجيع الحجّاج والتجّار على ارتيادها[1]، ولكن دون تأمين وسائل الحماية اللازمة، فكان ذلك من الأسباب الرئيسة لتحوله إلى الجنوب عبر عيذاب[2].

2- الوجود الصليبي في بلاد الشام، وقربه من القلزم وأيلة، فقد كان يشكل خطراً كبيراً ومباشراً على أمن طريق الحجّ المصري، وكان الصليبيّون قد بدؤوا اعتداءهم على ميناء الفرما سنة (546هـ- 1150م)، فذلك من أسباب التحول إلى طريق عيذاب، وظلّ الخطر الصليبي قائماً في عهد الدولة الأيوبيّة (648-564هـ) على ما سيُذكر من اعتداء الأمير الصليبي أرناط، صاحب حصن الكرك، وممّا تقدّم يتبيّن أن طريق الحجّ من مصر إلى الحجاز، قد تحوّل من شمال مصر إلى جنوبها عبر ميناء عيذاب، لأسبابٍ عدّة، ولكنّها جميعاً تعود إلى سبب واحد هو فقدان الأمن، لضعف سلطة الدولة الفاطميّة.

الفصل الأوّل: العوامل المؤثّرة في طريق الحجّ عبر عيذاب:

ظلّ طريق عيذاب مزدهراً ما يزيد على قرنين من الزمان، من بضع وخمسين وأربعمائة، على اختلاف بين المؤرخين [3]،ثم كان التحوّل إلى الطريق الشمالي، بعد أن زالت أسباب التحوّل عنه في العصر المملوكي، في عهد السلطان الظاهر بيبرس[4].

([1]) الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينيّة، بورسعيد، د.ت، ج1، ص 348، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص 388، المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج1، ص 393.

([2]) سبط ابن الجوزي: يوسف بن عبدالله، (654هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، د.ت، ج1، ص 369.

([3]) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج 1، ص 374، القلقشندي: صبح الأعشى، ج 3، ص 465.

([4]) الملك الظاهر بيبرس الصالحي البندقداري، رابع ملوك الترك في مصر، كان في جيش المظفر سيف الدين قطز، حينما انتصر على المغول في معركة عين جالوت سنة 658هـ /1260م، ولما عادوا منتصرين قُتل قطز وتولى الظاهر بيبرس الحكم سنة 658هـ واستمرت سلطنته حتى وفاته سنة 676هـ/ 1277م.(القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 458، ابن تغري بردي:أبو المحاسن جمال الدين يوسف (874هـ)، النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الوطنية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت، ج7، ص 94).

إن الفترة التاريخيّة لطريق عيذاب (موضوع البحث) قد جاءت في إطار تاريخ ثلاث دول تعاقبت على حكم مصر، الدولة الفاطميّة، والدولة الأيوبيّة، والدولة المملوكيّة، بمعنى أن طريق عيذاب قد عاصر هذه الدول الثلاث، وفي الوقت نفسه قد واجهت هذه الدول موجات العدوان الصليبي على البلاد العربيّة الإسلاميّة، وخاصةً بلاد الشام، أيام الفاطميين والأيوبيين، وموجات المغول أيام المماليك، ذلك بالإضافة إلى جماعات ودول أو قوى عربيّة إسلامية في المنطقة، وأشير هنا إلى الأشراف من أمراء مكّة المكرمة والمدينة، وإلى الرسوليين في اليمن[1].

وهذه الدول والقوى السياسيّة، المحليّة في المنطقة، والخارجيّة العدوانيّة الطارئة، كانت جميعاً في حالاتٍ من الصراع السياسي والعسكري فيما بين بعضها البعض، وجميعها كانت تهدف إلى السيطرة على منطقة الحجاز والبحر الأحمر، لأهمّيتها الإستراتيجيّة من الناحية العسكرية والاقتصادية، إضافة إلى أهمّيتها الدينية لوجود الحرمين الشريفين في الحجاز.

وخلال مراحل الصراع كان هناك جملةٌ من (العوامل المؤثّرة في طريق الحجّ عبر عيذاب)، وهذه العوامل منها الإيجابيّة، ومنها السلبيّة.

والمقصود بالعوامل الإيجابيّة ما دفع إلى التحوّل إلى هذا الطريق واستعماله وساعد على ازدهاره، والعوامل السلبيّة خلاف ذلك، أي أن مفهوم الإيجابيّة والسلبيّة – في هذا الفصل – هو بالنسبة لطريق عيذاب، فليس المقصود به العوامل المؤثّرة في أوضاع المنطقة، وذلك واضحٌ من العوامل التي تسبّبت بالتحوّل إلى هذا الطريق، فهي عوامل إيجابيّة في ذلك، ولكنّها في الحقيقة عوامل سلبيّة في أحوال المنطقة، فهي أحداث وأعمال تخريبيّة وعدوانيّة، وبالمقابل فإنّ العوامل التي دعت إلى التحوّل عن طريق عيذاب إلى الطريق الشمالي، هي عوامل إيجابيّة، تتمثل بزوال خطر

---

(1) الرسوليون: نسبة إلى عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية في اليمن، كان نائباً على اليمن ثم تغلب عليها سنة 626هـ على أرجح الأقوال، حارب الأيوبيين للسيطرة على مكة المكرمة، توفي سنة 647هـ/1249م.(الأشرف الرسولي: إسماعيل بن عباس الرسولي (803هـ) طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق: ك.و.ستروستين، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1406هـ/1985م، ص 100).

جماعات الأعراب، والخطر الصليبي، ولكنّها بالنسبة لطريق عيذاب تُعتبر عوامل سلبيّة، من حيث تسبّبت بتركه، ثم هُجرت عيذاب.

وفيما بين التحوّل إلى طريق عيذاب، والتحوّل عنه إلى الطريق الشمالي، هناك عوامل عديدة مختلفة، مؤثرة في ذلك، منها ما يعود إلى ظروف الصراع فيما بين القوى السياسيّة والدول في المنطقة، والمتغيّرات السياسيّة، بشكلٍ عام، ومنها ما يعود إلى طريق عيذاب نفسه، من حيث طبيعته الجغرافية والتضاريسيّة، وظروفه وأحواله الأخرى.

المبحث الأول: العوامل الإيجابيّة:

تتمثل العوامل الإيجابيّة، والمؤثرة في طريق الحجّ عبر عيذاب، بما نتج عن سياسات الدول التي تعاقبت على حكم مصر، في فترة التحوّل إليه، حيث شهدت هذه الدول صراعاتٍ وأحداثاً ومتغيّراتٍ سياسيّة مختلفة، في شمال مصر إلى طريق عيذاب جنوباً، وهذه العوامل – بصفة عامّة – هي عوامل أمنيّة، فقد أصبح هذا الطريق القديم شمال مصر خطيراً، يتعذّر أن تسلكه قوافل الحجّاج والتجّار، ومن ثمّ برزت أهمّيّه طريق عيذاب بين مصر والحجاز، وكلُّ الدول التي تعاقبت على حكم مصر بعد ذلك أولته الاهتمام اللازم، فكان دائماً في حسابات سياساتها الداخليّة والخارجيّة، لأنّه المظهر المهم للاهتمام بشؤون الحجّ، وشؤون الحرمين، وصولاً إلى السيطرة على منطقة الحجاز والبحر الأحمر، لتحقيق أهداف (دينية واقتصاديّة وسياسيّة) ومن ثمّ زعامة العالم الإسلامي، فذلك هدفٌ سعت كلّ الدول التي حكمت مصر إلى تحقيقه.

ذلك بالإضافة إلى العوامل الإيجابيّة المتعلّقة بميناء عيذاب نفسه، الموقع الجغرافي والتضاريس، فذلك من عوامل تحول طريق الحجّ المصري إليه.

1- سياسات الدولتين الفاطميّة والأيوبيّة:

تتصل الدولتان الفاطميّة والأيوبيّة، كلٌّ منهما بالأخرى تاريخياً، من خلال شخصيّة صلاح الدين الأيّوبي، وكلٌّ من الدولتين، الفاطميّة والأيوبيّة، كان لها في حكمها لمصر – بطبيعة الحال – سياسةٌ لتثبيت أركانها، ومدِّ سلطانها في العالم الإسلامي، لتولّي زعامته، فاقتضى ذلك إظهار الاهتمام بشؤون الحجّ، والحرمين

الشريفين، ومن ثمّ تحقيق هدف السيطرة على منطقة الحجاز والبحر الأحمر، ومن هنا كان الاهتمام بطريق الحجّ من مصر إلى الحجاز، والموضوع هنا حول العوامل الإيجابيّة المؤثرة في طريق الحجّ عبر عيذاب، في سياسة كلٍّ من الدولتين الفاطميّة والأيوبيّة، لقد بلغت الدولة الفاطميّة أوج قوتها واتساعها، في عهد المعزّ لدين الله، حيث تم له فتح الشام ومدّ نفوذه إلى الحجاز، وبدأت الدولة الفاطميّة تضعف في القرن الخامس الهجري، منذ سنوات الشدّة العظمى في عهد المستنصر بالله (427–487هـ)، ولا نصل إلى منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلاّ وقد انحسر سلطانها عن الشام أمام الغزو الصليبي، وظهور السلاجقة، فقد احتل الصليبيّون معظم سواحل الشام، وفي عام 492هـ احتلوا بيت المقدس وإزاء هذا الوضع كتب العاضد إلى نورالدين لينقذ مصر من الصليبيين، وجعل له ثلث خراج مصر،فسيّر نور الدين حملةً إلى مصر بقيادة شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين، الذي اختير لمنصب الوزارة خلفاً لعمه[1]، ظلّ صلاح الدين يدبرّ أمور مصر بصفته وزيراً للحاكم الفاطمي العاضد، وفي الوقت نفسه هو تابع لنور الدين ملك الشام، حتى عام 567هـ حيث خلع العاضد وقطع الخطبة للفاطميين، وجعلها للعباسيين في عهد الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله.

أمّا أحوال طريق الحجّ المصري في هذا العصر فإن الفاطميين سعوا إلى ازدهار الطريق ويعود ذلك إلى حالة الأمن التي تحققت، بحماية قوافل الحجّاج والتجّار، حتى أنّهم خصّصوا أسطولاً يتكوّن من خمس سفن خُفِّضتْ فيما بعد إلى ثلاث في البحر الأحمر، وبشكل دائم لحماية ميناء عيذاب والسفن القادمة إليه، وكانت هذه السفن تلتقي سفن تجار الكارم[2]، بين عيذاب وسواكن، لحمايتها من

(1) أحمد فؤاد سيد: تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، 567–648هـ، مكتبة مدبولي ط1، القاهرة، 2002م، ص 77.

(2) تجار الكارم: كان أول ظهور لتجار الكارم في العهد الفاطمي، وهؤلاء التجار ينتسبون إلى بلاد الكانم في أفريقية، وهم مسلمون لا يقبلون غير المسلم في منظومتهم الاقتصادية، وكان محل نشاطهم أغلب بلاد البحر الأحمر والهند وشرق أفريقية، واستمروا لعدة قرون يمارسون التجارة في عملية الاستيراد والتصدير من وإلى البلاد الواقعة في محيط البحر الأحمر والمحيط الهندي، فبرز نشاطهم بشكل جعل حكام مصر يهتمون بهذه الفئة، وعلى ذلك كان نشاطهم سبباً في الاهتمام بهم بشكل كبير وذلك لأسباب عديدة منها أنهم ساعدوا الدولة

القراصنة، وقد وصف الرحالة والمؤرخون حالة الأمان لطريق عيذاب ومينائها، على نحو ما يصفها المقريزي بقوله:" إن أحمال البهار والقرفة لتوجد ملقاةً بها – أي بصحراء عيذاب – والقفول صاعدةٌ وهابطة، لا يعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها... [1].

أما الدولة الأيوبيّة فقد حرص صلاح الدين على استقرار وضع مصر، وذلك هدف أساس، ومن طبيعة الأمور أن يعمل صلاح الدين على تحقيقه، والجانب الآخر في ذلك، هو سياسة صلاح الديّن الداخليّة، ومن هنا كان موقفه من إمارة الكنز، وهي إمارة إسلامية قامت في جنوب مصر، في ظلّ الدولة الفاطميّة، وقد استهدف صلاح الدين القضاء عليها خشية تمرد الكنز عليه، ولا شكّ أن لذلك تأثيراً إيجابياً على طريق الحجّ عبر عيذاب من أفريقية وجنوب مصر باستقراره، وذلك بما للكنز من تأثير في البلاد بحكم علاقاتهم، وكذلك الإصلاحات السياسة والدينيّة لصلاح الديّن الأيوبي، وتمثلت باهتمامه بشؤون الحرمين الشريفين، وبمعاناة الحجّاج من دفع الضرائب وما يلاقونه جرّاء ذلك من عنت وظلم، فقد كان يُؤخذ من الحجّاج ضرائب ومكوس، في ميناء الإسكندريّة، وفي ميناء عيذاب كان على الحجّاج دفع مبلغ (7،5 أو 8) دنانير، وكذلك يترتّب على الحجّاج مكوس في ميناء جدّة، وفي مكّة المكرمة، وكان من يعجز عن الدفع في جدّة يُسجن حتى يفوته موسم الحجّ، عدا سوء المعاملة والضغوطات المختلفة، فقام صلاح الديّن بإسقاط تلك المكوس والضرائب عن الحجّاج، وعوّض أمير مكّة المكرمة عنها،كما خصّص أوقافاً للحرمين الشريفين في مصر والشام، وكذلك عني صلاح الديّن بكسوة الكعبة المشرفة، ولا ننسى أهميّة طريق عيذاب في سياسة صلاح الديّن الاقتصاديّة، وأيضاً العامل

في مواجهة بعض التعثرات الاقتصادية، وأن سلاطين المماليك شاركوهم في أنواع من التجارة وبخاصة التي تأتي من الهند، لذا تبوأ بعض هؤلاء التجار مراتب عليا في المجتمع المصري، فأقرضوا الدولة والسلاطين وبعض من السكان وكأنهم مخازن للأموال، وهم كذلك في كثير من الأوقات، وعُرِف عن هذه الطائفة دقة التنظيم بينهم.(عبدالعزيز بن راشد العبيدي: العلاقات الخارجية لدولة المماليك الأولى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون،(741-693هـ/1293-1340م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، 1405هـ، ص35).

([1]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 373-374.

الإستراتيجي لموقع عيذاب، فقد كانت أهم ثغور مصر على البحر الأحمر بعد أن خُرّبت القلزم وتعطّل طريقها، فاستهدف الصليبيّون عيذاب، وخاصّةً أرناط (Renaud de chatillon) صاحب حصن الكرك في شرق الأردن، فقد كان يتحيّن الفرصة للإغارة عليها وتخريبها، وتعطيل طريق الحجّ والتجارة عبر مصر، وظلّ يحاول ذلك إلى أن واتته الفرصة عام (578هـ- 1182م) فجهّز حملة بحريّة أغارت على ميناء عيذاب.

2- التنظيمات المملوكيّة:

المماليك لغةً: جمع مملوك، وهو العبد الذي يُباع ويُشترى، ويُطلق على العبيد المملوكين اسم الرقيق،من الرّق، والرق العبوديّة والملك، والرقيق يُطلق على المفرد والجمع، من العبيد المملوكين[1].

وعُرِف المماليك – بهذا المعنى – في مصر، وهم من الرقيق الأبيض،من غير العبيد السود، وكانوا يجلبون إلى مصر عن طريق التجار من أسواق النخاسة، وهم من الأطفال من أسرى الحروب، من جنسيّات مختلفة، من العرق الأبيض، لكنهم أكثر ما كانوا من الأتراك، والشراكسة، وكان المماليك يُرَبّون تربيةً خاصّة، تقوم على التأديب، والتعليم الديني، والتربية العسكريّة والفروسيّة، كان آخر سلاطين الأيوبيين توران شاه، قد قُتِل على يد المماليك عام (648هـ-1250م)، بعد معركة المنصورة ضد قوات الحملة الصليبيّة السابعة عام 648هـ-1250م، وذلك لسوء تدبيره وتصرّفه معهم، فتولّت السلطنة زوجة أبيه (شجرة الدّر)، ثمّ تزوجت أتابك الجيش ، عزّالديّن أيبك المملوكي، عام 648هـ[2]، وأرسل زعماء المماليك إلى الخليفة العباسي يطلبون

([1]) ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت، 1401هـ - 1990م، (رقق).

([2]) عز الدين أيبك التركماني، تركي الأصل والجنس، انتقل إلى ملك الملوك الصالح نجم الدين أيوب، فعرف بين البحرية بأيبك التركماني، وترقى حتى صار أحد الأمراء الصالحية وعمله جاشنكيرا، وبعد مقتل الملك توران، صار أيبك أتابك العسكر مع شجرة الدر، تزوجها في 4/29/ 648هـ وخلعت نفسها بعد حكم دام ثمانين يوماً، وحكم عز الدين الدولة من (655-648هـ/ 1250-1257م). (المقريزي: السلوك، ج1، ص463).

منه الاعتراف بشجرة الدرّ سلطانةً على مصر، فأنكر عليهم ذلك، إذ إنّ تولية المرأة لا يقرّها الشرع[1].

وأمّا العوامل الإيجابية المؤثرة في طريق الحجّ المصري عبر عيذاب فإنّها تعود إلى سياسة المماليك الخارجيّة، وخاصّةً في الصراع على منطقة الحجاز والبحر الأحمر، لأهميتها الإستراتيجيّة والاقتصاديّة، وهذا العامل كان له الدور الأساس في التأثير على سياسة جميع الدول التي قامت في مصر، إلاّ أن هذا العامل كان يتمظهر بالعامل الديني، وعلى ضوء ذلك فإنّ هناك عدّة عوامل لها تأثير إيجابي على طريق الحجّ المصري عبر عيذاب، وأهمها:

العامل الأمني؛ والمقصود الأخطار التي تسببت بالتحوّل إلى طريق عيذاب، وخاصّة الخطر الصليبي في بلاد الشام، كان طريق عيذاب لا يزال الشريان الحيوي لمصر، والطريق الوحيد للحجّ المصري إلى الحجاز، وقد اهتم سلاطين المماليك بأمن طريق عيذاب، منذ بداية قيام دولتهم، نظراً لأهمّيّته البالغة، وكان للعامل الاقتصادي أثر إيجابي كبير من حيث الاهتمام بطريق عيذاب، خاصّةً وأنّه أصبح الشريان الوحيد لمصر، ورأينا أنّه كان طريقاً للتجارة العالميّة من أوربا إلى الهند، فكان سبباً لازدهار التجارة المصريّة، بل لازدهار اقتصاد مصر عامة.

ويرتبط العامل الاقتصادي بالعامل السياسي، وكان ذلك واضحاً في سياسة الدولة المملوكيّة منذ بداية قيامها، ولاسيما في عهد السلطان الظاهر بيبرس، وكان من أهمّ هذه العوامل، العامل الديني، وكان له أثر كبير أيضاً في سياسة المماليك ؛ حيث تطلّعوا إلى زعامة العالم الإسلامي، باعتبار أنّ دولتهم هي الراعية لشؤون المسلمين، وقد أخذت على عاتقها الدفاع عن ديار الإسلام، ورأينا أنّهم تصدّوا لهجمات المغول.

3- خصائص ميناء عيذاب:

([1]) انظر تفصيل ذلك عند (عبدالعزيز بن عبدالله بن باز: (1420هـ)، التبرج وخطر مشاركة المرأة للرجل في ميدان عمله، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، ص 34، سلمان بن فهد العودة: حوار هادي مع محمد الغزالي، صدر الإذن بطباعته من الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط1، 1409هـ، ص 56).

من أهم العوامل الإيجابيّة المؤثّرة في طريق الحجّ المصري عبر عيذاب، خصائص مينائها الجغرافية، والتضاريسيّة، والديموغرافيّة.أمّا من الناحية الجغرافيّة، فإن ميناء عيذاب يتميز بموقعه الجغرافي الإستراتيجي، فهو بالنسبة لمصر يقع في الزاوية الشرقيّة الجنوبيّة منها، على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وممّا يزيد من أهميّة موقع عيذاب كونه بين سواكن جنوباً، والقصير شمالاً، وإذا كان ميناء القصير شهد نشاطاً ملحوظاً أحياناً، فإنّ ذلك لا يقلّل من أهميّة عيذاب، على طريق الملاحة البحريّة، وكذلك بالنسبة للقوافل القادمة من البرّ المصري.

وأمّا من الناحية التضاريسيّة، فإنّ ميناء عيذاب يقع في مكان يصلح للملاحة ومرسى السفن، وميزته الرئيسة أن مياهه عميقة، ويخلو من الشعب المرجانيّة التي تكثر في البحر الأحمر، وصلاحيّة المرسى شرطٌ أساس لعمل الميناء، وأمّا من الناحية الديموغرافيّة فإنّ سكّان عيذاب والمنطقة المحيطة بها حتى سواكن، هم من قبائل البِجَة.

المبحث الثاني: العوامل السلبيّة:

كان انتقال طريق الحجّ من شمال مصر إلى الجنوب عبر عيذاب لأسباب أمنيّة بالدرجة الأولى، ولكن ثمّة عوامل سلبيّة، أظهرت أن سلوك القوافل لهذا الطريق كان لظروف اضطراريّة[1]، وممّا يؤيّد ذلك أنّه لمّا زال الخطر الصليبي عاود طريق الحجّ الشمالي نشاطه عبر القلزم وأيلة.

وتتمثل هذه العوامل السلبيّة بعدّة أمور، أبرزها تنافس الدول والقوى السياسيّة في المنطقة على البحر الأحمر ومنافذه، ثم الاعتداءات على الحجّاج، وهي متنوّعة، منها ما كان من اللصوص وقطاع الطرق، ومنها ما كان من القوى السياسيّة في المنطقة، من الصليبين، وأحياناً من أمراء مكّة المكرمة، ويُضاف إلى ذلك طبيعة طريق عيذاب، عبر صحراء واسعة، وأكبر مشكلةٍ كانت تواجه الحجّاج هي ندرة المياه، وقلّة الزاد في كثير من الأحيان، والمشكلة في هذا قلة العمران، وذلك ممّا كان سبباً أيضاً في تشجيع اللصوص وقطّاع الطرق على الاعتداء على قوافل الحجّ، وذلك

(1) خالد بن عبدالكريم حمود البكر:الرحلة الأندلسيّة إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني الهجري إلى القرن السادس الهجري، الرياض، ط1، 1423هـ، ص 183.

رغم اهتمام حكام مصر– عبر العصور– بطريق عيذاب، فلا تُنكر عنايتهم به، ولكن كان هناك عوامل مختلفة خارج نطاق مسؤوليتهم، أو فوق طاقة الإمكانات المتوفرة.

1– تنافس الدول على المنطقة:

ظلّت المنطقة المحيطة بالبحر الأحمر – بخاصّةٍ الحجاز – لقرون عديدة محلّ تنافسٍ بين الدول والقوى السياسيّة في منطقة الشرق، وقد تركّز الصراع على البحر الأحمر، لأهمّية موقعه الإستراتيجي، فمن يستطيع السيطرة على البحر الأحمر عسكريّاً يستطيع أن يتحكم بالحجاز بل بالمنطقة برمّتها، فضلاً عن ارتباط طريق الحجّ به من مصر وما إليها ارتباطاً مصيريّاً، وأمّا أطراف التنافس والنزاع على المنطقة فهم متعدّدون، من دول المنطقة، من حكّام مصر والحجاز واليمن وبلاد الشام، والصليبيين والمغول، أي أن هذا التنافس كان على المستوى الخارجي، والإقليمي، وأحياناً كان على المستوى المحلي في مصر وفي الحجاز، وكان الصراع مع الصليبيين السبب الرئيس المباشر في تحوّل طريق الحجّ المصري نحو عيذاب جنوب مصر، وأمّا في مصر فقد كان لإمارة الكنز – في جنوب مصر – تحكّم بطريق الحجّ حيث يمرّ بنطاق إمارتهم، وكانوا قد أعلنوا استقلال إمارتهم منذ أيّام الشدّة في عهد المستنصر الفاطمي، مستغلّين ضعف الدولة الفاطميّة، ولمّا قامت الدولة الأيوبيّة، وغيّر صلاح الدين نظام الإقطاع،أبدوا ردّ فعلٍ تجاهه، إذ سلبهم كلّ امتيازاتهم، بل قاموا بثورةٍ ضدّه[1]، ومن أحداث النزاع الداخلي في مصر، في العصر المملوكي ؛ تمرّد البِجَة بزعامة الحدربي على سلطة الدولة، مما تسبب بتعطيل طريق الحجّ عبر عيذاب، وذلك في سنة (726هـ)، فسيّر المماليك حملة عسكريّة إلى عيذاب فوقعت في حربٍ معهم، وتعذر الحجّ المصري عبر عيذاب في تلك السنة[2].

وأمّا في الحجاز فكانت الإمارة للأشراف من الأسرة الحسنية، فكانوا يتولّون شؤون الحرمين والحجّ، وكان الأمراء الأشراف في المدينة من الفرع الحسيني، وكان ذلك على تعاقب الدول التي بسطت سيطرتها على الحجاز، وفي سنة (617هـ/

(1) عطية القوصي: تاريخ دولة الكنز الإسلامية،دار المعارف المصرية، ط2، د.ت.، ص 75.

(2) ابن بطوطة: الرحلة، ص 52.

1220م) توفي قتادة، وبدأ النزاع بين ولديه الحسن وراجح [1]، وكان الرسوليون في اليمن قد أخذ شأنهم يتعاظم، وخاصّة بعد وفاة الملك المسعود بن الكامل الأيوبي سنة (626هـ) [2]، فدخلوا طرفاً في النزاع حول إمارة مكّة المكرمة وولاية شؤون الحرمين الشريفين، فكانوا هم والأيوبيّون الطرفين الإقليميين الأقوى في النزاع الدائر في مكّة المكرمة، وفي ظلّ هذا النزاع على المستوى الإقليمي كان النزاع المحليّ قائماً بين الأمراء الأشراف ولاسيما أمراء مكّة المكرمة، فكان بعضهم يوالي هذا الطرف وبعضهم يوالي ذاك،" وكانت القوة وحدها هي التي تشدّ الحسنيين والحسينيين بمكّة المكرمة والمدينة إلى الرسوليين أو الأيوبيين، أو المماليك فيما بعد "[3].

والخلاصة أنّ تنافس الدول على منطقة الحجاز والبحر الأحمر كان له تأثيراتٌ سلبيّة، تتلخّص في الآتي:

1- النزاعات والأحداث الداخليّة في مصر، بين الأيوبيين وإمارة الكنز، وبين المماليك والبِجَة في منطقة عيذاب، وذلك ممّا كان له أثرٌ سلبي على طريق الحجّ المصري عبر عيذاب.

2- الاعتداء الخارجي، وتحديداً اعتداء الصليبيين المباشر على عيذاب، وكان بهدف تعطيل طريق الحجّ، والاعتداء على المقدّسات الإسلاميّة في الحجاز، وكان من ذلك محاولات أرناط الصليبي صاحب حصن الكرك، واعتداؤه المباشر على عيذاب بحملةٍ عبر البحر الأحمر، ومحاولته الوصول إلى المدينة المنوّرة.

3- ومن الخطر المباشر على طريق عيذاب ؛ اعتداء أمير مكّة المكرمة على عيذاب أواخر العصر الفاطمي.

4- وهناك النزاع الدائم على الحجاز، بهدف تولّي شؤون الحرمين الشريفين، وأمور الحجّ، لأهداف دينية واقتصادية وسياسيّة، وكان النزاع بين مختلف القوى والدول

([1]) راجح بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني، تولى إمارة مكة المكرمة أكثر من مرة، وكان بينه وبين أخية حسن نزاع عليها، توفي 654هـ/1256م. (الفاسي: العقد الثمين، ج4، ص 78).

([2]) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6 و ص 272، الخزرجي: علي بن حسن (732هـ)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر، 1329هـ 1911م، ج 1، ص 41-44.

([3]) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصريّة، ص 12.

الإقليميّة والمحليّة، من حكّام مصر، والرسوليين في اليمن، وأشراف الحجاز، فكان لهذا النزاع أثر سلبي على الحجّ بشكل عام، بما في ذلك طريق الحجّ عبر عيذاب.

5- ومن العوامل المؤثرة سلباً على طريق الحجّ عبر عيذاب ؛ تعرّض الحجّاج لخطر اللصوص، بالإضافة إلى الصعوبات والمخاطر الطبيعيّة.

ونظراً لما سبق فإنّ الطريق الشمالي عبر القلزم وأيلة، كان هو الأفضل، بدليل أنهّ لما زال الخطر الصليبي عن بلاد الشام، ووحّد المماليك الشام ومصر أعادوا قوافل الحجّ إليه، وكان ذلك عندما حجّ الظاهر بيبرس فأخرج قافلة الحجّ برّاً إلى الحجاز عبر الطريق السابق عبر سيناء.

2- الاعتداءات على الحجّاج:

كانت الاعتداءات على الحجّاج في مقدّمة العوامل المؤثرة سلباً على طريق الحجّ المصري عبر عيذاب، وتتنوّع هذه الاعتداءات على الحجّاج، من سوء المعاملة، والتعسّف بحق الحجّاج في فرض الضرائب والمكوس الجائرة، بالإضافة إلى الاعتداء على أرواحهم ونهب وسلب أموالهم وأمتعتهم، وسوى ذلك. وفيما يلي أبرز وقائع الاعتداءات على الحجّاج:

أما الضرائب فكانت تفرض على الحجّاج، بدون مقابل، فليس ثمّة وجه حقٍ لها، وذلك في موانئ الإسكندريّة، وعيذاب وجدّة بالإضافة إلى مكّة المكرمة، وأكثر ما كان يعاني من ذلك حجّاج المغرب والأندلس.

أمّا في ميناء الإسكندريّة فكان القائمون على أمر الميناء يأخذون من الحجّاج زكاة كلّ ما معهم، دون تبصّر، ودون تقيّد بشروط استحقاقها، ومنها الحول والنصاب، وكانوا يفتشون الحجّاج، ثم يستحلفونهم إذا كان عندهم غير ما وجدوه عندهم، وذلك كان في العصر الفاطمي وأول الدولة الأيوبية، إلاّ أنّه لا علم لصلاح الدين الأيوبي بهذه الإجراءات التعسفيّة، "ولو علم بذلك على ما يُؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لازال ذلك "[1]، ولمّا علم بذلك فعلاً أبطل جميع الضرائب والمكوس على الحجّاج كافة.

([1]) ابن جبير: أبو الحسين محمد (614هـ)، رحلة ابن جبير، المسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1431هـ 2010م، ص 12.

وكذلك كان الحجّاج يلاقون في صعيد مصر من التجاوز على كرامتهم والتعسف بهم مثلما جرى لهم في الإسكندريّة، وذلك بحجّة أخذ الزكاة أيضاً.

وأمّا في ميناء عيذاب، فتذكر المصادر أنه منذ العصر الفاطمي كانت تجبى الزكاة من الحجّاج، ومن عموم المسافرين الضرائب والمكوس، من سبعة إلى ثمانية دنانير عن كل فرد، مع سوء المعاملة التي يلاقيها الحجّاج من القائمين على أمر الميناء، بالإضافة إلى المكوس التي كان أمراء مكّة المكرمة الأشراف يفرضونها على الحجّاج في ميناء جدّة، ومن لا يدفع من الحجّاج مكسه كان يُسجن حتى يفوته موسم الحجّ، ولذلك نصح ابن جبير بترك هذا الطريق، وسلوك الطريق من قرطاجنة إلى جزر البليار[1] ثم إلى صقلية، ومنها إلى عكا ثم بغداد فالحجاز.

ومن الاعتداء على الحجّاج عبر طريق عيذاب، ما كان من سوء معاملة البِجَة لهم، في الميناء، وفي عمليّة نقلهم في سفن الجلاب، بطريقة تعسفيّة، حتى لكأن الحجّاج مجرّد أشياء لا قيمة لها، فضلاً عن خطورة تحميل السفن فوق طاقتها مع ضعفها وعدم صلاحيتها للملاحة في البحر الأحمر، مع فحش ارتفاع الأجور، وقد عبروا عن استهانتهم واستهتارهم بالحجّاج بمقولتهم المشهورة " علينا بالألواح، وعلى الحجّاج بالأرواح "[2]، والأخطر من ذلك عندما تعبر المراكب البحر الأحمر من جدّة، فتلقي بها الرياح على الساحل الأفريقي بعيداً، فتكون الفرصة للتجار من أصحاب القوافل، والبدو، فيحملون الحجّاج على الجمال إلى عيذاب، بالأجور التي يريدونها، والخطر أنهم كثيراً ما يذهبون بهم بعيداً في الصحراء حتى يهلكوا فيغنم أصحاب الجمال ما معهم، " وأمّا الذي يسلم بعد كلّ هذا فيدخل إلى عيذاب كأنّه نُشر من كفن "[3].

([1]) البليار: هي عدة جزر تقع أمام الساحل الشرقي لأسبانيا وأهمها ثلاث جزر هي: ميورقة، ومنورقة، ويابسة، وتسمى في المصادر العربية بالجزر الشرقية.(ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 246).

([2]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 375.

([3]) ابن جبير: الرحلة، ص 37، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 375، الحميري:محمد بن عبدالمنعم (900هـ) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط2، 1980م، ص 424.

وطريق الحجّ عبر عيذاب كان مطمعاً للصوص والقراصنة، فيعتدون على الحجّاج وعلى التجار على حدٍ سواء، فهدفهم السلب والنّهب، بل يأخذون من يستولون عليهم فيبيعونهم في أسواق الرقيق والنخاسة[1].

3- ندرة المياه والطعام:

ندرة المياه والطعام من العوامل الرئيسة التي كان لها تأثير سلبي كبير على طريق الحجّ المصري عبر عيذاب، وتحديداً في المرحلة البريّة من النّيل إلى عيذاب أو القصير، وكانت الصعوبة التي تواجه الحجّاج على طريق عيذاب في هذه المرحلة؛ هي ندرة المياه والطعام، وبخاصّة المياه، فالمسافة طويلة، والمراكز العمرانيّة شبه معدومة أو معدومة، وأخطر ما يكون في الصيف، والآبار الموجودة على الطريق قليلة، والمسافات بينها متباعدة، قد تبلغ مسيرة خمسة أيّام وربّما أكثر، وأغلب مياهها مالحة، وكذلك لا يوجد ماء في عيذاب نفسها، سوى ماء المطر، فإذا احتجبت السماء يجلب البِجَة الماء، ويبيعونه على الحجاج، والمسافرين عموماً، ويبلغ ثمن قربة الماء درهماً وأحياناً درهمين[2].

الفصل الثاني: محطات طريق الحج المصري:

ينقسم طريق الحج المصري عبر عيذاب إلى ثلاثة قطاعات، حسب الطبيعة الجغرافية والتضاريسية للأماكن التي يمرّ بها من ميناء الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل جنوب القاهرة ؛ إلى ميناء جدّة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر وهذه القطاعات هي:

1- القطاع النهري عبر النيل، بدءًا من الفسطاط إلى بعض المواضع على الضفة الشرقية لنهر النيل.
2- القطاع البرّي، ويبدأ من بعض المواقع على الضفة الشرقية لنهر النيل إلى ميناء عيذاب على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وأحياناً إلى ميناء القصير على مسافةٍ قريبة شمال ميناء عيذاب.

([1]) عطية القوصي: تجارة مصر، ص 10-12.

([2]) ناصر خسرو: سفر نامة، ص 117- 119.

3- القطاع البحري، ويبدأ من ميناء عيذاب عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة على شاطئه الشرقي.

وقد سلك هذا الطريق عددٌ من الرحالة، بقصد الحج من أشهرهم:

1- ناصر خسرو، وقد حج سنة (442هـ / 1050م).

2- ابن جبير، وحج سنة (579هـ / 1183م).

3- القاسم بن يوسف التجيبي، وحج سنة (696هـ / 1296م).

وكان ابن بطوطة قد أراد الحج سنة (727هـ / 1326م) ولكنه رجع من عيذاب لأسباب أمنية، إذ لم يجد مركباً يحمله إلى جدة، وكل من هؤلاء الرحالة قد عاصر طريق عيذاب في مرحلة من مراحله.

المبحث الأول: المحطّات عبر نهر النيل:

أول ما يبدأ طريق عيذاب بالقطاع النهري، أي عبر النيل، بدءًا من الفسطاط إلى مواضع على الضفة الشرقية منه، وأهمها: إخميم وقنا وقوص وأسوان وهذه المدن محطات على الطريق، ويتفرع من كلٍ منها طريق بري عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب، وفي بعض الأحيان إلى ميناء القصير قريباً من عيذاب شمالاً، ولاسيما بعدما تضاءلت أهمية عيذاب[1].

وأمّا محطّات مراكب الحجيج فهي كثيرةٌ على ضفتي النيل، وأهمها:

أَسْكَر: وهي أول محطَّةٍ بعد الفسطاط على طريق عيذاب، وتقع على الضفة الشرقية لنهر النيل.

المِنْيا: تقع هذه المدينة على الضفة الغربية لنهر النيل.

جبل المُقْلةَ: يقع على الطريق بعد المنية، وذِكْرُهُ هنا لكونه من أبرز معالم طريق الحج عبر النيل، وتصله مراكب الحجاج بعد بدء مسيرها من مدينة مصر بحدود تسعة أيام، ويقع على الضفة الشرقية للنيل، وهو في منتصف المسافة بين مصر وقوص ومقدارها ثلاثة عشر بريداً[2]، ومنه مثلها إلى قوص[1].

([1]) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، ص 62.

([2]) البريد: فرسخان، والفرسخ: ثلاثة أميال (ابن منظور: لسان العرب، ج 3، ص 86، (برد)).

مَنْفَلُوط: وهي بلدةٌ في صعيد مصر على مقربة من الضفة الغربية للنيل، ويؤمها التجار، وفيها أسواق، وذلك مما جعلها محطة لمراكب الحجاج في الطريق[2].

أَسْيُوط: من أهم مدن الصعيد في مصر، مدينة غربي النيل على بعد ثلاثة أميال منه وهي من أهم محطات الحجاج [3].

إِخْمِيم: تقع إخميم على الضفة الشرقية لنهر النيل، وهي من أهم محطات الحجاج، مدينة قديمة كثيرة العمران وفيها معالم حضارية قديمة، ومرافقها وافرة، وفيها مصانع للجلود الإخميمية[4]، ويتفرع من إخميم طريق برّي عبر الصحراء الشرقية بمصر إلى عيذاب.

قِنَا: مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يومٌ واحد، وقِنا تقع على ضفة النيل الشرقية وهي مدينة حسنة فيها أسواق ومرافق، والمسافة بينها وبين قوص بريد واحد.

قَفْط: مدينة بشرقي النيل ذكر ابن جبير أنّها على بعد ثلاثة أميال منه، وذكر ياقوت الحموي أنّها على بعد ميل، ويبدو أنها على ثلاثة أميال لأن ابن جبير قد سلك طريقها[5]، وعلى أية حال هي مدينة جميلة حولها بساتين ومزارع كثيرة.

قُوص: تقع قوص على الضفة الشرقية لنهر النيل وهي بعد قفط بميل واحد، مدينة كبيرة وهي قصبة صعيد مصر ويصلها الحاج بعد مسير اثني عشر يوماً من الفسطاط، وهي أهم محطة على طريق الحاج[6]، عامرة وواسعة يفد إليها التجار من

([1]) ابن جبير: الرحلة، ص 27. وذكر سيد عبدالمجيد بكر هذا الموضع باسم (مرسى جبل المقلا) وأن به مرسى وأسواقها عامرة.(الملامح الجغرافية لدروب الحج، ص 150، ذلك عن ابن جبير، ولكن لم أجد أن ابن جبير يذكر أن به أسواقاً).

([2]) ابن جبير: الرحلة، ص 28، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 8، ص333 (منفلوط)، الحنبلي: عبدالمؤمن بن عبدالحق بن شمائل القطيعي البغدادي الحنبلي (739هـ)، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ، ج3، ص 1323، ابن بطوطة:الرحلة،ج1،ص 49.

([3]) ابن جبير: الرحلة، ص 28.

([4]) اليعقوبي: البلدان، ج1، ص170، البكري: المسالك والممالك، ج2، 617، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد،،ج1، ص 139.

([5]) ابن جبير: الرحلة، ص 32.

([6]) كاتب مراكشي: (توفي في القرن السادس الهجري)، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م، ص 85.

بلاد الهند والسند والحبشة واليمن ويلتقي فيها حجاج مصر والمغرب وأفريقية، وفيها فندق لتجار الكارم وهي آخر محطة على النيل، وبداية الطريق البري عبر الصحراء إلى عيذاب[1]، وهذا أحد الطرق البرية التي تتفرع من النيل إلى عيذاب، في حين يستمر الطريق النهري عبر النيل نحو الجنوب إلى أسوان مروراً بعدة محطات منها:

اَلْأُقْصُر: وهي مدينة صغيرة حسنة وعامرة تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل، وهي مدينة قديمة.

وعلى أية حال كان القطاع النهري – عبر النيل– أفضل قطاعات طريق عيذاب، وأكثرها ازدهاراً، والعامل في ذلك سهولة الملاحة عبر النيل ذهاباً وإياباً، ثم حالة الأمان في مصر وبخاصة طريق الحج عبر النيل، وتوافر الأماكن (المحطّات) للاستراحة، وتأمين كل ما يحتاجه الحجاج، فضلاً عن الماء أهم متطلبات قوافل الحجاج والتجار للآدميين ورواحلهم.

المبحث الثاني: المحطات عبر الصحراء:

القطاع البرّيّ من طريق الحج عبر عيذاب يبدأ من النيل إلى عيذاب على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، وهذا القطاع ليس طريقاً واحداً، بل فيه عدة طرق تتفرّع من مواضع على الضفة الشرقية لنهر النيل باتجاه عيذاب عبر الصحراء الشرقية بمصر.

ومما ينبغي ذكره – بداية – أن هناك تبايناً في وصف الرحالة للمحطات الواقعة على هذه الطرق ومعالمها، والسبب في ذلك تباعد الفترات الزمنية التاريخية بين رحلاتهم، وما طرأ عليها من تغيرات وتطورات عبر الزمن.

والهدف هنا بيان هذه الطرق والمحطات الواقعة عليها في هذا القطاع وأهمها طريقان[2]:

الأول يتفرع من أسوان، والثاني؛ يتفرع من قوص، وثمة طرق أخرى، كما سيأتي.

أما طريق أسوان – عيذاب فإنه يتفرع من مدينة أسوان، وهي آخر مدن الصعيد جنوباً، على الضفة الشرقية لنهر النيل، وأول من وصفه من الرحالة ناصر خسرو

([1]) ابن جبير: الرحلة، ص 32، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج7، ص 101.

([2]) روعي في تناولهما الناحية التاريخية.

سنة 442هـ / 1050م في رحلته إلى الحج، وذلك في بدايات تحول طريق الحج المصري من الطريق الشمالي عبر القلزم – أيلة إلى جنوب مصر عبر عيذاب.

ويبدأ هذا الطريق من (أسوان)عبر الصحراء الشرقية بمصر إلى عيذاب، حيث تسير قافلة الحج من أسوان فتتجه جنوباً مسافة ثمانية فراسخ فتصل إلى:

ضيقة: وهذا الموضع على طريق الحج البري، وقد حفر فيه بئر يخرج منه ماء كثير، ولكنه ليس عذباً "[1]، فهذا الموضع أول محطة على طريق الحاج لوجود الماء وللاستراحة.

الحوض: وهو جبل يوجد فيه عينا ماء عذب، يتزود منه الحجاج ويسقون الإبل، والضَّيْقة والحوض كمحطّتين رئيستين على طريق أسوان– عيذاب، أمّا طريق قوص – عيذاب، فإنه يتفرع من مدينة قوص فهي آخر محطة على الطريق النهري ابتداءً من الفسطاط وبداية الطريق البري عبر الصحراء إلى عيذاب.

الأحساء: وهذا الموضع تنزله قوافل الحج، وهو في أرض سهليّة من السهول الساحلية المحاذية لشاطئ البحر الأحمر الذي يعرف باسم بحر القلزم، وفي هذا الموضع ماءٌ يحفر عليه قدر قامةٍ تقريباً ولكن بذلك خطورة، فقد ينهار الرمل على الذي يحفر، فالأرض بطبيعتها رمليّة رخوة، وماؤها مالح[2].

طريق قنا– عيذاب: وهو طريقٌ يتفرّع من النيل دون قنا، وهي قرية على الضفة الشرقية للنيل – كما سبق – ويتجه عبر الصحراء إلى عيذاب، وهو بنفس اتجاه الطريق السابق (طريق العبدين)وهما يجتمعان مرتين، مرّةً على مقربة من ماء دنقاش على طريق العبدين، ومرّةً ثانية عند ماء شاغب[3]، وسبب اجتماعهما في كِلا الموضعين وجود الماء.

وطريق إخميم – عيذاب: وهذا الطريق يتفرّع من إخميم ويتجه إلى عيذاب عبر الصحراء، وهو بنفس اتجاه الطريقين السابقين.

([1]) ناصر خسرو: سفر نامة، ص 117.

([2]) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص 204.

([3]) ابن جبير: الرحلة، ص 34.

الطريق البرّي: الفسطاط – عيذاب: يبدأ هذا الطريق من الفسطاط براً، فتسير فيه قوافل الحج – وكذلك قوافل التجارة – نحو الجنوب بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر النيل مروراً بعدد من المدن في الصعيد، أهمها: إخميم، قنا، قفط، قوص، أسوان، ومنها إلى عيذاب[1].

وتتفرع من هذا الطريق قبل أسوان الطرق المذكورة آنفاً من دون قنا ومن إخميم، ومن قوص، وذلك حسب ظروف المسافرين من الحجاج والتجار وغيرهم.

وهذا الطريق – كما سلكه ابن بطوطة برحلته للحج – يبدأ من مصر بعبور النيل إلى البر على الضفة الغربية، فيبدأ بّراً في الصعيد نحو الجنوب.

على ضوء ما تقدم، يتبين أن طريق عيذاب بدءًا من الفسطاط أو مصر كان على الشكل التالي:

1- القطاع النهري: من الفسطاط أو مصر إلى أسوان في جنوب الصعيد بمصر.

2- يتفرّع من هذا القطاع طرق بريّة إلى عيذاب:

– من دون قنا، ومن إخميم، ومن قوص، ومن أسوان.

3- القطاع البري: من الفسطاط أو إلى عيذاب، وهناك طريقان: بمحاذاة النيل:

– طريق بري بمحاذاة الضفة الغربية للنيل إلى أدفو ومنها عبر النيل إلى العطواني، ومنها إلى عيذاب عبر الصحراء الشرقية بمصر.

– طريق بري محاذاة الضفة الشرقية للنيل إلى أسوان جنوب الصعيد، ومنها إلى ميناء عيذاب.

– ويتفرع من هذا الطريق البري طرق إلى عيذاب، من دون قنا، وإخميم وقوص، وهي نفس الطرق المتفرعة من الطريق النهري.

4- الطريقان البريان بمحاذاة النيل، يُقدّر أنهما كانا سالكين وعلى قدر من الأهمية لا تقل عن القطاع النهري عبر النيل، وربما كانا أكثر أهمية، لأن النيل بطبيعة الحال لا يمكن سلوكه صعوداً باتجاه الجنوب في كل أيام السنة، وخاصة في فصل الشتاء، وفي فترة الأمطار الموسميّة في السودان، حيث يفيض النيل ويصبح من المتعذر صعود

([1]) البكر: الرحلة الأندلسية، ص 183.

المراكب فيه إلى الجنوب، وبهذه الحال لا مناص لقوافل الحجاج والتجار والمسافرين عموماً من سلوك أحد الطريقين البريين، شرق النيل وغربه، وربما كانت هناك فوارق بينهما من حيث الأفضلية، بتأثيرٍ من العوامل الطبيعية من فصل إلى آخر، من التضاريس والأمطار والفيضانات.

ويظل الطريق البري المتفرع من قوص يتميز بقصر المسافة بينها وبين عيذاب، ولذلك كانت القوافل تسلكه أكثر من غيره، وخاصةً في الصعود من عيذاب إلى قوص.

الفصل الثالث: التنظيمات الإدارية في الطريق:

المبحث الأول: الاستعداد للحج

احتلت مصر مركزاً قيادياً في العالم الإسلامي، وذلك للدور الذي اضطلعت به في شؤون المسلمين، وأبرز مظاهر هذا الدور الاهتمام بشؤون الحج وخدمة الحرمين الشريفين، فأصبحت قافلة الحج المصري هي القافلة الرئيسة إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وكانت تضم حجاج المغرب الإسلامي عامَّةً، من الأندلس وأفريقية، وجزر البحر الأبيض المتوسط وغيرها، والاستعداد للحج يبدأ بتعيين أمير الحج، وإعداد كسوة الكعبة، وغيرها من الهدايا التي اعتاد الخلفاء والسلاطين المسلمون إهداءها إلى الكعبة، وإعداد ما يلزم لقافلة الحج من الظهر والزاد، والعساكر لحراستها.

أمَّا أمير الحجَّ في عهد الفاطميين فقد كان يُعيَّن من قبل الحاكم الفاطمي رسمياً، بموجب خطابٍ خطيٍ، يبين فيه واجبات أمير الحج في قيادة القافلة، وعظم مهمَّته، وكان يُعلن عن جاهزية قافلة الحج في شهر رمضان، بنداء سلطاني، وذلك ليتأهَّب الحجَّاج، ويعدّون للسفر لأداء الحج، وبعد أن يجتمع الحجاج ويستكملون استعدادهم في القاهرة، تخرج القافلة إلى بركة الحاج، أو بركة جب عميرة– كما تسمى بذلك[1]، وقد شهدت قافلة الحج فيما بعد العصر الفاطمي تنظيماً أكثر، ولاسيما في عهد الدولة المملوكية فقد كان يتم الإعداد لتنظيم القافلة، بتعيين أمير الحج– أمير

(1) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، المطبعة الكبرى الأميرية، 1306هـ، ج9، ص 16.

القافلة– والقضاة، والموظفين التابعين لأمير الحج، وتجهيز المحمل، وبعد أن يتم الإعداد لتجهيز القافلة كان المحمل يدور في القاهرة دورتين في حفل مهيب، وذلك حيث يجلس السلطان بالميدان فتُعرض عليه كسوة الكعبة المشرفة، ثم ينطلق المحمل في القاهرة، وكانت الشوارع والطرقات التي يمر بها تزدهي بمظاهر الزينة والاحتفال البهيج، وكان يتقدم المحمل الأفيال والطبول والمزامير، واللاعبون بالرماح، وكان يتقدم الموكب أمير الحج والقضاة الأربعة، والأعيان من الحجاج[1]، ومن الاستعداد للحج، إعداد حامية عسكرية مجهَّزة بالسلاح والخيول لحراسة القافلة، من حيث مسيرها إلى الديار المقدسة إلى أن تعود بسلام.

وبذلك فإنَّ قافلة الحج المصري لا تقتصر على حجاج مصر فحسب، بل كانت تضم حجاج المغرب الإسلامي كله، وحجاج العديد من بلدان المشرق الإسلامي، فقد كانت هي قافلة الحج الرئيسة، وذلك بحكم الموقع، والظروف والأحوال الأمنية في المنطقة، إضافة إلى تنظيم القافلة وحراستها، وتوفير الأشياء الأساسية، وفي مقدمتها المياه ومحطات الاستراحة على طول الطريق.

المبحث الثاني: إمارة القوافل، وحراستها:

إمارة قوافل الحج، هي أن يتولَّى أمر الحج بالناس شخصٌ يُعيَّن أميراً من قبل ولي الأمر، الحاكم أو السلطان، ذلك في حال عدم خروج ولي الأمر بنفسه للحج بالناس، وذلك إتباعاً للسنة، والمقصد من إمارة الحج؛ تيسير أمور الحجيج بتنظيم أمورهم في مسيرهم إلى المشاعر المقدسة، وأداء المناسك ولذلك يُشترط في أمير الحج أن يكون مؤهَّلاً لهذه المهمة، من حيث القدرة على إدارة أمور الحجاج، والفقه بأمور الحج لأداء المناسك على الوجه الصحيح، وأن ينظم جموع الحجيج، وأن يرفق بهم، ويراعي بهم أيسر الطرق ويحسن حراسة القافلة، وأن يتفقد أحوال الحجاج، ويتعيّن عليه أن يشرف على الحجاج في أداء المناسك، بل أن يؤمّهم في ذلك، بترتيب أعمال

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 59.

الحج وفق الأحكام الشرعيّة، ولذلك يجب أن يكون عالماً بفقه الحج[1]، وألاّ يستعجل الحجاج بعد أداء مناسكهم، فيمهلهم لزيارة الحرم النبوي، وقضاء حوائجهم[2].

ومما تقدّم فإنّ لإمارة الحج جانبين، إداري يتمثل بقيادة القافلة وإدارة شؤونها ورعايتها، وجانب آخر ديني، يتمثل بإقامة الحج في أداء المناسك، ولعظم مهمّة إمرة الحج كان الكثير مّمن يُكلّفون بها يعتذر خشية الفشل[3].

المبحث الثالث: استقبال الحجّاج في الموانئ المصرية:

تتميّز موانئ مصر بأهمّيّة مواقعها الإستراتيجية على البحر الأبيض المتوسط، أما في مجال الحج؛ فذلك مّما زاد من أهمّيّة موانئ مصر في العالم الإسلامي، وكذلك على المستوى الإقليمي والعالمي، وذلك أن طرق الحج في نطاق طرق التجارة العالميّة، ولموسم الحج أثرٌ كبيرٌ في النشاط التجاري، بالإضافة إلى أهمّيّة الحج من الناحية الدينية.

كانت الإسكندرية نقطة تجمع لقوافل الحجاج القادمة من الأندلس والمغرب براً، عبر طريقين: الأول ؛ محاذٍ للساحل، والآخر إلى الجنوب منه في الداخل، ويُعرف بطريق السكّة، وكانت الرحلة على هذا الطريق شاقة لقلة العمران وندرة الماء، وكان غالبية الحجاج يسلكون الطريق الساحلي[4]، ويلتقي الطريقان في الإسكندرية[5]، ومنها إلى الفسطاط، لينتظم حجاج الأندلس والمغرب في قافلة الحج المصري.

ولا نجد من خلال ما تقدّم أيّ هنةٍ أو سلبية بحق الحجاج في الموانئ المصرية، بل على العكس من ذلك، فقد رأينا مبلغ اهتمام حكام مصر بشؤون الحجاج، وخاصةً بالجانب الأمني، ومع هذا الاهتمام إلا أننا رأينا بعد فترة من تحول طريق الحج جنوباً عبر عيذاب أمراً وقد يكون هذا من بقايا النظام الفاطمي المتبع في

([1]) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 110.

([2]) المصدر السابق: ص109-110.

([3]) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ص353.

([4]) ابن جعفر: قدامة، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، 1981م، ص 120-121.

([5]) المصدر السابق: ص 119، 123.

الموانئ، حيث يطالعنا بعض الرحالة بصورة مزرية باستقبال حجاج المغرب والأندلس في ميناء الإسكندرية، في عصر الدولة الأيوبية، وهذه مفارقةٌ كبيرة مع عدالة صلاح الدين الأيوبي، فأول ما يواجهه الحجاج صعود العاملين في الميناء إلى المراكب، فيسجّلون كلّ ما فيها، ثم يستدعون الحجاج فرداً فرداً، ويسجلون أسماءهم وأسماء بلدانهم والجهات القادمين منها، وصفاتهم، والغاية التي جاؤوا من أجلها، وما لدى كل واحدٍ منهم من المال والمتاع والأشياء بدقة، ثم يُحمل كلُّ ذلك إلى ديوان الميناء، ولا يكتفي القائمون على أمر الميناء وعمالهم بذلك، بل يأخذون بتفتيش الحجاج رجالاً ونساءً، فيمدّون أيديهم إلى أجسادهم، بلا ورع ولا حشمة ولا حرمة، وكأن لا رادع لهم من وازع ديني، ويزيدون على ذلك باستحلافهم إذا ما كان عندهم غير ما ظهر وقُيِّد ؟[1]، والأمر نفسه يتكرّر وبنفس الصورة من الإساءة والإيذاء في الصعيد، في مدن أخميم وقوص ومنية ابن الخصيب وغيرها، ذلك لأخذ زكاة ما يحمله الحجاج من المال والمتاع، ولم يكن للسلطان صلاح الدين علمٌ بهذه التجاوزات بحقّ الحجاج فلما علم بها منعها في الحال.

وأما في ميناء عيذاب فكذلك كان الحجاج في العصر الفاطمي يلقون عنتاً من القائمين على الميناء الذين لم يراعوا في استقبالهم قواعد الأخلاق الإسلامية، ولا حرمة الغاية التي جاء الحجاج من أجلها (أداء فريضة الحج)، بل كأن موسم الحج – بالنسبة لهؤلاء – موردٌ اقتصادي فحسب، فأول ما يستقبلون الحجاج بطلب المكس، ضريبة على كل حاجٍ سبعة دنانير ونصف أو ثمانية.

لقد عني حكام مصر بالموانئ عنايةً كبيرة، فوضعوا لها نظاماً دقيقاً لضبط حركة الدخول إلى البلاد والخروج منها، بالإضافة إلى حركة المرور، وتمثَّل ذلك بنظام أوراق السفر، وذلك نظام قد عرفته الدولة الإسلامية منذ قرونها الأولى[2]، وقد تطوّر هذا النظام حتى بلغ ذروة تطوره في العصر المملوكي، وقد ذكر القلقشندي، أن

([1]) العبدري: أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري الحيحي (737هـ)، رحلة العبدري المسمّاة الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968م، ص 93-94.

([2]) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص 36.

نظام أوراق السفر جرى تطبيقه من قبل عصره أيام دولة المماليك، وأنه كان يُستخدم لهذا النظام أوراق خاصة، كانت تُعرف في عصره بأوراق الطريق[1].

وورقة الطريق لها نموذج معين، وهي عبارة ثلاث أوصال،كحقول؛ يُكتب في القسم الأول أعلى الورقة:"ورقة طريق على يد فلان بن فلان الفلاني "، أي اسم الشخص الذي جرى على يده منح الورقة، والي البلد أو القائم بأمر الميناء، وفق تعليمات وشروط، ويتم ذلك باسم السلطان حيث يُكتب في القسم الثاني من الورقة ما يفيد أنها رسم سلطاني، فيذكر اسم السلطان، واسم الشخص الممنوح له الورقة، ومضمون الرسم من منحةٍ ماليَّةٍ أو ظهرٍ أو زادٍ أو مساعدةٍ ما، والجهة القاصد إليها وعودته، وفق النموذج التالي: " رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني... "ثم يذكر: " أن يُمَكَّنَ فلان الفلاني – وتذكر ألقابه – من التوجّه إلى جهة قصده والعود "[2].

وورقة الطريق هذه تمنح للمعتبرين من الناس فيظهرونها للحراس والمسؤولين حيثما يتوجهون أو يقصدون حسب المرسوم لهم، وأما غيرهم من عامة الناس فإنّه يُطبع بخاتم أو نحوه على ذراعه، وذلك ما عاينه ابن بطوطة في دمياط، حيث يقول:" وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد – ورق – يتظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به "[3].

كان نظام أوراق الطريق مطبقاً في العصر المملوكي بدقة، كما أنها دُعيت بـ(البراءة) فكانت تُطلب من عموم المسافرين، القادمين إلى مصر والمغادرين منها، سواءً في البر أو في البحر على نحو ما يذكر ابن بطوطة إجراءات السفر والمرور قطيا، فقد كانت مركزاً جمركيّاً لمصر على حدودها الشرقية، على الطريق إلى الشام، فلا يُسمح لأحد بمغادرتها إلى الشام بدون براءة، وكذلك لا يجاوزها قادم من الشام إلا

([1]) صبح الأعشى، ج 7، ص 251.

([2]) المصدر السابق: ج7، ص 251–252.

([3]) الرحلة: ج1، ص 35.

ببراءة، بمعنى موافقة من السلطات الرسمية، والهدف من هذا الإجراء المحافظة على أمن البلاد من خطر الجواسيس[1].

وإلى جانب هذا النظام، كان القائمون على الموانئ المصرية ينظّمون كشوفاً بأسماء القادمين عبرها، فيسجّلون أسماءهم وأسماء بلدانهم والغاية التي جاؤوا من أجلها، والجهات القاصدين إليها.

المبحث الرابع: الضرائب والمكوس المفروضة:

الضرائب: جمع ضريبة، وهي مبلغ من المال نقداً أو عيناً تُؤخذ على أمور، أو أشياء معينة، والضريبة ما يُؤديه العبد لسيده من المال المقرر عليه، ويقول الزبيدي: المكوس هي الضرائب التي كانت يأخذها العشارون[2]، والضرائب التي تفرض تساوي بين الغني والفقير[3]، والدين الإسلامي حرَّم الضريبة، والمكس، وأحل الزكاة، والخراج والجزية، واعتبرها رزقاً للمسلمين.

ومعنى المكس هو البخس لقول الله تعالى:" وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا " الأعراف آية 85، وهو محرَّم شرعاً، لقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لقبلت منه "[4].

([1]) ابن بطوطة: الرحلة، ج1، ص 52-53.

([2]) الزبيدي: محمد بن محمد بن عبدالرازق الزبيدي (1205هـ)، تاج العروس في جواهر القاموس،دار الهداية، الرياض، د.ت، ج16،ص515.

([3]) من العلماء من أجاز الضرائب بشروط أربعة أن تكون هناك حاجة حقيقية بالدولة للمال، وأن توزع أعباء الضرائب بالعدل بحيث لا يرهق فريق من الرعية لحساب الآخر، وأن تصرف في المصالح العامة للأمة، وأن يوافق أهل الشورى والرأي في الأمة لأن الأصل في أموال الأفراد الحرمة، والأصل أيضاً براءة الذمة من الأعباء والتكاليف، ويقابل هذا الرأي رأي آخر يقرر تحريم فرض الضرائب لأنه لا حق في المال سوى الزكاة وأن الإسلام احترم الملكية وحرم الأموال كما حرم الدماء والأعراض.(الزحيلي: وهبة بن مصطفى، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط4، د.ت، ج7، ص 5002)، وقد أجاز الشيخ عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام(660هـ) للسلطان قطز أنه إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كله قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهادهم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء.(الذهبي: تاريخ الإسلام، ج48، ص 45).

([4]) الإمام البخاري: صحيح البخاري، ج5، ص 360، حديث رقم 177.

وقد مارست الدولة الفاطمية المكوس على التجار، والحجاج والمسافرين العابرين أراضيها إلى الديار المقدسة، وقد كان للبجة وزعيمهم في عيذاب، وما حولها طرائق في أخذ أموال الحجاج، إما بالكراء الغالي الثمن، أو الضرائب التي تفرض عليهم للمرور ولذلك كان الحدربي يأخذ الثلثين والثلث الباقي يذهب إلى السلطان في مصر، أيام الدولة الفاطمية[1].

الفصل الرابع: وسائل النقل عبر الطريق:

المبحث الأول:وسائل النقل في النيل:

استخدم أهل مصر نهر النيل في أعمالهم، فهو الشريان الحيوي للتنقل بين البلدان الواقعة على ضفافه، ولنقل التجارة سواء كان للداخل المصري، أو لخارج مصر إلى أوروبا، فسيروا المراكب الكبيرة والصغيرة التي تحمل المنتجات الزراعية([2])، وارتبطت حياتهم فيه ارتباطاً وثيقاً، فهو الطريق الرئيس لنقل البضائع، والمسافرين من بلد إلى آخر، بل ونقل التجارة من الموانئ التي في أعلاه إلى الموانئ في الجنوب أو العكس[3]، واشتهرت الفسطاط بوجود دار للصناعة السفن والتي يستخدم فيها الأخشاب المتوفرة لديهم في الأحراش والمزارع، من القصب، أو جذوع النخيل أو السعف، وكذلك الأثل والسدر وشجر السنط، والذي يصنع منه الحصير لبعض الأشرعة للمراكب الصغيرة[4]، بل واستخدموا القرب المنفوخة بالهواء في بعض تنقلاتهم، وأهم ما يصنع في هذه الدار سفن الشواني[5]، ولقد امتازت مصر بموقعها الجغرافي المميز بين القارات الثلاث آسية وأفريقية وأوروبة، وكانت الملاحة البحرية هي السبيل لربط شعوب هذه القارات، لذا اتخذت مصر سياسة خاصة لكل جهة، فكل بحر من البحار التي تطل عليها مصر له سفنه الخاصة به، وله الموانيء المناسبة

([1]) عطية القوصي: دولة الكنوز، ص 118.

([2]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص 190.

([3]) محمد حمدي المناوي:نهر النيل في المكتبة العربية،الدار القومية للطباعة،القاهرة، 1386هـ /1966م،ص 90.

([4]) حسن صالح شهاب: المراكب العربية تاريخها وأنواعها، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، د.ت، ص 25.

([5]) المقريزي: السلوك، ج1، ص 437، المواعظ والاعتبار، ج2، ص 196.

كذلك[1]، وكان نهر النيل يزخر بالسفن الصاعدة والمنحدرة، كما عرف نهر النيل حركة دائبة للسفن المتنوعة في أشكالها، وأحجامها، وزخارفها، وسرعتها، وجودة الصناعة المكتسبة من الخبرات القديمة في تصنيع السفن الصغيرة[2]، وتبعاً للأغراض التي هيّأت لأجلها، سواء أكانت أعدت للحروب، أو لحمل البضائع، أو لنقل المسافرين، أو لنزهة الحكام وكبار رجالات الدولة[3]، أو لنزهة عامة الناس[4].

ويلاحظ أن السفن المستخدمة في نهر النيل تتطور بشكل دائم تلبية لحاجة عابري هذا الطريق النهري، في سد الاحتياجات الاقتصادية، والزراعية.

ومن أشهر السفن والمراكب التي تصلح للنقل في نهر النيل ما يلي:

الحراقة: أو الحرايق[5]، وهي سفينة انتشر صيتها في كثير من بحار العالم لما تتميز به من قيامها بمهام متعددة.

اعزاري: وهذه السفينة مخصصة لنقل المؤن والأزواد، وهي من توابع الأسطول[6]، الحربي التي تتنقل بين النيل والبحر الأبيض المتوسط[7].

البركوش: وتعرف أيضاً بالمركوشي، وهذه السفينة يستعملها المصريون كسفينة الأعزاري، لأنها تقدم خدمة للأسطول الحربي، وذلك بنقل المؤن وتحديداً المياه الصالحة للشرب، وهي من المراكب المرنة التي تستطيع الدخول في الأحراش أو الأماكن الضيقة التي يصعب على السفن الحربية الدخول إليها[8].

([1]) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية، في مصر والشام، ص 201.

([2]) الفريد لوكاس: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكي اسكندر، د.ن، القاهرة، 1945م،ص 707.

([3]) المقريزي: السلوك، ج6، ص 504، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص 86.

([4]) قاسم عبده قاسم: بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، دار المعرفة، سوسة، تونس، د.ت، ص29.

([5]) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، 1974، ص 32.

([6]) الأسطول: كلمة يونانية (stoles)، وتعني مجموعة من السفن. (الخربوطلي: الحضارة، ص 60).

([7]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص 340.

([8]) سعاد ماهر: البحرية في مصر، 123.

الحمائم: من السفن النيلية الصغيرة، ولصغرها سميت بالحمامة، وقد استخدمها أهالي النيل، وغالباً كانت تسير بجوار السفن الكبيرة لتقديم لها الخدمات الشاطئية[1].

الشيني: عرفت هذه السفينة بطولها البين، ولطولها كان الجدافون يتجاوز عددهم المئة والأربعين رجلاً، وبهذه السفن مخازن لحفظ القمح، وصهاريج لخزن المياه العذبة[2].

شبوق: وهي أشبه ما تكون بالسمك النهري الشبوق، وهي صغيرة الحجم سريعة تستطيع الدخول في الأحراش والأماكن الضيقة، وهي بمثابة سفينة لنقل البضائع أو لتفريغ حمولة سفينة كبيرة بتوزيع البضائع على الموانئ المجاورة، ويشبهها سفينة تقدم نفس الدور وهي خدمة السفن الكبيرة وتعرف أيضاً بالشموط[3].

الطراد: سفينة صغيرة سريعة ؛ لأن أخشابها رقيقة وصلبة، تستخدم في نهر النيل بشكل واسع[4]، وتختلف مسمياتها بحسب المنطقة على نهر النيل، فمنهم من يسميها (الطريدة)، ومنهم من يقول (تطريدة).

العشاري: ويقال لها العشيري، وتجمع بعشاريات، من أكثر السفن شهرةً وتستعمل في نهر النيل[5]، ويعمل عليها عشرون جدافاً، كانت ذات استخدامات متنوعة فهي سفينة حربية وقت الحروب، وسفينة نقل للمقاتلين والعتاد والمؤن إلى ضفاف النهر، أو إلى الموانيء.

المعادي: وهذه السفينة عرفت في مصر ونهر النيل تحديداً، وكانت تتخذ لتعدية الناس النهر إلى الضفاف المقابلة، واشتهر استخدامها في عهد دولة المماليك[6].

([1]) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 32، درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 41.

([2]) حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر الأبيض المتوسط والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1411هـ/1991م، ص 82.

([3]) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 32.

([4]) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 89-91.

([5]) نفس المرجع السابق: ص 95-100.

([6]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج 2، 433، درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 143-146.

الملوحة: وهي من السفن التي تحتكر استخدامها الدولة في مصر سواء كانت الدولة الفاطمية أو الأيوبية، أو المملوكية، فكانت تعطى للعمال والقادة لاستخدامها، ثم تعاد إلى دار الديوان في الدولة[1]، وتميز بها نهر النيل، وهي سفينة صغيرة تسير بالأشرعة[2]، ولا يستبعد أن تكون هذه السفن من وسائل نقل الحجاج من شمال مصر إلى جنوبها.

المبحث الثاني:وسائل النقل في الصحراء:

كانت طرق الحج والمسافرين في الصحراء، وتحديداً في وادي العلاقي وفي الطرق البرية المقفرة شديدة ووعرة المسلك وطويلة المسافة، لذا كانت الوسيلة الرئيسة في النقل الجمال التي تحمل المسافرين من حجاج، أو تجار، وتحمل الأحمال التجارية التي كانت تزدهر بها عيذاب في تلك الفترة، لأنها أكثر الدواب تحملاً للظروف المناخية، حيث تقطع مسافات طويلة ولا يمكن لأي دابة أن تتحمل مثل هذه الظروف[3].

وهناك جمال تعرف بالجمال البختية، والتي عُرفت بهذا الاسم نسبة لبلدة بخته[4]، وهي من أسرع الدواب، وأصبرها على الأحمال، وقد وصفها الحميري بقوله:" والجمال البختية ليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها، ولا أصبر على السير، ولا أسرع خطى، وهي بديار مصر معروفة بذلك "[5].

ومثلما تميزت الجمال في جهات عديدة في مصر، كان للخيول دور ظاهر في اتخاذها وسيلة للتنقل، فقد اعتمد عليها المماليك بشكل كبير في التنقل وكثير من مناسباتهم[6]، حتى إن السلاطين يقدمون الهدايا السلطانية لضيوف الدولة، وقد

([1]) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 139.

([2]) ابن مماتي: القوانين والدواوين، ص 348.

([3]) ابن جبير: الرحلة، ص 33.

([4]) بخته: مدينة من بلاد البجة، في جنوب وادي العلاقي، وقد اشتهرت بعمل أهلها بنقل المسافرين على جمالهم التي اشتهروا بها.(الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ج1، ص 47).

([5])الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 84.

([6]) حياة بنت ناصر الحجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرن الثامن والتاسع الهجريين، جامعة الكويت، 1995م، ص 211.

استعملت الخيل في البريد، وقد تميزت بعض الدواب المصرية عن مثيلاتها في البلاد العربية، حتى غدت سلعة تجلب، حيث يقول الاصطخري: " وبمصر بغال وحمير لا يعرف شيء من بلاد الإسلام أحسن ولا أثمن منها "[1]، ويقول القلقشندي:"... والبغال النفيسة، والحمر الفارهة مما ليس له نظير في إقليم من الأقاليم، ولا مصر من الأمصار "[2].

وقد انتشرت في القاهرة تحديداً مهنة تأجير الحمير للرجال، والنساء على السواء، وقد وجد جماعة من الناس اتخذوا من تأجير الحمير وسيلة لكسب العيش.

المبحث الثالث: وسائل النقل عبر البحر الأحمر:

اشتهر البحر الأحمر بتعدد السفن التي تخوض عبابه، سواء كانت حربية، أو تجارية أو سفن مواصلات، أو سفن إرشاد للسفن التجارية.

وكان البحر الأحمر محفوفاً بالمخاطر لما فيه من شعاب بارزة ورياح موسمية، لذا كان البحارة لا يسيرون فيه إلا نهاراً لشدة الخطورة ليلاً بسبب كثرة الشعاب المرجانية في البحر.

ومن أشهر السفن المستخدمة كوسائل نقل في البحر الأحمر:

الجلاب: كانت شهرة الجلبة[3]، في البحر الأحمر دون غيره من البحار – برغم من وجود ذكرها في بعض البحار – وهذه السفينة مصنوعة من الخشب الهندي الذي يجلب إلى عيذاب، وتصنع أيضاً من أخشاب اللبخ أو غيرها مما يتوفر لسكان الموانئ، ومشدودة إلى بعضها بأمراس – خيط – ومدهونة لتقاوم ملوحة المياه البحرية، وهي من السفن القوية التي تدوم سنين عديدة، إلا أن بعضاً من مُلاك هذه السفن ولطمعه يقوم بتحميلها أكثر من طاقتها، مما يعرض الركاب وممتلكاتهم لخطورة بالغة تصل في بعض الأحيان، وبخاصة أثناء هبوب الرياح إلى جنوح هذه المراكب

([1]) المسالك والممالك، ص 55.

([2]) صبح الأعشى، ج3، ص 346.

([3]) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 27 –28.

إلى غير وجهتها المخطط لها، بل إن بعضها يُفقد في عرض البحر، لذا نجد المقريزي يقول:" والذي يسلم كأنه نشر من كفن"[1].

الشلنديات: ومفردها شلندي[2]، ومن ثم عدل إلى صندل، وهذه السفن كبيرة عظيمة الجرم وتشتهر باتساع جنباتها، وقد أهتم بها الجيش الفاطمي.

العيكار: أو العكيري، وهو من أخف المراكب، وتتميز بالسرعة لكثرة الجدافين عليها[3]، وهو خفيف يستطيع مقاومة الأمواج التي تضرب البحر والسفر في أوقات مختلفة، بل ويستخدم طيلة العام بغض النظر عن اتجاه هبوب الرياح، وهي من المراكب التي يعتمد عليها السفار لتوفرها وكثرتها في البحر الأحمر[4].

السنبوق: عُرف هذا المركب بالصنبوق القنباري[5]، وهو قارب صغير يكثر في البحر الأحمر، وتحديداً في ميناء عيذاب.

الطراد: وهذا المركب أشبه ما يكون بالبرميل، ويستخدم في الحروب ولنقل الخيول إلى الضفة الأخرى، أو إلى ميناء مجاور على نفس الضفة.

الزوارق: يستخدم هذا النوع من المراكب الصغيرة في الصيد، واستخراج اللؤلؤ في جزر البحر الأحمر وهو من المراكب السريعة لخفته وقلة مواد تصنيعه[6].

الغراب: وهذا النوع من المراكب يستخدم في البحر الأحمر، وهو صغير الحجم وعليه أشرعة وجدافين، وهو من الأنواع السريعة الذي يستخدم في القتال، ويحرص على استخدامه اللصوص في البحر لثقتهم بالنجاة عندما يحاط بهم[7].

([1]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص375.

([2]) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 78.

([3]) ابن بطوطة: محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (779هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة العصرية، صيدا لبنان،1432هـ 2011م ج 2، ص 108، النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 102.

([4]) ابن ماجد: أحمد بن ماجد بن محمد السعدي، (906هـ)، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد والأراجيز والقصائد، تحقيق: حسن صالح شهاب، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2014م، ص 310، 313.

([5]) درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص70، 86.

([6]) ابن جبير: الرحلة، ص 56.

([7]) المقريزي: السلوك،ج5، ص 108، درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، ص 104.

الفصل الخامس: الآثار الحضارية للحجاج عبر طريق عيذاب:

المبحث الأول: الآثار الدينية والثقافية.

تهدف الرحلة التي يقوم بها الحجاج من بلاد الأندلس والمغرب الإسلامي، وأفريقية في المبدأ من أجل أداء فريضة الحج، ومن ثم الاستفادة من الفرصة المتاحة بلقاء العلماء والتزود بالعلوم الشرعية، وغيرها من العلوم، ولذا أصبح هؤلاء علماء في بلادهم فنقلوا الثقافة الدينية الموجودة في الحواضر الإسلامية، وبخاصة المدينة المنورة، لذا انتشر مذهب الإمام مالك في تلك البقاع، استمر الحجاج في رحلاتهم، فأصبحوا يتعرفون على كل جديد في مصر والحجاز، وبعضهم يجاور في المدينتين المقدستين، أو يستقر في مصر للتدريس[1].

وقد فضل كثير من المغاربة الذين أرادوا الحج البقاء في مصر، بل والانتماء إليها حتى غدت مصر بلدهم الثاني، لذا نجد في تراجم بعض العلماء من يُنعت بمصري الإقامة مغربي النسب، أو مصري المولد لمن ولد منهم على أرض مصر من أبوين مغربيين، وقد أثّروا في الحياة الدينية والثقافية في المدن والأرياف المصرية بشكل خاص.

وكان للدولة الفاطمية وبحسب سياستها الدينية اهتمام بنشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية، كالفقه والتفسير، وكذالك الثقافة العلمية والأدبية.

لقد كان للحجاج أثر في الحياة الدينية والثقافية في مصر، سواء كانت في العلوم النقلية الشرعية، أو العلوم العقلية أو الدنيوية، فنجد أن الحجاج العلماء عندما يصلون إلى مصر يتفرغون لتدريس ما لديهم من علوم دينية، وبخاصة علوم القرآن الكريم، قراءاته، وإعرابه وتفسيره، ومعرفة أحكامه[2]، فيختلف إليهم الطلاب لمعرفة القراءات التي كانوا يتقنونها، وكثر طلابهم وأثّروا على المجتمع المصري بشكل كبير، كما فعل

([1]) محمود علي مكي: أثر الحج في الثقافة الأندلسية ورحلة أبي مروان الباجي، مجلة الحج والعمرة، السنة السابعة والخمسون، والعدد الخامس، رجب، سنة 1423هـ، سبتمبر – أكتوبر، 2002م، ص65.

([2]) ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود (578هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1414هـ/ 1994 م ج1، ص 202.

الفقيه القيرواني الذي ذاع صيته في مصر قاطبة لسعة علمه وكثرة محفوظاته وإتقانه لعلوم مختلفة[1].

ولقد تعددت العلوم الشرعية التي ترأس مشاهير علماء المغرب الإسلامي تدريسها في مصر أثناء عبورهم لها إلى مكة المكرمة، حتى أصبحوا مناراً في سماء معارضة الفاطميين وقبولاً من فئة الشعب المصري، الذي التف حول هؤلاء العلماء وفتح لهم مجال التعليم، وقد كان لهؤلاء العلماء نتاجاً شرعياً على اختلاف الفروع، وإجازات أجازوا بها طلابهم[2]، وكذلك نشر للثقافة بشكل شامل في مجالات متعددة، وحينما قامت الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي، أخذ على عاتقه تغييّر وتصحيح عقيدة أهل البلاد وتحويلها إلى المذهب السني فأنشأ المدارس العامة ودور الحديث، وأخذ في استدعاء العلماء، والفقهاء من الأقطار الإسلامية، وأغراهم بالحضور إلى مصر وأعطاهم الجوائز المجزية، وسار على نهجه من خلفه في حكم الدولة من بني أيوب في حكم مصر، فأصبحت مصر ملتقى العلماء من داخل البلاد، ومن العلماء العابرين إلى الديار المقدسة، سواء كانوا علماء مشارقة أو مغاربة، قدموا ما لديهم من علوم، والتي كانت أساساً تدور حول القرآن الكريم وعلومه، وكذلك علوم الحديث والآداب الدينية، وأيضاً علوم اللغة العربية والحساب، وقد تسابق الحكام من بني أيوب في بناء المدارس ودور العلم المختلفة، والخانقات والأربطة والزوايا[3]، وكان

([1]) القيرواني: أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حجاج الفاسي القيرواني (430هـ)، الفقيه الزاهد العالم بالفقه والحديث والمتقن للقراءات القرآنية، سكن مصر سنة 399هـ ودرّس فيها، واصطدم كثيراً مع علماء الفاطميين. (الدباغ: أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ (696هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ج2، ص 199-204).

([2]) البلوي: خالد بن عيسى (بعد 767هـ)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية، د.ت، ج1، ص 25.

([3]) الخانقات: لفظة فارسية وتعني البيت الذي ينزل فيه الصوفية، والرباط: هو أصلاً بناء مخصص على حدود الدولة الإسلامية، وهو مكان تجتمع فيه الحياة الجهادية والدينية، ومن ثم اتخذ بعد ذلك مكان يجلس فيه أرباب الطرائق الصوفية، والزاوية: هي مسجد صغير أو بناء صغير يجلس فيه شيخ للطريقة الصوفية، ويختلف إليه مريدوه وجميع هذه الأماكن مسبلة لفعل الخير !.(ابن العجمي: أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل 884هـ)،كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط1، 1417هـ، ج1، ص 384)، وقد نشطت الطرائق الصوفية بعد قدوم أبو الحسن علي بن عبدالله بن عبدالجبار الشاذلي المغربي (656هـ)، إلى مصر واختلاف

من أقدم المدارس الإسلامية في مصر جامع عمرو بن العاص في القاهرة، والذي حرص سلاطين الدولة الأيوبية على الاهتمام به وتوفير احتياجاته، وجلب العلماء الكِبار إليه، وكذلك المدرسة الفاضلية.

وإذا عبرنا إلى العهد المملوكي الذي استفاد كثيراً من الحجاج القادمين إلى مكة المكرمة عبر طريق عيذاب، نجد أن حكام الدولة المملوكية ساروا على نهج من سبقهم في استقطاب العلماء، وإجازتهم بجوائز قيمة للبقاء في مصر للتدريس والاستفادة مما لديهم من علوم شرعية، وعُني سلاطين المماليك وأمراؤهم عناية فائقة بالناحيتين الدينية والعلمية، فأظهروا كل إجلال وتعظيم للعلماء، ونشطوا في تشييد المؤسسات العلمية والدينية، إرضاءً لهم، وتقرباً إلى الشعب، فكسبوا فئة العامة، ويظهر ذلك عندما نجح الظاهر بيبرس (658 –676هـ / 1260 – 1277م)، في اجتذاب أفراد من البيت العباسي إلى القاهرة، ليجعل من مصر داراً للخلافة وحامية للخليفة، لذا ارتفعت مكانة سلاطينها عن بقية حكام البلاد الإسلامية الأخرى، وأصبحت مصر بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد مقصداً لعلماء كُثر حملوا معهم ما استطاعوا أن يحملوه من مؤلفاتهم، وكذلك قدم إلى مصر علماء من الأندلس نتيجة لما تعرض له المسلمون هناك من هجمات صليبية، وأيضاً قدم من المغرب علماء أرادوا الاستفادة مما توفره الإدارة المملوكية، وكذلك العلماء المغاربة الذين يزورون مصر لفترات قصيرة وهم في طريق ذهابهم أو إيابهم للحج[1]، و عندما تأثرت الشام بالاحتلال الصليبي رحلت مجموعة من العلماء، فنزلوا مصر وزادت الثقافة الدينية بمصر بوجود هذا الخليط الناضج من العلماء والذين قصدوها من شتى الأقطار الإسلامية، مما ساعد مصر لتكون ملتقى للعلماء، سواء كانوا مقيمين فيها بشكل دائم، أو زواراً في طريقهم إلى الحج، وقد كانت مصر حافلة بأماكن العلم ومجالس العلماء، وحرص سلاطين المماليك على بناء المدارس لاستقطاب أكبر عدد ممكن من العلماء

الطلاب إليه حتى توفي بصحراء عيذاب.(الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص282، تاريخ الإسلام، ج48، ص 273، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 504).

([1]) العبدري: رحلة العبدري، ص 138–143، ابن رشيد: ملء العيبة، ج3، ص 13.

الزائرين لمصر، وقد أسهم هؤلاء العلماء في النهضة الدينية، والثقافية في مصر، وأثروا تأثيراً إيجابياً.

وعندما حج السلطان منسا موسى سنة 724هـ، كان معه أعدادٌ كبيرةٌ من الحجاج، وبعد عودته من حجه نزل في مصر، وقابل فيها علماء ودعاهم إلى مملكته، وابتاع كتباً دينية شرعية، وكان هدفه من هذه الكتب أن يوفر الكتب الدينية والثقافة الإسلامية لأكبر عدد من أهل بلاده؛ لإتاحة الفرصة لهم للتعلم من هذه الكتب، وشجع عدداً من أبناء بلاده للاستقرار في مصر؛ لينهلوا من العلوم الشرعية المتاحة فيها، والتي يحتاجها سكان بلاده للتفقه في الدين[1]، وكانت الدعوة أيضاً للعلماء، بحيث شجعهم للسفر إلى بلاده لإقراء الناس القرآن الكريم والعلوم الشرعية الأخرى[2].

ولم يقتصر أثر الحجاج الديني والثقافي على بلدان مصر الرئيسة مثل الإسكندرية والقاهرة، بل امتد إلى البلاد الواقعة على طريق الحج الجنوبي إلى عيذاب، حيث كان الحجاج يؤثرون على الأُجراء الذين يحرسونهم، وذلك لأنهم يخالطونهم فترة من الوقت تمتد إلى خمسة عشر يوماً بين المحطات[3].

وخلاصة القول إن الآثار الدينية والثقافية للحجاج عبر طريق عيذاب سارت بخطى واسعة طوال العهود الثلاثة – فترة البحث – نحو الارتقاء بالموروث الديني، والثقافي للأمة الإسلامية العربية، وتميزت بنشاطها الواسع في فنون عديدة، وكان للحجاج آثارٌ ظاهرةٌ على طول الطريق، بل لم تتوقف الآثار في مصر فحسب،بل امتدت إلى الحجاز، وبعض من هؤلاء الحجاج استوطن الحجاز، وبعضهم عاد إلى مصر.

المبحث الثاني:الآثار السياسية:

عرف الحجاج مصر من خلال مرورهم بها عبر طريق عيذاب، وخبروا سياساتها وتمكن الفاطميون حكام المغرب من استغلال حالة الضعف التي تمر بها مصر من

([1]) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج2، ص 362.

([2]) العبيدي: العلاقات الخارجية لدولة المماليك، ص 244.

([3]) ابن جبير: الرحلة، ص 32.

الناحية الاقتصادية نتيجة للمجاعة التي عصفت بمصر بين سني (360-351هـ)، أيام حكم الإخشيديين، فنشط الفاطميون لبث دعوتهم فيها وتحقيق مطامعهم، في المقابل كان أهل مصر متطلعين لقوة تحكمهم، وتحقق لهم الأمن، والرخاء، والحماية من العدو الخارجي، بل إن بعض أهل الحل والعقد في مصر كاتبوا الحاكم الفاطمي المعز بالله كي يأتي لمصر[1]، الذي عزم على إرسال مولاه جوهر الصقلي بجيش كبير، فدخل مصر سنة 385هـ دون قتال، وشرع في أعمال توطيد الحكم للفاطميين فبنى مدينة القاهرة[2].

وقد كان للحجاج أثر سياسي، وذلك عندما أدرك العلماء منهم ما للفاطميين من أطماع لتغيير دين أهل مصر إلى ما يعتقده الفاطميون، فتصدى هؤلاء العلماء بعدما بادرهم الفاطميون بأعمال منها إتلاف مصنفاتهم، ومنع العلماء منهم من التدريس، والتضييق عليهم، فقام العلماء بإجراءات منها الحوار، ثم الجدال الذي أوضح بعض معتقدات الشيعة، مما أثار عليهم حفيظة بعض السكان، وعندما لم يجد هذا العمل نفعاً، أخذ العلماء وبخاصة منهم من حج ورأى أن وحدة المسلمين معرضة للتقسيم بوجود هذه الدولة في هذا المكان تحديداً، بادر في المقاومة المسلحة، وبعضهم أخذ جانب التأليف[3]، فكان لهم أثر بارز في الحراك السياسي، أيام الدولة الفاطمية، حتى إنها ضعفت بعد أن كثُر العلماء الذين أخذوا يتصدون للفاطميين ودعاتهم، وبالرغم من ميل الفاطميين إلى التسامح من الناحية الدينية في أيامهم الأخيرة، إلا إن العلماء واصلوا السير حتى شاركوا في إسقاط الدولة على يد صلاح الدين سنة 567هـ، بل إن بعض العلماء القادمين إلى مصر والذين استقروا فيها قد اتهموا الفاطميين بالتحالف مع النصارى في احتلالهم للشام[4].

([1]) المقريزي: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص96.

([2]) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج 2، ص 204-205.

([3]) المقريزي: المواعظ والاعتبار،ج2، ص 290.

([4]) أبو شامة: الروضتين، ج 2، ص 191.

وكان الحجاج وتحديداً العلماء منهم يمثلون المعارضة الفاعلة لمواقف الدولة، فنجد أن هذه المعارضة تزداد قوة في كل ما يمس الدين، وكانت تقاس قوة هذه المعارضة بمدى قوة الدولة وقوة السلطان.

وقد أدرك سلاطين المماليك أنه لا بد من الاعتماد في حكمهم الرسمي للبلاد على وجهاء البلاد، سواء أكانوا من السكان الأصليين،أو من السكان المستوطنين الذين قدموا للحج وفضلوا الاستقرار في البلاد، وأصبحوا مقصداً لطلاب العلم، فاعتمد عليهم المماليك في المحافظة على قيم المجتمع المسلم[1]، لذا نجد أن المماليك قد تحالفوا مع علماء الدين الإسلامي، وتحديداً العلماء المؤثرين بشكل كبير في الطلاب والمجتمع، حيث أظهروا لهم تمسكهم بالدين، والاهتمام بالأماكن المقدسة بمكة المكرمة[2].

المبحث الثالث: الآثار الاقتصادية والاجتماعية:

كان للعامل الجغرافي لموقع مصر بوقوعها على طريق الحجاج أثر بارز في الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية للحجاج القادمين من الأندلس وأفريقية عموماً، وفيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية فقد تعددت المهن، ووسائل الارتزاق التي امتهنها الحجاج المتجهون لمكة المكرمة عبر مصر، ومن المعلوم أن الحركة الاقتصادية دائماً تنشط في البلاد المستقرة سياسياً، ويؤكد ذلك ابن بطوطة بقوله:" والأسواق متصلة من الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد "[3].

ويمكننا القول إن مصر منطقة جاذبة، لوقوعها على طريق حجاج المغرب الإسلامي، ويعود ذلك إلى عوامل عديدة ومن أهمها:

العامل الجغرافي وذلك لقرب مصر من الحجاز، العامل التجاري حيث إن المغاربة ينضمون إلى الأماكن التي توجد بها عائلات من بلادهم، ويتعايشون معهم.

([1]) السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عايدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م، ص 38-39.

([2]) سعيد عبدالفتاح عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، 1964م، ج1، ص84.

([3]) الرحلة، ج1، ص 37.

وقد بلغ الوضع الاقتصادي في مصر مبلغاً مزدهراً في القرن الثامن الهجري، وانتشرت البضائع المطلية بالذهب والفضة[1].

وكان للزراعة نشاط كبير حيث تعتبر مصر من المناطق الزراعية لتوافر الأراضي الصالحة للزراعة والمياه المتدفقة من نهر النيل بشكل مستمر، والتي اعتمد عليها الزرَّاع في الري لمزروعاتهم، في حال استمرار منسوب مياه نهر النيل[2]، والزراعة لا تحتاج إلى تخصص في الأيدي العاملة، فبإمكان أي شخص زائر إلى مصر أن يعمل في هذا النشاط الحيوي.

وفيما يتعلق بالحياة الاجتماعية للحجاج الذين يعبرون طريق الحج المصري عبر عيذاب فقد كان لهم آثارٌ اجتماعية عديدة، فمن الحجاج من يفضل البقاء في مصر لأسباب كثيرة فيشارك المصريين في حياتهم الاجتماعية، وهذه المشاركة حظيت بقبول وتقدير المجتمع، وتحديداً في المدن فشاركوا في والأنشطة التجارية، والحرف اليدوية بأنواعها وأشكالها المختلفة، فأثروا تأثيراً إيجابياً في الحياة الاجتماعية[3]، وازدادت أنشطتهم سواء كانت علمية أو تجارية، وهذا القبول للحجاج المستقرين في المدن المصرية، كان له أثر في الانصهار، والاندماج مع فئات المجتمع، فنشأت علاقات اجتماعية كثيرة، منها التزاوج والمصاهرة، فانفتح أهل المدن المصرية على هؤلاء القادمين، فزوجوهم، وتزوجوا منهم، وازدادت وشائج العلاقة واطمئن القادمون لمصر، فأصبحوا من أفراد الشعب لهم ما للشعب، وعليهم ما عليهم[4].

وخلاصة القول إن أثر الحجاج القادمين والمستقرين في بعض الأحيان في مصر، كان أثراً بارزاً وفاعلاً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، لدرجة أنهم استطاعوا أن يغيروا في بعض المفاهيم الاجتماعية والعلمية والاقتصادية، بل نجح

([1]) حياة الحجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك، ص 200، 203

([2]) للاستزادة حول قصور نهر النيل وزيادة، وأثر ذلك على الزراعة. أنظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج3، ص 323،ج8، ص 333،335.

([3]) الذهبي: الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ)، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م، ج4، ص 66.

([4]) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج4، ص 242.

بعضهم في إقناع بعض رجالات الدولة وبخاصة الفاطمية بالسماح له في عرض دروسه التي تختلف مع مذهب هذه الدولة التي حكمت مصر ردحاً من الزمان[1].

الخاتمة:

الحمد لله الذي منّ عليّ بإتمام هذا البحث المعنون:(طريق الحج المصري عبر عيذاب من القرن الخامس إلى نهاية القرن الثامن الهجري)، فقد جرت عادة كثيرٍ من الباحثين أن يجعل خاتمة بحثه مكاناً لعرض أهم النتائج التي توصل إليها من خلال بحثه، وها أنا أسير على خُطى من سبقني في هذه الطريقة، وسوف أعرض أهم النتائج التي خَلَصتُ إليها من هذا البحث، ويمكن أن أقدمها في نقاط موجزة، منها:

- تعاقب الدول على حكم مصر أثر تأثيراً كبيراً على طريق الحج.
- اعتلاء السلطان صلاح الدين الأيوبي لسدة الحكم في مصر والقضاء على الدولة الفاطمية سنة 567هـ، قد ساهم في سلامة طريق الحج من خلال إلغاء المكوس والضرائب التي كانت الدولة الفاطمية تفرضها على الحجاج، بل وعوَّض أشراف مكة المكرمة عن الضرائب والمكوس التي قد فرضوها تأسياً بالدولة الفاطمية التي مدت نفوذها ولو اسمياً على الحجاز في فترات زمنية محددة.

- حقبة الدولة الأيوبية تعد من أزهى الفترات التاريخية، فيما يتعلق بطريق الحج، وما يقدم للحجاج من خدمات وتسهيلات.

- اهتمام حكام بني أيوب وعلى رأسهم السلطان صلاح الدين الأيوبي بالحجاج وإصلاح الطرق التي يسلكها الحجاج.

- كشفت الدراسة في هذا البحث عن شدة التنافس من قبل الدول سواء كانت تصف نفسها بإسلامية أو غير ذلك للسيطرة على مصر والشام، وذلك لموقعها الاستراتيجي، وأنها حلقة وصل بين القارات أو بين المناطق المهمة للمسلمين.

([1]) ابن الزيات: الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، ص 236-237، المقري: نفح الطيب، ج2، ص 290-293.

– كشفت أيضاً عن الأسباب الرئيسة التي أدت إلى ترك الطريق الشمالي وتحول الحجاج والتجار إلى الطريق الجنوبي عبر عيذاب.

– تميز موقع عيذاب البحري، وأنه صالح للملاحة واستقبال السفن ورسوها فيه على اختلاف أنواعها، وأحجامها، ومقابلته إلى حد ما لميناء جدة في الجزيرة العربية، والذي يعد مقصداً لكثير من ركاب السفن، لذا كانت عيذاب هدفاً لكل القوى المحيطة بها.

– كشف البحث عن معاناة الحجاج على هذا الطريق سواءً معاناةً جسدية أو مالية أو أمنية.

– طريق الحج قد كان هدفاً استراتيجياً للصوص من العربان المترصدين لقوافل الحجاج، وبعد القضاء على الخطر الصليبي ظل خطر العربان يهدد الطريق بشكل دائم وبخاصة عند ضعف الدولة.

– ولأهمية ميناء عيذاب أنشأت الدول المسيطرة على مصر أسطولاً لحماية سفن الحجاج العابرة إلى البحر الأحمر.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي(ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، 1402هـ 1982م
- ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود (578هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1414هـ/ 1994 م.
- ابن بطوطة: محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (779هـ)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة العصرية، صيدا لبنان،1432هـ 2011م.
- ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف (874هـ)، النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الوطنية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت.
- ابن جبير: أبو الحسين محمد (614هـ)، رحلة ابن جبير، المسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1431هـ 2010م.
- ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (حوالي 280هـ) المسالك والممالك،دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1408هـ/1988م.
- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت، 1401هـ – 1990م.
- أحمد درّاج: عيذاب من الثغور العربية المندثرة، مقال بمجلة نهضة أفريقيا، العدد التاسع والعاشر، يوليو وأغسطس، 1958م.
- الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله (560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينيّة، بورسعيد، د.ت.
- آدم متز: الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، 1360 هـ، 1941م.
- الأشرف الرسولي: إسماعيل بن عباس الرسولي (803هـ) طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق: ك.و.ستروستين، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1406هـ/1985م.
- الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (241هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ/ 2001 م.

- الإمام مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صل الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (297هـ) فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م.
- التجيبي: القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (730هـ)،مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور،الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1965م.
- الجزيري: عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن محمد (1295هـ)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكّة المكرمة المعظّمة، المطبعة السلفّية، القاهرة، 1384هـ.
- حسن صالح شهاب: المراكب العربية تاريخها وأنواعها، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، د.ت.
- حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر الأبيض المتوسط والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1411هـ/1991م.
- حياة بنت ناصر الحجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرن الثامن والتاسع الهجريين، جامعة الكويت، 1995م.
- درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، 1974 م.
- الذهبي: الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ)، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م.
- الزبيدي: محمد بن محمد بن عبدالرازق الزبيدي (1205هـ)، تاج العروس في جواهر القاموس،دار الهداية، الرياض، د.ت.
- سبط ابن الجوزي: يوسف بن عبدالله، (654هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، د.ت.
- سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية،الكتاب العربي،القاهرة،د.ت.
- السُّلَميّ: عزّام بن الأصبغ (مات في القرن الثاني الهجري)، كتاب أسماء جبال تهامة وسكّانها، من: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، بيروت، 1411هـ 1991م.
- سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافيّة لدروب الحج، دار تهامة، ط1، جدّة، 1401هـ 1981م.
- السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عايدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1995م.
- عبدالعزيز بن راشد العبيدي: العلاقات الخارجية لدولة المماليك الأولى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون،(741-693هـ/1293-1340م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، 11405هـ.

- عبدالعزيز بن عبدالله بن باز: (1420هـ)، التبرج وخطر مشاركة المرأة للرجل في ميدان عمله، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.
- العبدري: أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري الحيحي (737هـ)، رحلة العبدري المسمّاة الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968م.
- عطية القوصي: تاريخ دولة الكنز الإسلامية،دار المعارف المصرية، ط2، د.ت.
- علي بن حسين السليمان:العلاقات الحجازيّة المصرية زمن سلاطين المماليك، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، 1393هـ / 1973م.
- الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد المكي (832هـ) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ1986م.
- الفريد لوكاس: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكي اسكندر، د.ن، القاهرة، 1945م.
- القلقشندي: أحمد بن علي (821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- محمد حمدي المناوي:نهر النيل في المكتبة العربية،الدار القومية للطباعة،القاهرة، 1386هـ /1966م.
- محمود علي مكي: أثر الحج في الثقافة الأندلسية ورحلة أبي مروان الباجي، مجلة الحج والعمرة، السنة السابعة والخمسون، والعدد الخامس، رجب، سنة 1423هـ، سبتمبر – أكتوبر، 2002م.
- المقدسي:شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّا الحنفي (375هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، مطبعة بريل، 1909م.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر (845هـ)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار،دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ.
- ناصر خسرو: أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي (481هـ)، سفر نامة، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 1983م.
- ياقوت الحموي:شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (626هـ)،معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهيب بن واضح (توفي بعد 292هـ)، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

قبائل البجة في شرق السودان في مدونات الرحالة والحجاج

د. محمد قمر الحاج

الحجاج والرحالة المسلمون وإسهاماتهم في الدعوة:

لم تكن الجهود التي بذلها الحجاج والرحالة في مجال نشر الدعوة الإسلامية تقل أهمية عن الجهود التي بذلها الدعاة في المجال هذا فبالرغم من أن الحجاج والرحالة كانوا ينظرون لبلاد البجة بعامة ولموانئها لخاصة على اعتبار أنها تمثل منطقة أو نقاطاً يعبرون منها إلى بلاد الحجاز، إلا أن الجهود التي بذلوها كانت جهوداً كبيرة ساهمت بشكل واضح في تحويل البجة للإسلام.

وقد ساعد في تحقيق تلك الجهود عدد من العوامل المهمة منها ما يلي:

أولاً: ارسال العباسيين لعدد من الحملات لتأمين الطريق ابتداءً بحملة بن **الحجاب** سنة 105 هـ [1]، وانتهاء بحملة العمري سنة 255 هـ [2].

ثانياً: الاستقرار الأمني النسبي الذي طال المنطقة الممتدة من نهر النيل غرباً حتى سواحل البحر الأحمر شرقاً ؛ نتيجة للاتفاقيات التي وقعت مع ملوك البجة من جهة ومع ملوك النوبة في وادي النيل من جهة أخرى، والتي تضمنت في بعض بنودها شروحاً ألزمت البجة بعدم التعرض للحجاج وغيرهم بأي نوع من الأذى، سواءً أكان ذلك في البر أو في البحر، وألزمتهم كذلك بحفظ طريق القوافل الممتد من أسوان وقوص في جنوب مصر والموانىء البجاوية في سواحل البحر الأحمر مثل عيذاب وسواكن[3].

---

1. ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 189.
2. البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص 63.

ثالثـــاً: أَمـرْ الخليفـة المتوكـل بتوليـة طريـق الحـج لأحـد قـواده يؤكـد حـرص العباسـيين علـى فـرض نفـوذهم وحمـايتهم لرعايـة الموجـودين فـي هـذه المنطقـة، سـواءً أكـان هـولاء الرعايـا مسـتقرين أو عـابرين [2]، وهـذا الأمـر جعـل الحجـاج يشـعرون أنهـم تحـت رعايـة أمينـة جـادة فـي حمـايتهم وضمان سلامتهم.

رابعـــاً: قـرب المسـافة بـين المـوانىء البجاويـة وبـين مـوانئ الحجـاز، وخلـو المنـاطق السـاحلية المتاخمـة للمـوانئ البجاويـة مـن العوائـق الطبيعيـة أو قلتها بتعبير أدق.

خامســاً: التعـاون والتـداخل الـذي حـدث بـين البجـاويين وبـين العناصـر العربيـة المهاجرة وانعكس ذلك بشكل عام على استقرار المنطقة.

هـذا ويمكـن تصـنيف الجهـود التـي بـذلها الحجـاج والرحالـة إلـى جهـود مباشـرة وأخـرى غيـر مباشـرة. فمـن جهـودهم المباشـرة تـأثيرهم الواضـح فـي البجـاويين الـذين كـانوا يعملـون معهـم كـأجراء لحراسـة القوافـل التجاريـة، ذلـك أن المـدة التـي يمضـيها الرحالـة الحجـاج فـي الطريـق مـن مـدن جنـوب مصـر حتـى مـوانئ البجـة كانـت تصـل إلـى خمسـة عشـر يومـاً [3] وأحيانـاً إلـى أكثـر مـن ذلـك [1][1]، ممـا أتـاح الفرصـة لهـؤلاء الحـرس للإسـتفادة وللتعـرف علـى الحجـاج المسـافرين فـي هـذه القوافـل، كمـا أن ذلـك قـد أتـاح فرصـاً كبيـرة لهـؤلاء الحجـاج لـدعوة هـؤلاء الحـراس للإسـلام، ولا سـيما أن الحجـاج كـانوا يـدركون أن بعضـهم قريـب مـن الإسلام بسبب بدواتهم وبقائهم على فطرتهم [2].

فكانوا يدعونهم أحياناً دعوة مباشرة للدخول في الإسلام، أحياناً يعتنقه البجاويون من تلقاء أنفسهم ؛ بسبب تأثير الحجاج غير المباشر عليهم، ذلك أن الحجاج كانوا أحياناً يقومون بمناقشة بعض القضايا الخاصة بتعاليم الإسلام خصوصاً

---

1. ابن الوردي: فريدة العجائب، ورقة 23.
2. القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص 209.
3. ابن جبير: الرحلة، ص 65
4. العديل: الراكب مع الانسان في الناحية الثانية من الجمل ليعادله

ما يتعلق منها باحكام الحج والعمرة، كما كانوا يقومون بحفظ وتسميع القرآن الكريم، خصوصاً أن عدداً كبيراً منهم كان يستفيد من مسافة الطريق، فيبدأ في حفظ القرآن الكريم وتجويده ومراجعته [3]. كما كان بعضهم الآخر يعمد إلى حاجٍ آخر فيطالع معه في كتاب أو يناقشه في بعض القضايا الفقهية أو الفكرية أو الأخلاقية التي يتطرق إليها الكتاب، وقد كان يعينهم في ذلك أن أصحاب القوافل من البجة وغيرهم . تسهيلاً وتيسيراً للحجاج، كانوا يعمدون إلى جملين من الجمال فيوصلون بينهما بـ" الحبال الوثيقة"، فتوضع على البعير ولها أذرع قد صفت بأركانها، يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله [4] فيكون في أمان من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكئاً، ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد وسواه، ويطالع متى ما شاء المطالعة في مصحف أو في كتاب " [1]. وبلا شك فإن هذا النشاط قد أثر في نفوس كثير من هؤلاء البجاويين الذين كانوا يعملون في خدمة الحجاج والرحالة، ولا سميا أن مسافة الطريق تعتبر عاملاً مساعداً في ذلك.

على أن أكثر ما استفاده البجة بشكل مباشر من الرحالة والحجاج هو ما تحقق للساكنين في المدن من كسب ثقافي، وحضاري إبان إقامة هؤلاء الحجاج في الموانىء البجاوية بانتظار السفر إلى ميناء جدة، حيث كانت تتفاوت **مدد** إقامتهم وتصل أحياناً إلى سنة كاملة في انتظار إقلاع السفن من عيذاب أو من سواكن[2]، لأسباب طبيعية تتمثل في حركة الرياح في غالبها، فكان الحجاج يعقدون حلقات للعلم تتناول في غالبها مسائل الحج والعمرة، فتأثر بها البحاويون الذين كانوا يقيمون معهم كثيراً، ولا سيما أن بعض هولاء الحجاج كان على دراية وعلم بالأحكام التي تتعلق بالحج والعمرة. كما أشرنا سابقاً.

ولعل إقبال الحجاج على السفر من موانيء البجة جعل بعضهم يتحرى عن الإحرام منها قبل انطلاقه [3]، بالإضافة لحلقات النقاش والحوار الفقهي وكان بعض الحجاج الذين يطول بهم المقام في موانئ البجة يقوم بإمامة الناس والصلاة بهم سواءً أكانوا من العرب أو من البجة

الذين تحولوا للإسلام، ويخطب فيهم ويصلي بهم صلاة الجمعة [1] ، ويستمر يصلى بهم إلى أن يحين وقت سفره إلى بلاد الحجاز[2]، على أن إمامة الناس في

الصلاة على النحو الذي ورد لم تكن تتم مبادرات من هؤلاء الحجاج والرحالة فحسب، بل غالباً ما كانت تتم بطلب ورغبة من البجاويين والحجاج أنفسهم [3]، بل ربما دعا بعض هؤلاء الحجاج والرحالة ومن معهم من البجاويين من يرتضون دينه وعلمه لإمامتهم والدعاء لهم عند الشدة والملمات، ولاسيما أن بعض الحجاج كان يتعرض لكثير من الصعاب والمحن في سفره، وكثيراً ما كانت تُردَّدُ عبارات تدل على ذلك مثل قول أحد الحجاج الرحالة الذين تعرضوا لمثل هذه المحن: " افتقد منا شيخنا وسيدنا ورفيقنا للصلاة، فصلى بنا ما قدر، ثم لما سلم من آخر الصلاة دعا لنا دعاءً حسناً، وأمن الحاضرون، ثم دعونا أفذاذاً، وذرفت العيون ووجلت القلوب فاستجاب الله تعالى دعاء الجميع بمنَّه وفضله وحلَّ وثاقنا" [4]. كذلك كان من جهودهم المباشرة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوساط البجاويين إتاحة الفرصة لمن أسلم منهم للحج وأداء المناسك في صحبتهم والسفر معهم، وبخاصة البجة الذين يعملون في الموانئ، فكانوا بحكم قربهم من الحجاج يجدون منهم التشجيع على السفر معهم لأداء فريضة الحج، كما كانت تشجعهم كثرة المراكب البجاوية القادمة من بلاد اليمن وبلاد الهند. حيث كانت تمر أو ترسو جدة قبل مواصلة رحلاتها [1]. كذلك كان تشجعهم زيادة أعداد المراكب الخاصة بالحجاج [2]، حيث كان سبب زيادتها تُحَوَل إقليماً كاملاً من أقاليم البجة للإسلام، فأصبح أهل الإقليم يؤدون فريضة الحج شأنهم في ذلك شأن البجة الذين سبقوهم إلى الإسلام وإلى أداء فريضة الحج، وعنهم يقول ابن حوقل: " ويختص أهل تفلين [3] بالإبل والبقر، ولا زرع لهم، فيهم مسلمون كثيرون ويصون على دينهم، يتاجرون ويسافرون إلى مكة " [4]، وليس من المستبعد أن يكون تحول هذه المملكة إلى الإسلام قد تم في فترة مبكرة على يد التجار والرحالة وغيرهم من الفئات التي اعتادت على ارتياد تلك المناطق[5].

ومهما يكن من أمر فإنه من الواضح أن أهل البجة بعامة وأهل عيذاب وسواكن [6] بخاصة قد عرفوا الحج كفريضة إسلامية منذ وقت مبكر، كما عرفوا طريقهم إلى المشاعر المقدسة، وأصبحوا معروفين لدرجة أن خصص لهم رواق كان يعرف برواق أهل سواكن، ولا بد أن الحجاج البجاويين قد استفادوا كثيراً من التقائهم مع الحجاج الآخرين القادمين من كل مكان، مما مكنهم من الاستفادة من العلوم و

المسائل الفقهية المختلفة التي كان يتداولها الحجاج، فضلاً عن استفادتهم من العلماء والفقهاء الذين كانوا يقيمون حلقات الدرس المختلفة في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

هذا ويبدو أن الحجاج المارين أو المقيمين بالموانئ البجاوية كانوا ينظرون إلى البجة على اعتبار أنهم من المؤلفة قلوبهم، لذا كانوا يغضون الطرف أحياناً عن تصرفات بعضهم تجاه الحجاج خصوصاً في مسائل البيع والشراء على النحو الذي وردت تفصيلاته سابقاً، كما يبدو أنهم كانوا يغضون طرفهم عن بعض العادات أو السلوكيات التي يسلكها البجة خصوصاً فيما كان يتعلق منها بعاداتهم الاجتماعية، فضلاً عن تعديل سلوكهم وارتقاء تعاملهم مع الآخرين[1].. أما المساهمات غير المباشرة للحجاج والرحالة في مجال خدمة الدعوة الإسلامية فإنها تنحصر غالباً في توفير المعلومات الضروية عن أهم الطرق المؤدية إلى الموانئ البجاوية، والمسافات الفاصلة بين هذه الموانئ وبين مدن جنوب مصر [2]، مع بيان أنسب الوسائل التي تتفق مع تلك البيئة، حيث ذكروا أن الإبل تعتبر أهم وسيلة تتناسب مع المسافرين ؛ بسبب صبرها وقوة تحملها للعطش، خصوصاً في ظل ندرة المياه وقلة مواردها في المنطقة، هذا وقد استفادت القبائل العربية كثيراً من هذه المعلومات، فأصبحوا يتخيرون أنسب الإبل وأصحها [3]، وأقصر الطرق وأكثرها أمناً للسفر لبلاد البجة.

كما قدمت هذه العناصر معلومات أخرى استفادت منها القبائل المهاجرة والدعاة وغيرهم، منها ما يتعلق بأماكن توفير المياه الصالحة للشرب عبر طرق القوافل، وأسماء أهم الآبار الموجودة على طول الطريق القاصد من أسوان وقوص على نهر النيل إلى الموانئ البجاوية مثل عيذاب وسواكن[1]، هذا فضلاً عن المعلومات القيمة التي أوردوها عن أوضاع البجة الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم، مثل التعريف بالنظام الاجتماعي الخاص بالتوريث عندهم، والذي يقضي بتوريث ملك البجة لابن البنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب[2].

1. انظر الفصل الخامس، تنشيط حركة الموانئ البجاوية، أثر النشاط الاقتصادي على المنطقة
2. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 7، ص 78
3. انظر الصفحات التالية التصاهر العربي البجاوي

وكانت القبائل العربية أكثر تلك العناصر استفادةً من المعلومات، فعملت على مصاهرة البجة وأقبلت على التزوج من بنات أعيانهم [3]، مما أتاح الفرصة لدعوة البجة للإسلام على نحوٍ موسعٍ.

هذا وقد طال هؤلاء الرحالة والحجاج يؤدون واجباتهم في نشر الدعوة الإسلامية وسط البجاويين برغم المشاكل والصعوبات الكثيرة التي كانت تواجههم، والتي من أهمها ندرة المياه الصالحة للشرب في المنطقة سواءً في المراكز والنقاط البجاوية التي تمر بها القوافل، أو في الموانئ والمدن البجاوية على ساحل البحر الأحمر، السبب في ذلك يعد لقلة الأمطار في هذه المنطقة، كما يرجع إلى جفاف الآبار والأودية الموجودة في تلك المناطق، فكانت مشكلة عدم توافر المياه من أكبر المشكلات التي ظلت تواجههم، لذا كانوا يحرصون حرصاً شديداً على إكراء الجمال النشيطة التي تتحمل مشاق الطريق والعطش، وتتحمل أثقالاً إضافية من المياه الصالحة للشرب [1] ، أما في حال وصولهم للمدن الرئيسة أو للموانئ البجاوية الواقعة على سواحل البحر الأحمر، فكانوا يعتمدون على المياه التي يجلبها البجة من خارج هذه المدن ويبيعونها لهم [2]، لكن تلك المياه على غلاء ثمنها لم تكن مستساغة ؛ بسبب أنها ثقيلة على المعدة، وتشغلهاعن اشتهاء الطعام، وربما جلب إليها يسير من ماء المطر، لكنه مختلط في الغالب بأبوال الغنم، وسخن كأنه ماء الحمامات "[3]، ومما يزيد هذه المشكلة تعقيداً أن تلك الموانئ كانت " أشد البلاد حراً، لا يكاد الإنسان أن يتنفس فيها إلا ويخيل إليه أن أحداً قد أمسك بأنفه، وكأنه النار. نعوذ بالله منها . تلفح وجه الإنسان فيها، ومن العجب أن ماء بحرها حار أيضاً يخيل إليك أنه سخن بالنار، حتى صار كأشد ما يوجد في الحمامات؛ وسبب ذلك شدة حر الشمس"[4]، على أن أشد هذه الأخطار التي كان يتعرض لها الحجاج هو الخطر الصادر من بعض البجة الذين كانوا يكرون الجمال لهم نظير أجر معلوم متفق عليه، ذلك أن بعض هؤلاء كان يطمع في أكثر مما يتم الاتفاق عليه " فيسلكون بهم . أي بالمسافرين – غير طريق الماء، فربما يذهبون بهم إلى أكثر المناطق عطشاً، ومن ثم يحصلون على ما يخلفونه من نفقة أو سواها "[5]، ويروى ابن حوقل في هذا الصدد أن بعض البجة قد قاموا في سنة أربع ومائتين للهجرة **بتوهان** عدد الحجاج القادمين من مصر،

ثم قاموا بقتلهم إلا غلاماً صغيراً، بعد أن غلبوا رئيسهم الذي كان يُعرف بمرجب حيث بيّن لهم أن هنالك علاقات ومصالح تربطهم بهؤلاء المسلمين [1]، وحذرهم من مغبة فعلهم هذا، إلا أنهم قد امتنعوا عن سماع نصحه وتوجيهه، فقاموا **بتوهان** هولاء الحجاج في الصحراء حتى ماتوا عطشاً، وقد كانت حجتهم في ذلك أن هؤلاء الحجاج قد يشكلون خطراً عليهم ؛ بسبب معرفتهم بديارهم ومظان مياههم [2]، وعلى الرغم من أن المسلمين قد أخذوا بثأر هؤلاء الحجاج من هؤلاء البجة الذين نقضوا الاتفاق الموقع معهم[3] – والذي التزموا فيه بعدم المساس بالمسلمين الطارقين والمارين بديارهم، حجاجاً كانوا أو تجاراً أو رحالة أو غير ذلك – إلا أن هذه الحادثة تشير إلى حجم المخاطر التي كان يتعرض لها الحجاج المارون ببلاد البجة، أما الذين تقدر لهم النجاة من مثل هذه المحن، فإنه "يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن، ففي مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم آية للمتوسين"[4].

وعلى أن تلك الصعوبات التي واجهت الحجاج والرحالة وغيرهم لم تقف عند ذلك الحد، بل نجد أنهم قد لازمتهم حتى في حالة سفرهم وعبورهم بالمراكب والسفن إلى سواحل الحجاز، فبالإضافة إلى العوامل الطبيعية المتمثلة في الرياح العاتية التي كانت تغير مسار السفن، وتهدد سيرها بالأمواج، فقد كانت هنا أيضاً الشعاب المعترضة التي تغير من حركة الموج وتؤدي إلى إغراق السفن بمن فيها في حال الارتطام بها[5]،أحياناً يضطر الحجاج والمسافرون للعودة مرةً اخرى لميناء عيذاب بسبب تلك المخاطر.[1]

ويبدو أن معاناة الحجاج من البجاويين وبخاصة أصحاب المراكب منهم كانت أكبر من معاناتهم من العوامل والظروف الطبيعية التي سبقت الإشارة إليها، والسبب في ذلك أن أصحاب المراكب كانوا يستغلون حاجة الحجاج وحرصهم على السفر لإدراك فريضة الحج، فيبالغون في المبالغ التي يطلبونها من الحجاج والرحلة

1. القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص 213
2. ابن جبير: الرحلة، ص 70

إلـــي مينـــاء جـــدة، ثـــم إذا قبضـــوا الـــثمن مقـــدماً، شـــحنوا المراكـــب بالحجـــاج شـــحناً لدرجـــة يصـــعب فيهـــا أن يتحـــرك الحـــاج أقـــل حركـــة حتـــى يصـــل إلـــي مينـــاء جـــدة علـــى ذلـــك النحـــو، ولعـــل هـــذا الأمـــر هـــو مـــا دعـــا بعضـــهم لوصـــف هـــؤلاء البجـــة " بـــأنهم أمـــة لا أخـــلاق لهـــم ولا جنـــاح علـــى لاعنهم". [2]

ثانيا أثرهـم فـي انتـشار اللغة العربـية:

كان معظم البجاوية يتحدثون لغة خاصة بهم تعرف بالتبداوية [1(1)]، كما كانت لبعضهم لغات أو لهجات يتحدثون بها غير التبداوية تشادية في مفرداتها وعباراتها وطريقة نطقها مع بعض لغات الحبشة [2] وقد إنتشرت هذه اللغة المتشابهة للغات الحبشية في المناطق الواقعة في جنوب بلاد البجة المتاخمة لبلاد الحبشة [3].

على أن تلك اللغة التي كانت يتحدث بها البجة لم تكن تخلو من بعض الألفاظ والعبارات العربية في الفترة التي سبقت وصول الإسلام إلى المنطقة حيث تسربت بواسطة التجار والقبائل العربية التي هاجرت إلى هناك في فترة مبكرة واستقرت في البلاد وصاهرت أهلها [4]، وقد شمل هذا الأمر كثيراًمن اللغات الإفريقية المحلية التي ارتبط أهلها ارتباطاً قوياً بالعناصر العربية التي كانت تفد إلى مناطق الساحل الإفريقي وبخاصة المدن الإفريقية الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربية، ومما ساهم في تسرب بعض المفردات العربية للغات السكان في تلك المناطق التشابه الكبير في بعض التراكيب والضمائر وأسماء العدد، والتثنية، وقواعد الصرف والنحو والأصوات بين اللغة العربية واللغات السامية الأخرى التي يتحدث بها سكان تلك المناطق [2(1)]،

1. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 55 – 56
2. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 471
3. القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص 206
4. عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، ص 13
1. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص 51
2. اليعقوبي: البلدان، ص 121

إلا أن مدى توسع انتشار اللغة العربية كان محدوداً وانحصر في تسرب بعض المفردات في هذه المرحلة.

أما بالنسبة لبلاد البجة فبعد أن تعرف إليها المسلمون وتوطدت صلاتهم بها، وفتحت البلاد من خلال الوسائل المختلفة للعناصر والفئات الإسلامية التي دخلت في علاقات اجتماعية واقتصادية واسعة معهم، بدأت اللغة العربية تعرف طريقها إلى مواطنهم بشكل واضح، بيد أن تغلغلها واستيطانها في البلاد قد حدث ببطء شديد، كما أنها تأثرت باللغات المحلية التي كانت سائدة هناك في بداية الأمر خصوصاً فيما يتعلق بمخارج الأصوات، ونطق الكلمات، وذلك بخلاف الدعوة الإسلامية التي كانت قد قطعت أشواطاً كبيرة في الاستقرار والتوطن في البلاد، ولعل مرد ذلك الأمر يعود إلى عدة أسباب من أهمها أن العناصر الإسلامية التي حملت الدعوة الإسلامية وبسط تعالم الإسلام بين السكان الوطنيين في تلك المناطق.

هذا وقد كانت أكثر المناطق البجاوية التي انتشرت فيها اللغة العربية هي المناطق التي حدث فيها احتكاك مباشر بين الجماعات الإسلامية العربية، من الرحالة والحجاج وبين قبائل البجة (2)، وهي المناطق الحضرية المتمثلة في المدن الرئيسة الواقعة على طرق القوافل الرئيسة ومن أهمها صيحة وهجر والنماس، والمحدثة وغيرها، والمتمثلة كذلك في الموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر ومن أهمها مدينتا سواكن وعيذاب. كما شهدت مناطق التعدين المختلفة احتكاكاً و تداخلاً بين مختلف العناصر الموجودة هناك، وأمكن من خلال ذلك تسريب كثير من المفردات والعبارات العربية للبجاويين العاملين في تلك المراكز [1].(1)

إلا أن ذلك لا يعني أن أنتشار اللغة العربية قد انحصر فقط في أوساط البجاويين المستقرين في المناطق الحضرية المشار إليها فحسب، بل إن بعض البجاويين الذين كانوا يسكنون في المناطق الصحراوية وفي الوديان البعيدة عن مناطق العمران قد عرفوا اللغة العربية وتسربت إليهم مفرداتها أما بواسطة التجار الذين

1. المصدر السابق، ص 122
2. ابن بطوطة: الرحلة، ص 345.
3. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 57

يمرون بتلك المناطق في بعض الأحيان،أو بواسطة القبائل العربية التي آثرت الاستقرار في تلك المناطق [2]،بل إن بعض الأقاليم البجاوية التي وصلت إليها تلك العناصر قد تعلم بعض حكامها اللغة العربية واصبحوا يتحدثون بها،بعدأن تركوا الوثنية واعتنقوا الدين الإسلامي [3].

ويمكن من خلال تتبع مسار اللغة العربية تبين عدد المظاهر الدالة على انتشارها وتوسع استخدامها في بلاد البجة جنباً إلى جنب مع اللغة البجاوية المحلية، ومن أهم تلك المظاهر ما يلي:

1- استخدام البجة الأسماء العربية ذات الصبغة الإسلامية الواضحة وذلك منذ فترة مبكرة قد تعود إلى ما قبل سنة 216هـ، وهي السنة التي وقع فيها عبد الله بن الجهم اتفاقية مع الملك البجاوي كنون بن عبد العزيز الذي يلاحظ من اسم أبيه مدى التداخل الذي حدث بين الوافد الإسلامي المحلي البجاوي[1](1)ومثله الملك البجاوب على بابا، وغيرهم من البجاويين، مما يؤكد أن أسماء البجة قد استعربت إلى حدٍ كبيرٍ، وأضحت شديدة الارتباط بالثقافة الإسلامية [2].

2-تمثل أسماء المدن البجاوية صورة أخرى من صور استخدام اللغة العربية مثل مدن سواكن، وصيحة وهجر، والمحدثة وعذاب، والنماس وغيرها من المدن الأخرى التي ظهرت فيها العربية بشكل جلى [3].

3- حملت مراكز التعدين عن الذهب التي توسعت وازدادت أعدادها بشكل كبير في المنطقة أسماء عربية واضحة الدالة، مثل جبل صاعد، ودخم، وبطن وماء الصخرة، والأخشاب، وعربة بطحاء، والبضة وقير أبي مسعود، وميزاب (فهذه المعادن التي يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر)، ويضاف إلى تلك المراكز الإسماء

1. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، عن المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 195
2. الطبري: تاريخ الأمم والملك، ج9، ص 203 – ابن الأثير: الكامل، ج5، ص 95
3. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 202
4. اليعقوبي: البلدان، ص 120
5. المسعودي: مروج الذهب، ج 3، ص 46

التي أطلقت على أنواع الذهب نفسها ومنها العروس، والخصوم، وكوم الصابوني، ومكابر وغيرها [4].

ومثل الذهب قسم الزمرد إلى أنواع حملت أسماء عربية واضحة مثل المرّ، والبحري، والمغربي، والأصم [5].

4-وكما أعطت البجاويين ومدنهم ومراكز التعدين المنتشرة في بلادهم مؤشرات مهمة على تسرب الكثير من مفردات اللغة العربية إلى بلادهم، أعطت الأسماء التي أطلقت على الآبار والمراكز المهمة الواقعة على الطريق الواصل بين مدن مصر الجنوبية ومدن الساحل البجاوي مؤشرات مهمة كذلك، فمن الأسماء التي حملتها تلك المراكز الآقار الخبيب وحجاج، وشاغب، وأمتان وغيرها، ومثلها حملت المراسي التي تبحر منها السفن التجارية أسماء عربية بينة، مثل مراسي الجدير، والمربوطة، والواسعة، وخلافها [1].[1]

ومن الملاحظ أن هذه الأسماء التي أطلقت سواء على مراكز التعدين، أو الآبار، أو المراسي أو غيرها قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالبيئة المحلية، وبالأعمال التي ارتبطت بحركة التجار والمهاجرين و الحجاج وغيرهم، مما يؤكد مدى تأثيرهم الواضح على البجاويين في هذا المجال.

5- توسع انتشار اللغة العربية في بعض الأقاليم البجاوية، خصوصا أن بعض حكام تلك الأقاليم قد تحولوا للإسلام ثم تعلموا اللغة العربية تبعاً لذلك التحول، يقول ابن حوقل عن بعض جماعات تلك الأقاليم " ولهم ملك مسلم يتكلم بالعربية " [2].

6- لجأ بعض قادة المسلمين لاتخاذ الحيلة في قتال البجة يؤكد انتشار اللغة العربية في أوساط عامة البجة، ومن ذلك الرقاع التي كتبها محمد القمي، ورفعها على أسنة الرماح قبل مواجهته

1. ابن جبير: الرحالة: ص 65
2. صور الأرض،ص 57
3. المصدر السابق، ص 54،55

لهـم حيـث كتـب فيهـا " هـذه كتـب أميـر المـؤمنين إلـيكم معاشـر البجـة "[3]، ومهما تكن النتائج التي

تحققت من هذه الحيلة، إلا أنها تدل دلالة واضحة على تعلم عددٍ غير قليل من البجة اللغة العربية [1].[1]

7- الآثار والحفريات التي تمت في بلاد البجة حيث عثر على شواهد تحمل التاريخ الهجري، والأسماء العربية وذلك في منطقة خور نبت الواقعة مسافة سبعين ميلاً غربي ميناء سواكن، يعود تاريخها إلى فترة مبكرة ربما ترجع إلى منصف القرن الثاني الهجري، وهي بذك تدل على أن اللغة العربية قد عرفت طريقها لبلاد البجة في فترة تاريخية متقدمة جداً، ويرجع أحد الباحثين أن تلك الجهود قد بذُلت من بقايا الأمويين الذين لجأوا إلى تلك البلاد إثر قيام الدولة العباسية [2].

وإذا كانت تلك المظاهر قد دلت دلالة واضحة على جهود الرحالة والحجاج في نشر اللغة العربية في بلاد البجة، فإنه من الواضح كذلك أن بعض هؤلاء الحجاج والرحالة وغيرهم من العناصر العربية المهاجرة قد تعلموا اللغة البجاوية حتى يسهل لهم التعامل معهم خصوصاً بعد أن استقروا في مناطق مختلفة من بلادهم، وبعد أن أضحت لهم مصالح كثيرة هناك، هذا فضلاً عن رغبة بعض هؤلاء في التأثير على البجاويين ودعوتهم للإسلام، ومما يؤكد هذا الأمر ما ذكرته المصادر من أن رجلين من سكان مدينة جدة هما زكريا بن صالح الخزومي، وعبد الله بن إسماعيل القرشي قد قاما بترجمة الاتفاقية التي وقعها عبد الله بن الجهم مع ملك البجة كنون بن عبد العزيز للغة البجاوية [3]. وما ذكرته تلك المصادر أيضاً أن أحد العارفين باللغة البجاوية من المسلمين قد قام بترجمة الحوار الذي دار بين الخليفة المتوكل وبين على بابا الملك البجاوي إبان زيارة الأخير لبغداد أواخر سنة 241 هـ.

---

1. مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص 49
2. المصدر السابق
3. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، عن المواعظ والاعتبار ج 1، ص 196

على أن اللغة العربية التي انتشرت وسط البجاويين لم تكن تخلو من بعض الاختلافات الشكلية بين اللهجات العربية القبلية، ويظهر أن مرد هذا التعدد يرجع إلى أصولها القديمة التي عاشت بها القبائل العربية في الجزيرة العربية [1(1)]، بيد أن هذه الاختلافات الشكلية لا تعدو أن تكون تغييراً طفيفاً في النطق أو تغييراً لبعض الحروف والحركات بالإبدال أو الحذف، ويمكن حصرها في أربع مسائل [(2)]، هي تغيير نطق بعض الحروف، وتغيير الحركات وحذف بعض الأصوات، وتغيير مدلول الكلمة، بيد أن الفروق لا تمثل اختلافاً جوهرياً يحول دون قيام ثقافة ذات مضمون واحد وجوهر واحد،إضافة إلى كونها فوارق لا تمثل حاجزاً لغوياً يقف حائلاً دون وحدة الثقافة، والدليل على ذلك ما يشاهد اليوم في مناطق البجة المختلفة، فرغم ما بين اللهجات العامية من فوارق في النطق، والحركات، والأصوات، وأحياناً تغيير مدلول الألفاظ والكلمات إلا أن كل البجاويين تنتظمهم ثقافة واحدة وهي الثقافة الإسلامية العربية التي تجذرت في حياتهم بشكل كبير، على أن اللغة العربية المستخدمة لم تسلم بدورها وبرغم نفوذها وهيمنتها من تسرب بعض المفردات البجاوية عليها وتنحصر في أسماء بعض الأداوت والصناعات التي لم يعرفها العرب في مواطنهم التي قدموا منها إلى هذه المناطق.

ثالثاً: انتشار الثقافة الإسلامية:

لم يمكن انتشار استخدام اللغة العربية في بلاد البجة وتوسع مداها هو الأثر الثقافي الوحيد الذي أحدثته العناصر أو الفئات العربية المختلفة من الرحالة والحجاج وغيرهم في البلاد، بل قد تلازم مع ذلك تسرب كثير من المفاهيم والعادات والتقاليد العربية الإسلامية إلى أوطانهم ؛ لدرجة أن بعض المؤرخين شبهوا البجاويين بالعناصر العربية المشار إليها [2(1)]، خصوصاً أن أجيالاً من البجة المولدين أو البجة

---

1. المصدر السابق
2. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، عن المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 196.
1. االاصطخري: مسالك الممالك، ص 35، ليدن، 1927
2. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 51.

المستعربين قد تمثلوا تلك العادات والتقاليد بشكل واضح وجلي، وعملوا على نقلها وبسطها في مختلف قطاعات مجتمعهم. ومن الواضح أن تأثير الفئات العربية التي داخلت البجاويين في هذا المجال كانت من تأثير البجة عليهم، وذلك بسبب أن الآخرين لم تكن لهم حظوظ كبيرة في التمدن والرقي فهم في غالبهم " بادية أغنام متوغلون في الجبال والآجام في عددٍ لا يحاط به " [2] وهذا التوغَّل في الأماكن البعيدة عن المدن والعمران وأماكن تجمع الناس قد ساهم إلى حد كبير في عزل بعضهم عن الاحتكاك بأي مجتمعات أخرى، مما حرمها من إحداث أي تأثير أو تأثير بتلك المجتمعات سواءً بتمثل عاداتهم وتقاليدهم أو بغير ذلك بالإضافة إلى ذلك فإن طبيعة البجة أنفسهم لم تمكنهم من التفاعل مع الآخرين بسبب ميل معظمهم للعزلة والانفراد والابتعاد عن الآخرين [1]1، كذلك من الأسباب التي جعلت البجة أكثر تأثيراً وأقل أثراً في القبائل العربية التي استقرت في أوطانهم تفوق ثقافة وعادات هذه القبائل بسبب التعاليم الإسلامية التي تمثلوها، وبسبب الاحتكاك والخبرات والمؤثرات التي تعرضوا لها قبل استقرارهم في بلاد البجة [2].

ومع التصاهر والتداخل الذي تم بين هذه العناصر الوافدة وبين البجاويين في أماكن التعدين عن الزُمرد والذهب في وادي العلاقي، أو في المرانئ البجاوية مثل عيذاب وسواكن، أو في الأسواق والمراكز التجارية الواقعة على طول الطريق الذي يربط مدن جنوب مصر مثل أسوان وقوص وغيرها بالساحل البجاوي، وفي الأماكن الأخرى التي توسعت فيها علاقات المسلمين بالبجة، تسربت كثير من المؤثرات الثقافية للبجاويين، ولا سيما أن بعض هذه المؤثرات كانت تتمثل في بعض العادات التي أضحت بعد مجيء الإسلام يخلو كثير منها من العادات القبيحة الضارة، بسبب أن

---

1. الإدريسي نزهة المشتاق، ج1، ص 27

2. إدريس الحسن: البجة في شرق السودان، ص 59

3. البخاري (محمد بن إسماعيل): مختصر صحيح البخاري، ص 663، شرح مصطفى البغا، دار اليمامة للنشر والتوزيع، بيروت، 1413هـ.

الإسلام قد حرَّم على العرب من عادتهم ما كان مخالفاً للدين والأخلاق والمروءة، مثل وأد البنات، وشرب الخمر، والميسر ونحوها [3]،في حين اتجه إلى بعض العادات والتقاليد التي تشوبها بعض الشوائب فهذبها ونقاها من تلك الشوائب ومن ذلك الدخن، ووجد عادات أخر أبقى عليها أشاد بها مثل إكرام الضيف، ونصرة الضعفاء والمظلومين والتخلف بمكارم الأخلاق [1][1].

والدارس للمنهج الذي تشربت به المؤثرات الثقافة الإسلامية في القارة الإفريقية بعامة وفي بلاد البجة بخاصة يلحظ حقيقتين مهمتين هما:

أما الحقيقة الأولى فتتمثل في التزام العناصر العربية المهاجرة أو المارة ببلادهم بالتقاليد المستمدة من التعاليم الإسلامية، فكان هذا الأمر عنصراً مهما من عناصر تسرب تلك المؤثرات إلى البجاويين وغيرهم [2].

أما الحقيقة الثانية فهي ملاحظة أن هذه العناصر الوافدة لم تكن ترمي لتعريب السكان الأصليين الوطنيين في بلاد البجة أو في غيرها بقدر ما السكان كانوا يهتمون بدعوتهم للإسلام في حين وحَّدها بل إن كل أو معظم الشعوب والقبائل الإفريقية كانت تلتزم به، يقول ابن سليم الأسواني في معرض حديثه عن قبائل البجة: وهم بادية يتبعون الكلأ حينما كان الرعي،بأخبية من جلود، أنسابهم من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس، وليس عليهم متملك، ولا لهم دين، وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ويقولون: إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال " [3] والواقع أن هذا النظام الاجتماعي على مخالفته لتعاليم الإسلام إلا أن كثيراً من القبائل العربية المهاجرة قد استفادت منه، وصاهرت السكان الوطنيين، فكان ذلك سبباً في

---

1. المصدر السابق: ص 663 وما يليها

2. توماس ارنوبد: الدعوة إلى الإسلام، ص 339 – عبد العزيز بن راشد العبيدي: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا، ص 45

3. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج1،ص 202

تحــولهم للإســلام علــى يــد أبنــاء بنــاتهم، وهــم الــذين عرفــوا بالمولــدين [1] [1]، وبالتــدريج ومــع مــرور الــزمن أضــحى البجــاويون يتخلــون عــن هــذه العــادات والتقاليد وأصبحوا يتمثلون النظام الإسلامي في هذا المجال [2].

ظلت كثير من عاداتهم وتقاليدهم على ما هي عليه برغم إسلامهم وهذا ما عبر عنه أحد الجغرافيين في معرض حديثه عن البجة حين قال: " فجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية " [3]

هذا وقد أضحى البجة يتخلون عن كثير من العادات والتقاليد القديمة التي كانت سائدة في أوساط مجتمعاتهم، والتي من أهمها وأبرزها نظام التوريث والذي عرف بنظام الأمومة حيث كان يقضي بأن يرث ابن أخت الرجل المتوفى أو ابن بنته دون ولده، سواء أكان هذا الميراث ملكاً، أو تجارة،أو مالاً أو غيره، حيث إن ابن الأخت أو البنت في زعمهم أصح في النسب من الابن، على أن هذا التقليد لم يكن يخص قبائل البجة وحدها ومن المؤثرات الثقافية الواضحة في هذا المجال بسبب تحول البجة للإسلام واختلاطهم بالمهاجرين العرب تغير نظرتهم للمرأة حيث كان الاختلاط بين النساء والرجال شائعاً عندهم لدرجة كبيرة حتى أن أحد المؤرخين وصفهم بأنهم " أقل الناس غيرة ونحوها على النساء "[4]، ثم تغير ذلك الوضع فأصبحت العلاقة بين الرجال والنساء تحكمها قيمة الشرف المستمدة من الدين وأصبحت المرأة عند البجة كزوجة أو أم أو أخت لها عالمها الخاص محمية من الاشتراك والظهور في عالم الحياة العامة حيث الرجال عموماً والغرباء خصوصاً، وإن كانت لها مشاركات فتنحصر في بعض شؤون بيتها مثل جلب الماء، وبعض المهام المنزلية الأخرى التي لا تتطلب ابتعادها عن مسكنها كثيراً ولأوقات طويلة، كما أضحى الرجل البجاوي غير مسموح له عرفياً بالبقاء في عالم النساء نهاراً،بل لقد تعدلت الأوضاع في هذا الجانب الاجتماعي كثيراً لدرجة أنه لقد كان هنالك أعمال

---

1. انظر ربيع الحاج: معاهد البقط وآثارها على بلاد النوبة، ص 275 – 279

2. إدريس سالم الحسن: البجة في شرق السودان، ص 59.

3. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 51

4. الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 286.

مشتركة بين الرجال والنساء حتى في مجال الزراعة والرعي، حيث انحصرت مسؤوليات المرأة عند البجة في منزلها وواجباته من أعداد الطعام ورعاية صغارها وغير ذلك [1].[1]

وتبعاً لهذا التغير في النظرة للمرأة تغيرت مفاهيم وعادات عربية أخرى مثل ما ذكره أحد المؤرخين حين قال: "وليس منهم رجل إلا منزوع البيضة اليمني، وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن " [2]، والسبب في ذلك كما يقول المصدر نفسه " أن ملكاً من الملوك حارب البجة ثم صالحهم واشترط عليهم قطع ثدي من يولد لهم من النساء، وقطع ذكور من يولد من الرجال، وأراد بذلك قطع النسل منهم، فوفوا بالشرط وقلبوا المعنى فجعلوا قطع الثدي للرجال والفروج للنساء" [3].

وبالرغم من أن المرء يشك في صحة هذه الرواية، إلا أنها تؤكد شيوع هذه العادة في وسط المجتمع البجاوي.

لكن بسبب احتكاكهم بالقبائل العربية وبسبب بعض المؤثرات الثقافية الإسلامية إليهم تخلى بعضهم عن تلك العادات والمورثات الغربية، وحل ذلك الختان السني المعروف للأولاد والبنات، فأصبح يتم ختان الطفل البجاوي عادة في عامه الأول أو الثاني مثلما تفعل القبائل العربية من حولهم [1]2، أخا ختان الفتيات فيبدو أن تأثيرهم بالثقافة الإسلامية أو بتعاليم الإسلام كان قليلاً حين كان هنالك نوعان من الختان، الأول وهو الختان السني، والذي كان غالباً ما يتم وسطط البجاويين الذين يسكنون في المدن وفي المناطق الساحلية، أما النوع الثاني فهو ما يعرف بالختان الفرعوني [2]، ويختتن بهذه الطريقة عادة الفتيات من سن السادسة إلى الثامنة، ويبدو أن البجة قد تأثروا

---

1. إدريس سالم الحسن: البجة في شرق السودان، ص 60
2. ابن سليم السوداني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج1، ص 202
3. المصدر السابق، ج1،ص202
1. اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 219
2. المرجع السابق، ص 43
3. الواقدي: فتوح الشام، ص

فـي هـذا الجانـب بـالمؤثرات المصـرية الفرعونيـة، حيـث كـان البجـة علـى صـلات دائمة بمصر منذ أقدم العصور [3].

أيضاً تغيرات بعض مفاهيم البجة وبعض عاداتهم التي تتصل بالولادة، حيث كانوا يعمدون في حالة قدوم مولود جديد على الأسرة إلى إيقاد نار لمدة أربعين يوماً أمام المنزل أو الدار التي ولد فيها الطفل، وإذا تعذر إيقاد النار يكتفون بإيقاد مصباح صغير أمام الدار، ويزعمون أنهم بفعلهم هذا إنما يطردون الجن عن الأم التي تكون في مدة نفاسها عرضة لأن تتأذي بالجن وبغيره، وبعد ولادة الطفل مباشرة تخرج النساء اللاتي ساعدن الأم في الولادة من الدارومعهن المشيمة، والخرق الملوثة ويمشين مساحة حتى إذا وصلن إلى أقرب شجرة ألقوها في وسطها، وهن ينشدن ويغنين بعض الأناشيد والأغاني في الذهاب والإياب إذا كان المولود ذكراً،أما إذا كان المولود أنثى فإنهن يذهبن ويعدن صامتات، وبهذه الطريقة يسهل الإعلان عن نوع المولود من غير حاجة إلى أي إعلان آخر[1](1)، على أن بعض الحماعات الجاوية كانت تخالف ذلك فإذا كان المولود أنثى احتفلوا به وفرحوا به فرحاً عظيماً، أما إذا كان المولود ذكراً فيقوم بعض النساء بقتله وحجتهم في ذلك أن الأنثى أفضل وأبر من الذكر، يقول ابن سليم الأسواني في معرض حديثه عن بعض نساء البجة،:" فإذا ولدت إحداهن جارية استحيينها وإن ولدت غلاماً قتلته، ويقلن إن الرحال بلاءً وحرب" [2]. وبفضل الجهود التي بذلها الرحالة من الحجاج والدعاة تسربت المؤثرات الإسلامية إلى حياة البجة وتغيرت كثير من هذه العادات والمفاهيم، فأضحى البجاوي بدلاً من البقاء في خيمته أو داره أو في أي مكان آخر بحيث لا يرى مولوده إلا بعد مرور ثلاثين يوماً من الولادة – يقوم بترتيب أمورد ودعوة أصحابه وأقربائه للعقيقة التي يولم فيها الغالب بشاة أو شاتين، وأصبح الوالد ينطق بلفظ الجلالة أو يكبر عند الذبح بدلاً من نطقه باسم الطفل المولود بحسب ما كان يتم سابقاً [3].

---

1. محمد عوض: محمد: السودان الشمالي، ص 42
2. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج1، ص 194
3. محمد عوض محمد: السودان الشمالي، ص 43
4. ابن سلمى الأسواني: أخبار النوبة عن المواعظ والاعتبار.

كذلك من العادات التي تغيرت عن البجة بهذا التواصل مع العناصر المشار إليها تغير العادة التي كانت سائدة عندهم من تسمية بعض قبائل البجة جميع رجالها ونسائها باسم واحدٍ [4]، ثم تعدل هذا الأمر وأضحى للرجال أسماؤهم الخاصة بهم وللنساء أسماؤهن الخاصة بهن، بل اتخذ بعض البجة أسماء ذات صبغة عربية إسلامية واضحة [1].[1]

ومنهم أقوام كذلك كانوا يقلعون ثناياهم من فوق ومن أسفل، ويقولون لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم [2]، ثم قل هذا الفعل عندهم بعد أن انفتحوا على المسلمين [3]، ومن العادات التي تخلى عنها البجة بفضل احتكاكهم بالعناصر العربية المستقرة في أوطانهم، تخليهم عن ظاهرة العري التي كانت منتشرة عند بعض القبائل البجاوية، أو اتخاد بعضهم أخبية من جلود في أحسن الأحوال ليستتروا بها، فبدؤوا بدلاً من ذلك يتزيون بزي العرب الذي تميزه العمامة، ولا يستبعد أن يكون تأثير البجة في هذا المجال بسبب احتكاكهم بالتجار الذين ظلوا يفدون إلى بلادهم باستمرار، خصوصاً التجار المغاربة حتى شبههم أحد المؤرخين من كثرة لبسهم سراويل ونعلات المغاربة بالمغاربة أنفسهم، ويبدو أن الخلفاء والحكام والولاة كانوا يشجعون التجار والرحالة والدعاة وغيرهم للمساهمة في نقل تلك المؤثرات بعد أن يقدموا الأسوة التي يحتذى بها، ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك إهداء الخليفة العباسي المتوكل الملك البجاوي على بابا عمامة سواء إبان زيارة الأخير لبغداد سنة 241 هـ [4]، كما نشر التجار هداياهم التي يقدمونها للأهالي وللوطنيين في المنطقة عادة تغطية الرأس فأصبح البجاوي يحرص على لبس طاقية من القماش الأبيض على رأسه، تلف عليها خرق صغيرة من القماش الأبيض فتغطيها شكلاً، تشبها بالعمامة العربية المعروفة.[2]

---

[1]. انظر الملاحق عهد عبد الله بن الجهم لكنون بن عبد العزيز ملك البجاة

2. اليعقوبي: كتاب البلدان، ص 219

3. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 202

4. بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ص 181

[1]. بوركهات: رحلات بوركهات ص 124.

أما نساء البجة فقد اتجهن كذلك إلى اتخاذ بعض الملابس القريبة من الملابس التي كانت تعرفها المرأة في الجزيزة العربية مثل السروايل الفضفاضة، بالإضافة إلى اتخاذهن الطرح وغيرها مما يستخدم في تغطية الرأس والوجه [2].

ولعل هذا السلوك الذي طرأ على البجاويين هو الذي دفع بعض المؤرخين المسلمين إلى تشبيههم بالعرب حيث أن أنهم أشاروا إلى أن البجة كانوا يقلدون العرب في عاداتهم ولباسهم ويتزيون بزيهم [3].

أما فيما يتعلق بالطعام والأكل وما إليه فقد كان للبجة عادات غريبة في هذا المجال، منها أن " مياسيرهم لا يرون أكل الصيد ولا مخالفة آكله ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحله، ولا يحلبون فيها ولا يشربون" [4]

كما كانوا يحرمون بعض الفواكه والخضر فلا يأكلونها [5]، في حين يحرم بعضهم الآخر لحم الغذلان بالرغم من كثرة توافرها في بلدانهم [6].

بتحول البجة للإسلام تغير الكثير من هذه العادات، فأصبح اللحم الذي كانوا يحرمونه وجبة أساسية عندهم بالإضافة إلى الخبز واللبن [7]، ويبدو أن ذلك الأمر قد عاد إلى البجة بفوائد صحية وغذائية كثيرة فيصفهم ابن سليم الأسواني بقوله: " وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن، وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص، وألوانهم مشوبة بالصفرة "[1](1)، ويبدو أن تحريم البجة لبعض الأطعمة مثل اللحوم وغيرها يعود لأسباب دينية قديمة بدليل تخليهم عنها حال دخولهم في الإسلام. على أن هذه

---

2. عبد الله عبد الرحمن: العربية في السودان، 22
3. الاصطخري: مسالك البلدان، ص 35
4. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 56
5. الاصطخري: مسالك الممالك، ص 35
6. ابن بطوطة: تحفة النظار، ص 255
7. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج 1، ص 202

[1]. المصدر السابق، ج 1، ص 202.
2. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 55
3. ابن جبير: رحلة بن جبير، ص 68 وما بعدها
4. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 55

العادات والتقاليد التي اكتسبها البجة من خلال صلاتهم بالمسلمين المهاجرين لم تقف عند هذا الحد، بل انسحبت كذلك على حياتهم العامة فأصبحت أعداد كبيرة منهم تستقر في المدن والحواضر بدلاً عن سكنهم في الجبال البعيدة والأودية النائية [2]، ولا سيما أن عدداً منهم قد ارتبط بأعمال تتطلب بقاءهم في المدن والموانئ مثل بيع الماء للحجاج والرحالة، وإكراء الجمال لهم، والعمل في تحميل البضائع للتجار المارين بتلك الموانيء [3]

بالإضافة إلى ذلك فقد اكتسب البجة عادات عربية أخرى في مجالات أخرى منها تحولهم في القتال من استخدام الإبل إلى استخدام الخيل التي لم يكونوا يعرفونها قبل أن تتقوى صلاتهم بالمسلمين، حيث كانوا يستخدمون الإبل ويقاتلون على ظهورها (بالقسي والسهام المسمومة والحراب بغير درق "[4]، كما تحولوا لاستخدام السيوف، وأصبحوا في فترة وجيزة، مهرةً في استخدامها والقتال بها، كما تغيرت ملابسهم الحربية تبعاً لذلك التغير فبدلاً من لباسهم الجلود والعصابات الصفراء وغيرها، أصبحوا يلبسون " السراويلات المفتحة الطوال، ونعالاً كنعال المغاربة" [1].[1]

على أن هذا التوسع الذي شهدته وتوسعت فيه الثقافة الإسلامية في بلاد البجة سواء في مجال المعاملات والآداب أو العادات والتقاليد الاجتماعيه،لا يعني أن الثقافة الإسلامية قد قضت تماماً على كل المورثات الثقافية البجاوية، لأن ما حدث كان نوعاً من التأثير والتأثر حيث تأثرت كذلك بعض العناصر العربية ببعض العادات والتقاليد البجاوية المحلية وبخاصة تلك التي لا تتعارض مع تعاليم الإسلام.

نتائج الدراسة:

1- إن الرحالة من العرب المسلمين قد عرفوا بلاد البجة ومنطقة وادي النيل قبل فترة طويلة منذ القرن الأول الهجري وليس كما يدعي بعض الرحالة الغربيين أنهم أول من عرف تلك المناطق وكتب عنها.

[1]. المصدر السابق، ص 58

2- إن هـؤلاء الرحالــة قـد سـاهموا مسـاهمة كبيـرة فـي تحـول البجـة للإسـلام واعتناقهم له.

3- إن المعلومــات الجغرافيــة والتاريخيــة المهمــة التــي تضــمنتها كتابــاتهم قــد ســاهمت فــي التعـرف بـبلاد البجـة ومنطقـة شـرق السـودان بشـكل لـم يكـن متوافراً لدى العالم المعروف في ذلك الوقت.

4- إن إسـهامات هـؤلاء الرحالــة مـا زالـت فـي حاجـة إلـى الدراسـة والتحليـل والاستفادة منها في مختلف المجالات.

5- إن المعلومــات الدقيقــة التــي وردت فــي كتابــاتهم ســتفيد كثيــراً فــي تصــحيح كثيـر مـن المعلومـات والمفـاهيم التارخيـة المغلوطـة التـي راجـت وأضـحت كأنها مسلمات.

المصادر والمراجع

- ابن عبد الحكم: فتوح مصر
- البلوي: سيرة أحمد بن طولون
- بيبرس الداودار: زبدة الفكرة
- ابن جبير: الرحلة
- ابن الوردي: فريدة العجائب، ورقة 23
- القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة
- ابن بطوطة: الرحلة
- ناصر خسرو: سفرنامة
- اليعقوبي: البلدان
- مصطفى مسعد: المكتبة السودانية العربية
- ابن حوقل: صورة الأرض
- ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج 1
- المسعودي: مروج الذهب، ج 3
- الحميري: الروض المعطار، ص 284
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 7
- المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج1
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1
- عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان
- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا
- الطبري: تاريخ الأمم والملك، ج9، ابن الأثير: الكامل، ج5
- الاصطخري: مسالك الممالك،، ليدن، 1927
- الإدريسي نزهة المشتاق، ج1
- إدريس الحسن: البجة في شرق السودان
- البخاري (محمد بن إسماعيل): مختصر صحيح البخاري، شرح مصطفى البغا، دار اليمامة للنشر والتوزيع، بيروت، 1413هـ.
- توماس ارنوبد: الدعوة إلى الإسلام، عبد العزيز بن راشد العبيدي: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا

- ربيع الحاج: معاهد البقط وآثارها على بلاد النوبة
- الدمشقي: نخبة الدهـر في عجائب البر والبحر
- الواقدي: فتوح الشام.
- محمد عوض: محمد: السودان الشمالي
- بيبرس الداودار: زبدة الفكرة
- بوركهات: رحـلات بوركهات
- عبد الله عبد الرحمن: العربـية في السودان
- ابن بطوطة: تحفة النظار

طرق الحج من شرق إفريقيا إلى مكة المكرمة في القرن العشرين، الإيجابيات والتحديات: زنجبار نموذجاً

د. عيسى الحاج زيدي

المقدمة:

نبذة تاريخية عن الحج في شرق إفريقيا:

بدأت رحلات الحج من شرق إفريقيا إلى مكة المكرمة منذ أن استقر الإسلام فيها في القرن الثامن الميلادي. ومن المؤكد أن المسلمين في المدن الساحلية لشرق إفريقيا كأنغوجا أكو (Unguja Ukuu) في جنوب جزيرة أنغوجا، وفي مكومبو (Mkumbuu) و متامبوي مكو (Mtambwe Mkuu) في جزيرة بيمبا، وكلوة (Kilwa)، وتونغوني (Tongoni) في تنجانيقا، ولامو (Lamu) في كينيا، كانوا يمارسون الشعائر الإسلامية، منذ تلك الحقب من التاريخ. ولقد ربط المحيط الهندي بين مسافرين العرب، وسكان تلك المدن، قبل أن تبدأ رسالة الإسلام. وفي القرن 14م عندما زار ابن بطوطة المنطقة، ومنها جزيرة تومباتوا (Tumbatu)، وجد أن الإسلام قد انتشر فيها، واستُخدمت اللغة العربية كلغة الأدب و التجارة.[1]

وبالرغم من أن ما ذكرنا، أعلاه، هي الحقيقة إلا إنه يصعب إثباتها بالوثائق الملموسة أو بكتابات متعلقة بالحج، الذي مارسه سكان المنطقة في ذلك الزمان. ومن خلال البحث المكثف عن الموضوع استطاع الباحث أن يقف على بعض الخيوط، التي قد تقود إلى المسببات الرئيسية لهذه الإشكاليات التاريخية. لقد أرجع الشيخ سعيد بن علي المغيري أسباب انعدام الوثائق القديمة لتاريخ شرق إفريقيا عامة إلى إهمال قادة المنطقة منذ صدر الإسلام، وهم العرب حيث يقول: "...ولم يكن من هَمّ العرب العمانيين الذين هاجروا إلى هذه البلاد في الزمان القديم أن يدونوا تواريخهم، أو يسجلوا أعمالهم ونشاطاتهم واكتشافاتهم، ولم يكن في استطاعتهم أن يخلفوا لأبنائهم، ولمن بعدهم إلا أقاصيص وحكايات، وإلا صفحات وجرائد مسطورة قليلة، يتوارثها السلف عن الخلف، وتتعرض لما يتعرض له عادة كل المتاع الموروث من فساد

[1] http//ar.wikipedia.org

أوضاع".[1] وفي محاولته للإشارة إلى المصادر البديلة التي قد تساعد على دراسات تاريخ المنطقة يقول: "والواقع أن منطقة شرق القارة الإفريقية تعاني من قلة مصادرها التاريخية، ولا نجد لها أخبارا في التاريخ القديم أو الوسيط، إلا نتفا متفرقة بين كتب اليونان القدامى، وأخبار الرومان وغيرهم من الأمم التي وصلت بعض رحلاتها برا، أو بحرا إليها. ولكن في العصور الحديثة تراكمت الدراسات الأوروبية حول القارة، وخاصة شرقيها. وهذه الدراسات عبارة عن تقارير وبحوث لشركات أو مصالح أوروبية، وبرغم هدفها، إلا إنها تشكل مصدرا لإفريقيا الشرقية، لا غنى عنه".[2]

وقد استخدمت هذه الدراسة المراجع التي اقترحها الشيخ المغيري مع إجراء الدراسة الميدانية والمقابلات مع المستجوبين المعنيين. لقد أفاد أحدهم وهو الحاج الشيخ راشد بن سالم بن علي بن جمعة العبري المولود في سنة 1897م / 1315هـ، والذي سافر إلى الحج سبع مرات بدءا من أوائل القرن العشرين، أنهم – أي مسلمي زنجبار – قديما كانوا يذهبون إلى الحج دون أن يحملوا أوراقاً ثبوتية كجواز السفر وغيره. ولم تكن الدولة تسجل الحجاج، ولم تكن قد أَنشأت نظام تسجيل المسافرين بعد.[3]. ويطمئن الشيخ المغيري الذين قد يشككون في صحة مثل هذه الدراسة لفقدان المصادر الأساسية، بقوله أن العملية الحقيقية لتعمير شرق إفريقيا ذاتها حديثة العهد، ويصف حالة عاصمتها (زنجبار) في القرن 19م كما يلي: "إن من المحقق أن زنجبار الحالية ليست قديمة العهد، ولم تعمر هذا العمران الذي جعل لها اسم العاصمة لجميع بلدان إفريقيا الشرقية إلا بعد نزوح البرتغال عنها في القرن الثامن عشر الميلادي، ولم تتجل إلى عالم الصيت والشهرة، إلا بعد وفود العرب العمانيين إليها في القرن التاسع عشر الميلادي في أيام دولة السيد سعيد بن سلطان"[4].

وقد أكدت هذه الدراسة أن المستعمر البريطاني هو الذي قام بعملية الإشراف على تأسيس نظام خاص لحفظ الوثائق القديمة في دار الوثائق الوطنية في زنجبار،

---

[1] المغيري: 1986: 20.

[2] المغيري: 1986: 37.

[3] المقابلة 2/8/ 2013..

[4] المغيري: 1986: 82

والتي كانت قبل جمعها عبارة عن ممتلكات للدولة وللأفراد من التجار العرب والمزارعين والشيوخ وبعض الهنود وغيرهم. وقد أكد البروفيسور عبده شريف الذي أشرف على عملية تصنيف السجلات والملفات الموجودة في الدار، على أهميتها في كتابة التاريخ الاجتماعي والديني لشرق إفريقيا.[1]

وفيما يتعلق بالدراسة الحالية فإنها تركز على وثائق الحج الموجودة في دار الوثائق الوطنية في زنجبار، وزنجبار نفسها باعتبارها نموذجاً للدراسة لكونها كانت مركزا ومنارة للإسلام لكل المناطق الإسلامية المطلة على الساحل الشرقي لإفريقيا، من مقديشو شمالا إلى سوفالا جنوبا. وكذا تعتمد الدراسة على المقابلات الشخصية كلما لزم الأمر على.

وبالرغم من احتمال وجود تلك المتغيرات الأليمة، إلا إن المسلمين من شرق إفريقيا، كانوا يتسابقون في موانىء زنجبار، وهم في بداية رحلاتهم إلى الحج سنويا. ويمكن تقسيم رحلات الحجاج إلى مراحل ثلاث بناء على الظروف المحيطة بهم فيما يتعلق باستعدادهم وتجهيزهم لرحلة الحج. وهي:

المرحلة الفردية: تتصف هذه المرحلة بالسرية التامة للحاج عند تجهيز نفسه للحج، دون أن يخبر أحداً في المجتمع. فكان يجمع أحدهم كل احتياجات الرحلة كمصروفات السفر والزاد منفردا؛ إن كان من ناتج محصولاته الزراعية أو أعماله التجارية التقليدية البسيطة. فكانوا يزرعون أو يصيدون في البر والبحر لنيل ما يحتاجونه من مصروفات السفر إلى مكة المكرمة. وكان الحاج يواظب على دروس الحج عند علماء قريته. وبعد أن يكتمل تجهيز الحاج، يغادر منفردا مختفيا راجلا أو راكبا الحمار إلى الميناء ليركب المراكب الشراعية. وغالبا ما كان يتعرف الحجاج بعضهم على بعض في الموانئ أو أثناء سفرهم إلى مكة المكرمة. وكانوا يذهبون إلى الحج دون أن يطالبوا بإبراز أوراقهم الرسمية، كجواز السفر أو شهادة التطعيم.

---

[1] Abdul Sheriff: 2001:47-57

المرحلة الثانية: هي المرحلة الجماعية أو المذهبية حيث يقوم أئمة المذاهب و رؤساء الجمعيات بالإشراف على أمور الحج، بمعرفة من ينوي الذهاب إلى الحج من جمعيته أو مذهبه، ثم يقومون بعملية التنسيق مع الجهات المعنية للحج.

المرحلة الثالثة: هي التي كانت تحت الإشراف المباشر للحكومة. بدأت هذه المرحلة في عام 1926؛ حيث قام سكرتير عام الحكومة، بإصدار بيانات إلى أئمة المذاهب ورؤساء الجمعيات الأهلية، يطلب منهم إرسال أسماء من ينوي الذهاب إلى الحج في ذلك العام. وهذه هي المرحلة التي بدأت فيها توثيق البيانات المتعلقة برحلات الحج رسميا من قبل الحكومة وهي التي تتوافر بكثرة في دار الوثائق الوطنية في زنجبار.

وفيما يتعلق بطرق الحج ووسائل نقلها في القرن العشرين فإنها تتباين بتباين التطورات الهائلة والانفجار المعرفي الذي حدث في مجالات العلوم والتكنولوجيا. ففي بداية القرن العشرين، كان حجاج زنجبار يبدأون رحلاتهم ماشيا أو يستخدمون الحيوانات، التي كانت تنقلهم وأمتعتهم من أماكن سكناهم إلى الموانىء البحرية، حيث يأخذون المراكب الشراعية، أو البواخر، أو المراكب الأخرى إلى جدة أو إلى أقرب الموانىء إلى الحجاز كميناء عدن والحديدة مثلا.[1] وقد تغير هذا الوضع تدريجيا، كما سيرى القارئ. فيما يلي تفاصيل هذه الطرق، ومساراتها والوسائل المستخدمة:

الطرق البحرية: هي من أقدم وأشهر طرق الحج التي استخدمها حجاج شرق إفريقيا عموما، وزنجبار خصوصا. فقد تطورت وسائلها من المراكب الخشبية الشراعية البدائية، إلى البواخر الخشبية، إلى المراكب الدخانية التي تم استخدامها في زنجبار لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشرة للميلاد، تحت الإشراف المباشر لسلطان زنجبار السيد برغش بن سعيد. ويؤكد ذلك الشيخ المغيري حينما يقول: "ومن أعماله الخيرية (السيد برغش) أن جعل مركبين من مراكبه الدخانية تحمل الحجاج إلى بيت الله الحرام من جميع أنحاء مملكته، ومن مسقط حال كونهم محمولين من جميع المصاريف كلها، فهي على نفقة جلالته ذهابا وإيابا"[2]

---

[1] AB22/29

[2] المغيري: 1986: 336.

ولقد طُوّرت وسائل النقل للطرق البحرية بعد مرور الزمن بإدخال السفن، التي اتسعت لعدد كبير من الحجاج وأمتعتهم، كما خفضت المدة التي كان الحاج يقضيها في البحر، وهو في طريقه إلى منطقة الحج. وفيما يتعلق باستخدام طريق البحر والمدة التي كان يقضيها الحجاج في البحر في أوائل القرن العشرين، يقول الشيخ علوي بن سليمان (رحمه الله)، المولود في 1938 في جزيرة بيمبا، أن الطريق المشهور، الذي كان يستخدمه الحجاج في زمن آبائهم هو البحر، وكانوا في أول الأمر يعتمدون على قوافل التجارة عند الرياح الموسيمية. وكانت تستغرق الرحلة من زنجبار إلى الحجاز في الغالب ثلاثة أشهر ذهابا وثلاثة أشهر إيابا![1]

ولعل من ضمن الأسباب التي دعت إلى إطالة مدة رحلة الحج إلى ستة أشهر استخدام الحجاج وسائل النقل التي تعتمد على الرياح الموسمية. وقد تهب الرياح إلى الجهة التي لا تشتهيها السفن. فخضوع الحجاج واعتمادهم على طبيعة البحر، التي كانت تتحكم فيها الرياح الموسمية، دون أن يكونوا لديهم خيارات بديلة، كان من أكبر **التحديات** التي جابهها حجاج تلك الحقب من التاريخ حيث اضطروا إلى أن يكافحوا الأمواج والأحوال الجوية المتقلبة دون سابق إنذار لفترة أطول. فهناك المتغيرات التي بموجبها يمكن أن توصف رحلة الحج عن طريق البحر في ذلك الحين بعدم الدقة منها:

قد تصل الباخرة إلى ميناء جدة مبكرا قبل أن يبدأ موسم الحج أو قد تتأخر، لتصل بعد أداء مناسك الحج. ففي كلتا الحالتين كان الحجاج يضطرون إلى أن يمكثوا في منطقة الحج فترة طويلة. ولتخفيف أوجاع هذا الوضع، قرر الزنجباريون أن يكون لديهم بيتاً خاصاً بهم في مكة لاستراحة الحجاج. فقد قام السيد حمود بن أحمد البوسعيدي بشراء بيت بمكة المكرمة مخصص لهذا الغرض، سمي ببيت الرباط، كما أكد ذلك الشيخ المغيري، حينما ذكر محاسن السيد حمود في قوله: "فمن أعماله

[1] (المقابلة: 5/8/ 2013.

الجليلة المخلدة بيت الرباط الذي بمكة المشرفة، اشتراه من طيب ماله، وأوقفه لوفد الله القادمين إلى حرمه وأمنه، لأداء فريضة الحج من أهل عمان وزنجبار..." [1]

لقد اضطر معظم الحجاج من زنجبار الذين وصلوا إلى أرض الحج مبكرين أو متأخرين، بعد أن نجوا من الرحلات الشاقة، أن يقرروا البقاء والاشتغال بالأمور الأخرى، قبل أن يبدأ الموسم الجديد للحج، وذلك مثل أداء العمرة في مكة المكرمة أو زيارة المدينة المنورة أو الانضمام إلى حلقات الدراسة أو زيارة الأماكن المقدسة، ومنها ما تتعلق بالشيوخ الصوفية.

و تعتبر هذه الأعمال من **الإيجابيات** التي تتعلق برحلة الحج عن طريق البحر، حيث إن المكوث في أرض الحج والمشاركة في الفعاليات العلمية والزيارات والرياضات الروحية فيها – أنتجت تعارفاً وتبادلاً الخبرات بين العلماء من دول العالم الإسلامي. وقد مكث بعض علماء زنجبار الذين يحضرون مناسك الحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة سنة أو سنوات يتعلمون ويعلمون فيها مع علماء آخرين من كل جهة داخل العالم الإسلامي. وقد ذكر الشيخ عبد الله صالح الفارسي في كتابه أسماء بعض علماء زنجبار، الذين استفادوا من مثل هذه الظاهرة. ويرجع استفادة بعضهم من عام 1888م/1305–6هـ، حيث ذكر فيه أسماء علماء الحجاز المشهورين في أوائل القرن العشرين، الذين انخرطوا في عمليات التبادل التعليمي والثقافي مع علماء وحجاج زنجبار، ومنهم: السيد عمر بن عبد الله، والشيخ حسن بن عمير الشيرازي، والشيخ عبد الله باكثير الكندي، والشيخ عمر بن سميط، والشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الأموي، والشيخ علي بن خميس بن سالم البرواني، والشيخ علي بن عبد الله بن نافع بن مزروعي، والشيخ محي الدين بن شيخ القحطاني وغيرهم من شيوخ زنجبار، الذين اشتهروا وبرعوا بعلومهم الدينية في فنونها المختلفة. وليس هذا فحسب، بل إن بعض شيوخ زنجبار، ذهبوا إلى الحج عن طريق البحر، وهم في ريعان شبابهم، وبقوا في مكة المكرمة والمدينة المنورة، لينهلوا من علوم الدين لسنوات عدة. وقد استُخدم أسلوب التزكية أحيانا لاقتراح أسماء المدرسين، الذين سيدرسون

[1] المغيري: 1986: 362.

عندهم بعد وصولهم إلى مكة المكرمة. فهذا السيد أحمد بن سميط من كبار علماء زنجبار، نجده يرفق مع شاب زنجباري نوى الذهاب إلى الحج عن طريق البحر في عام 1888 للشيخ عبد الله باكثير خطابا يذكر له فيه علماء الحجاز المشهورين في ذلك الوقت، الذين يثق بهم، ويقترح أن يتعلم هذا الشاب على أيديهم. وقد ذكر منهم الشيخ أبوبكر بجنيد، والسيد أبو بكر بن محمد شطا المصري الأصل الذي انتقل إلى مكة وألف كتاب "الدرر البهية"، كما ألف أربعة أجزاء من "إعانة الطالبين" شرح "فتح المعين". أما شيوخ مكة الآخرين الذين ذكرهم الشيخ عبد الله صالح الفارسي فهم الشيخ المفتي محمد سعيد بن محمد بابسيل، والسيد حسين بن محمد بن حسين الحبشي، والسيد أحمد بن زين دحلان. وفيما يتعلق بعلماء المدينة المنورة الذين قويت علاقاتهم التعليمية والثقافية مع حجاج زنجبار، فقد ذكر منهم الشيخ الطاهر المدني الحنفي، الذي كان يدرس كتاب "المسلسل"، الذي ألفه، وكتاب "الأربعين العجلونية"، الذي يتناول موضوع الحديث.[1]

وفيما يتعلق بخصائص الموانئ البحرية التي سافرت حجاج زنجبار وشرق أفريقيا منها، فيبدوا أنها حتى عام 1940 لم تكن متطورة، إذ إنها لم تسمح بإرساء البواخر الكبيرة ولا السفن، بل كانت ترسوا بعيدا عن الميناء مما اضطر الحجاج أن يستخدموا زوارق صغيرة للوصول إلى الباخرة في المكان الذي ترسوا فيه. فكانت هذه هي السمة الرئيسة للموانئ البحرية في معظم دول العالم الإسلامي تقريبا، والتي لم يسلم منها ميناء جدة كذلك.

لقد استنتج هذا البحث هذا الوضع من خلال كتابات بعض الحجاج ومنهم الشيخ محمد عبيد الحاج، الذي دون مذكرته واصفاً فيها رحلته إلى الحج، حيث ذكر مدينة جدة وميناءها وأهميتها لخدمة الحجاج في ذلك الوقت قائلا: "تعتبر جدة من المدن الرئيسية في الحجاز. وهي المقر لكل ممثلي جميع القوى الأجنبية. وقد زارها الحجاج بأعداد لا تعد ولا تحصى لآلاف السنين. ومع ذلك فإن مينائها ليس جيد مما اضطر أن ترسو السفن التي تنقل الحجاج على بعد ثلاثة أميال من المكان الذي

[1] Farsy: 1972، 21-33

ترسو فيه السفينة. ولكن هناك العديد من الزوارق ذات المحركات والقوارب الشراعية التي تجوب حول الميناء لنقل زوارها بشكل مريح على قدر الإمكان".[1]

هكذا كانت الأحوال في معظم موانئ شرق إفريقيا في ذلك الوقت. أما ميناء زنجبار فيبدوا أنه لم يتأثر بهذا الوضع حيث كانت السفن والبواخر البخارية العالمية المشهورة مثل فيرنزي (Firenze) وساليري (Saliere) ، و علفي (Alavi) ، وخسروو (Khousrou) ، وس س إسلام (SS Islam) ، و س س جحنجر SS Jehangir، و س س محمد (SS Mohammad) ترسوا فيه بدون مشكلة. ولعل هذه الحالة الإستثنائية، هي التي جعلت ميناء مدينة زنجبار يتصدر في نقل معظم حجاج شرق إفريقيا منذ النصف الأول من القرن 19الميلادي، إذ إنه كان الميناء الرئيسي في المنطقة في ذلك الوقت. لقد غادر من هذا الميناء الحجاج القادمون من جمهورية بروندي و الكونغو (Congo) عن طريق أجيجى (Ujiji) و تابورا (Tabora) إلى ميناء بجامويو (Bagamoyo) ثم يركبون البواخر الصغيرة إلى زنجبار. وهناك من الحجاج من وصلوا إلى ميناء زنجبار من موزامبيق (Mozambique) وملاوي (Malawi) عن طريق جنوب تنجانيقا، مرورا بكلوة (Kilwa). كما غادر الحجاج الآخرون من أقرب موانئ أخرى وأشهرها تنجا (Tanga)، ومكواني (Mkoani)، وميكينداني (Mikindani)، وباجامويو (Bagamoyo)، ومتوارا (Mtwara)، وويتي (Wete) إلى ميناء زنجبار البحري الدولي ليجتمعوا مع الحجاج الآخرين، ليبدؤوا رحلات الحج معا.

لقد اضطرت حكومة زنجبار في عام 1951 إلى إصدار قرار تعيين خمسة وكلاء للبواخر فقط، بعد أن لوحظ ازدياد كبير لعدد المراكب، التي تنقل الحجاج من زنجبار. وقد أجبر القرار بموجبه كل من أراد أن يشترك في رحلة الحج، أن يسجل نفسه لدى أحد هؤلاء الوكلاء وهم: سميث ماكينزي (Smith Mackenzie & Co.) وتاكم (M. Takim & CO)، وموجول (The Mogul Line Ltd)، ومارسون (Marison and company)، والوكالة البريطانية الهندية البحرية British–India) Steam Navigation)، والشركة الهولندية للشحن . (Dutch Cargo) ويبدو

[1] El Haj Mohamed: 1940: 4.

واضحا من القرار السابق، أنه جاء بالوكلاء، والبواخر، والسفن من الشركات العالمية، لكي تستمر سفنها وبواخرها بالمرور من موانئ مختلفة في العالم الإسلامي، حتى يتسنى لها جمع أعداد كافية من الحجاج الذين سيحجون إلى بيت الله الحرام، كما كانت تعمل سابقا.

ولعل هذا هو ضمن الأسباب التي جعلت هذه المراكب، تسلك بالحجاج المسارات البحرية المختلفة عند قدومهم إلى مكة المكرمة، وعودتهم إلى زنجبار، كما هو موضح في جدول رقم (1) أدناه:

جدول رقم (1) يوضح المسارات المألوفة لحجاج شرق أفريقيا إلى الحج باستخدام الطريقة البحرية

المسار	من	عن طريق	إلى
الأول	زنجبار	عدن ثم يأخذ الحجاج سفينة أخرى أو يسلك الطريق البري	جدة
الثاني	زنجبار	مومباسا ثم جيبوتي ثم بورت سودان	جدة
الثالث	زنجبار	الهند (وبومبي و كراتشي) ثم إلى عدن	جدة

تم رسم هذا الجدول من قبل الباحث بعد أن استخلص ما جمع من البيانات المذكورة من مصادر مختلفة ومنها مقابلات

ومما يلاحظ أن هناك بعض الحجاج الذين سافروا إلى الحج باستخدام الطرق البحرية كذلك، ولكنهم اتبعوا المسارات التي لم تكن معروفة ولا مألوفة لدى معظم حجاج شرق إفريقيا. فيورد هذا البحث هذه المسارات لكونها تم استخدامها من قبل قلة من الحجاج، الذين أصروا على أن يزوروا بعض المناطق المقدسة والتاريخية، وخاصة التي توجد في فلسطين والدول المجاورة لها. فيوضح الجدول الثاني أدناه هذا المسار "الغريب" الذي اتبعه بعض حجاج شرق إفريقيا إلى بلد الحج.

تم رسم هذا الجدول من قبل الباحث بعد أن استخلص البيانات المذكورة من كتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، حيث يقول المقدم للكتاب المذكور متحدثا عن كاتبه ما يلي: "وفي سنة 1323هـ/1905م حج الشيخ سعيد بن علي المغيري بيت الله الحرام، وزار قبر رسوله (ص)، وكان سفره للحج عن طريق قناة السويس، ومنها إلى بور سعيد، ثم يافا وبيروت، وزار بيت المقدس، وزار مدفن النبي إبراهيم عليه السلام وعائلته في الخليل، ثم سافر من حيفا إلى المدينة المنورة بالقطار، وذلك أيام دولة الشريف حسين". [1]

التفاهم والإفشال، فلا حرية ولا غيرة ولا شرف، فهم في حالة لهو عظيم ونوم عميق..."[2]. ولعلهم كتبوا هذه المقالة بعد أن لاحظوا انخفاض وفود الحجاج منها إلى ميناء زنجبار. وقد استخدم الحجاج الذين يعيشون في المناطق المذكورة وغيرها من المناطق الداخلية لبلدان شرق إفريقيا، وسائل النقل البدائية كالحمير والخيل والجمال أو مشياً على الأقدام من مناطق سكناهم إلى سواحل البحر، ومن ثم إلى زنجبار.

ويوجد من سكان المناطق الساحلية، والآخرين من سكان المناطق الداخلية، الذين ركبوا البواخر من زنجبار أم من الموانئ غير الرسمية، واتجهوا إلى ممباسا في كينيا. ومن ممباسا يركبون القطار أو الحافلات التي تنقلهم إلى مدينة سروتي (Soroti) في أوغندا ثم إلى مدينة نمولي (Nimule) ومدينة جوبا (Juba) في جنوب السودان. ومن جنوب السودان يركب الحجاج الباخرة النيلية إلى مدينة كوستي (Kosti) في السودان، ويواصل بعضهم إلى الخرطوم (Khartoum). وفي الخرطوم يمكثون أياما أو شهورا لاسترجاع الصحة أو لكسب المزيد من زاد السفر أو المصروفات، ثم يتجهون إلى مدينة سواكن التي تقع بالقرب من ميناء بورت سودان، فينتظرون الفرص المناسبة ليركب الحجاج منها البحر الأحمر، وهم متجهون إلى ميناء جدة. وقد يعتبر هذا الطريق البري أو المزدوج بين البر والبحر غريبا نوعا ما إلا

[1] المغيري: 1986: 24

[2] Alfalaq: 1953: 18/2

أن هناك من الوثائق الرسمية التي تؤكد على أن حجاج شرق إفريقيا قد فضلوه واستخداموه عندما تعذر عندهم استخدام طرق ووسائل أخرى بأسباب أمنية أو اقتصادية، كما حدث في سنوات الحرب العالمية الثانية أو في السنوات التي تلت تلك الحرب.

وقد عثر الباحث في دار الوثائق الوطنية في زنجبار على الوثائق التي وضحت كينونة هذا الطريق. وأقرب مثال لهذه الوثيقة الخطاب الذي كتبه والي مومباسا إلى مدير عمليات الحج في زنجبار عام 1950 وهو يستفسر منه حول الغموض الذي كان يواجه القائمون بترحيل حجاج المنطقة عن طريق البحر ذلك العام فقال له: "ليس هناك في الوقت الحاضر أية معلومات عن توافر مرافق الحج للحجاج لنقلهم إلى جدة عن طريق البحر. ومن شبه المؤكد أن شركات النقل البحري لن توفر سفينة، وبالتالي حجاج بيت الله الحرام من كينيا يريدون السفر عن طريق البر". فاستمر الوالي يشرح لمسؤول الحج في زنجبار الخطة التي بموجبها سيتم هذا السفر عن طريق البر. فاستفسر عما إذا كان من حجاج زنجبار من يرغب في الذهاب إلى الحج عن طريق البر، بعد حدوث صعوبة في وجود البواخر. فإن وجدوا فعليهم أن يسجلوا أسماءهم، وأن يصلوا إلى مومباسا في الزمن المطلوب، لكي ينخرطوا مع مجموعات الحجاج الكينيين الذين قرروا السير في هذا الطريق.

وقد أكد الوالي في خطابه على أهمية وصول الحجاج إلى ميناء سواكن في الوقت المناسب، لكي يتمكنوا من الحصول على المواصلات التي ستتجه إلى جدة مباشرة. ذلك لأن وصولهم في الموعد المطلوب سيجنب الحجاج عبء انتظار المواصلات، في المواعيد القادمة. فاستمر الوالي يوضح لمسؤول زنجبار الإجراءات اللازمة لهذه الرحلة، ومنها سعر تذاكر القطار والبواخر النهرية والموانئ النيلية التي سيمرون بها، وسيأخذون الركاب الجدد الذين يذهبون إلى الحج أيضا، وغيرهم من التجار والفلاحين. وذكر الوالي الدور الذي يتوقع أن تلعبه شركة السكك الحديدية في شرق إفريقيا لنقل هؤلاء الحجاج الذين سيستخدمون الطريق البري. ثم أخبره عن أهمية الحجز في الوقت المناسب لكي لا تفوت على هؤلاء الحجاج فرصة الوصول إلى مناطق الحج في الوقت الذي يحتاجونه. لأن تأخير الوصول عن الموعد

المطلوب قد يسبب التأخير في الرجوع. وذكر كذلك أهمية استخدام وكلاء السفر بما لديهم من خبرات لحجز المقاعد وما يتمتعون به من وسائل الاتصال الحديثة.

وبالفعل، لقد انضم الزنجباريون مع أفواج الحجاج الأخرى من دول شرق إفريقيا في استخدام هذا الطريق، ولاحظوا أنه كان أرخص ثمنا مقارنة بالطرق الأخرى التي اعتادها الناس. وقد اشتهر هذا الطريق أكثر حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى و الثانية بامتناع معظم شركات البواخر ووكلائهم بإنزال سفنهم إلى المحيط الهندي. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الطريق لا يستخدم حاليا، نظراً لعدم توافر الأمن بسبب الحروب التي تندلع من وقت لآخر بين المجموعات المتنافسة في معظم الدول التي يمر بها هذا الطريق. وهذه تعتبر من أكبر **التحديات** التي تواجه هذا الطريق حاليا.

أما عن التحديات التي كانت موجودة في السابق، فإنها تتمثل في المشكلات الصحية مثل حمل الحجاج للوباء والأمراض في الطريق، بسبب اختلاطهم مع غيرهم، وكذلك بسبب تناول الأطعمة غير الصحية. ولتجاوز ذلك كانت توجد مراكز تطعيم الحجاج الذين يصلون إلى الخرطوم للتأكد من عدم انتشار الأوبئة بين الحجاج والمواطنين. وهذه تعتبر من **الإيجابيات** التي تمتع بها هذا الطريق حيث إن استراحة الحجاج في الخرطوم، مثلا ساعدتهم على استرداد صحتهم حيث توافرت المراكز الصحية المخصصة لتطعيم الحجاج الوافدين من الدول الأفريقية؛ كما أعانت على تقوية روابط الحجاج الاجتماعية والتجارية من جهة وبين الحجاج والسودانيين من جهة أخرى. كما ساعدت على تجديد نشاط الحجاج كذلك. وهناك إيجابيات أخرى لهذا الطريق لا تقل أهمية، وهي تتمثل في اقتصادية تكاليفه، ليس لأنه كان يُسمح للحاج بحمل كل بضائعه، بل لأن ثمن تذاكر السفر في هذا الطريق كان أرخص بكثير مقارنة بتكاليف وسائل النقل في الطرق الأخرى للحج. فتكلفة نقل حاج واحد من زنجبار بالدرجة السياحية في الطائرة في عام 1951 مثلا كانت 2000 شلنا، في حين أنها كانت 500 شلنا فقط للحاج، الذي استقل وسائل نقل الطرق البرية، كالسكك الحديدية والسفن البخارية وسيارات شحن بالدرجات الثانية. وكانت تكلفتها أقل من نصف ذلك السعر للحاج، الذي استخدم أدنى دراجات وسائل النقل البري. هذا

بالإضافة إلى وجود عنصر استكشاف مناظر الدول الإفريقية والإسلامية المختلفة التي يمر فيها حجاج الطرق البرية.

أما السبب الثاني الذي دعا إلى عدم استخدام هذا الطريق، هو إتاحة الطرق الأخرى، وخاصة الطريق الجوي الذي يفضله معظم القائمين بأمور تنظيم الحج والحجاج في المنطقة بل والعالم.

الطرق الجوية: بدأ حجاج شرق إفريقيا يستخدمون الطريق الجوي إلى مكة المكرمة منذ أوائل الأربعينات من القرن العشرين. وفي عام 1945 أصدرت الحكومة مرسوما وقرارات تنظم رحلات الحج عن طريق الجو. حيث أعلنت أن من أراد أداء فريضة الحج بالسفريات الجوية لا بد أن يكتب طلباً رسمياً إلى الحكومة. وقد تمكن الباحث من الإطلاع على أوائل الوثائق المتعلقة ببدايات تنظيم رحلات الحج عن طريق الجو في شرق أفريقيا والتي توجد في دار الوثائق الوطنية في زنجبار، ولاحظ أن بداياتها لم تكن سهلة. فكان لا بد لحكومات دول شرق إفريقيا، أن تصدر قرارات كثيرة وموحدة التي بموجبها تم وضع نظام نقل الحجاج عن طريق الجو. ففي يوم 17 فبراير 1948 مثلا أصدرت مديرية الطيران المدني لشرق إفريقيا تعميمها رقم 1 تحت العنوان، "رحلات جوية إلى المملكة العربية السعودية" وضحت فيها ما يلي: " بهذا يتم إخطار جميع مشغلي الطائرات المرخصة في شرق إفريقيا، أن طلبات الحصول على إذن لنقل الحجاج من شرق إفريقيا إلى المملكة العربية السعودية، يجب أن يتم من خلال مديرية الطيران المدني في شرق إفريقيا لإحالتها إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات. ولا ينبغي أن يكون هناك الطلب المباشر لحكومة المملكة العربية السعودية".

لقد تم توزيع هذا التعميم إلى أكثر من 32 شركة من الشركات الطيران المحلية والعالمية، منها على سبيل المثال الخطوط الجوية لشرق إفريقيا، والخطوط الجوية الفرنسية، وخطوط الجوية الإفريقية المحدودة، والخطوط الجوية الإثيوبية، والخطوط الجوية لإفريقيا الوسطى، والخدمات الجوية المتحدة، وشركة أوغندا المحدودة في نيروبي وكمبالا ودار السلام، وشركة سْكَيْ وَيْز المحدودة، ونادي الطيران للأخدود العظيم، والخطوط الجوية لجنوب إفريقيا، وشركات السويد العالمية للطيران...إلخ.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التعميم تم نسخه و إرساله إلى كثير من المسؤولين الإداريين في دول شرق إفريقيا ومنهم: المفوضية العليا لشرق إفريقيا، وكبير وزير الشرفاء في كينيا، وأمناء الوزراء في كل من كينيا وإنتيبي، ودار السلام وزنجبار، والضابط الرئيسي للطيران في دار السلام.

وقد شجع نجاح هذا التعميم حكومات شرق إفريقيا أن تصدر القرارات، التي كانت تحفز كل مواطن أراد القيام برحلة الحج أن يستخدم الوسائل الجوية، حتى تتمكن الحكومة من السيطرة على العقود و تنظيم قوافل الحج وإدارتها على أحسن وجه. وللتأكيد على هذه العزيمة، قررت حكومات شرق إفريقيا أن يتم تسجيل كل من أراد الذهاب إلى الحج لدى الشركات والوكلاء المعنيين. وفي عام 1950 أصدرت تلك الحكومات قرارا آخر يلزم كل من يريد السفر إلى الحج عن طريق الجو، أن يستعمل الخطوط الجوية لشرق إفريقيا (East African Airways) لا غيرها، حتى يتماشى مع القوانين التى وضعتها حكومة المملكة العربية السعودية بعد ملاحظتها لازدياد مزاحمة الطيران في مطار جدة في موسم الحج السابق عام 1949؛ مما اضطرت إلى أن تضع نظاماً معيناً لوصول الحجاج وزمن خاص لاستقبال الطائرات. ونجده هذا المفهوم مجسدا في الخطاب الذي يحمل رقم .Ref) S.A.EAI.1/IV/208) ليوم 1 مايو 1951، حيث توضح السفارة البريطانية بجدة لحكومات شرق إفريقيا الإجراءات التي يجب اتباعها من قبل الحجاج ومنها: يجب على الحجاج المحترمين من دول شرق إفريقيا، أن يبلغوا أن يوم عرفات سيكون بين يومي 10 و 12 سبتمبر اعتمادا على رؤية الهلال. ولذلك أفادت حكومة المملكة العربية السعودية أن الموعد الأخير لوصول الحجاج سيكون كالآتي: عن طريق الجو: قبل يومين من يوم عرفة. وعن طريق البحر، قبل ثلاثة أيام من يوم عرفة.

وهناك من **التحديات** التي ظهرت في بداية استخدام وسائل الطرق الجوية لنقل حجاج شرق إفريقيا إلى الحج، منها غلاء أسعار الحج. لقد تطورت هذه التحديات إلى أن اضطرت لجنة الحج في زنجبار إلى أن تقترح على الحكومة، أن يعاد استخدام وسائل النقل البحري كما كان سابقا. وعينت اللجنة السفينة الحكومية التي تسمى بالسيد خليفة للقيام بنقل هؤلاء الحجاج إلى منطقة الحج. والشيئ الذي

لفت نظر الباحث هو معرفته لأن اللجنة المشرفة على الحج في زنجبار، لم تكن تخدم الزنجباريين أو مسلمي شرق إفريقيا، فقط بل تجاوز حدود عملها إلى مناطق وسط وجنوب إفريقيا. لقد عاين الباحث خطاب اللجنة الذي أُرسل إلى كبار سكرتير الحكومة في زنجبار، ويحمل رقم (Ref.no.C.49/180) ليوم 19 يوليو 1960 تحت عنوان "النقل البحري لآداء فريضة الحج" كيف أن احتجاجها كان يعم كل الحجاج الذين يستخدمون الطائرات التي تمر بزنجبار عند نقلها لحجاج بيت الله الحرام من مناطق إفريقيا جنوب الصحراء. لقد بينت اللجنة هذا المفهوم في أحد فقرات خطابها، وذلك على النحو التالي: "... وتشمل الأرقام المذكورة أعلاه، الركاب الذين يستوطنون من روديسيا(زمبابوي الحالية) وجنوب إفريقيا، وموريشاس، ومدغشقر، وموروني بالإضافة إلى الذين يسكنون في شرق إفريقيا.

ومع ذلك فإن لجنة الحج واثقة من أن معظمهم سيفضلون السفر عن طريق البحر، بما لديه من الفوائد الاقتصادية لهم (وهذا يعتبر **إيجابية** أخرى للطرق البحرية). وفي الوقت نفسه فإن لجنة الحج واثقة كذلك من أنه يمكن الحصول على المزيد من الركاب بالإضافة إلى هؤلاء الذين يتم نقلهم عن طريق الجو، ويرجع ذلك إلى انخفاض تكلفة النقل البحري.

لقد أظهر خطاب لجنة الحج الذي ذكرناه أعلاه، كذلك بيانات تاريخية مهمة جدا تتعلق بأعداد الحجاج الذين سافروا عن طريق الجو بين عام 1957 إلى عام 1959، وليس لتنزانيا فقط بل لشرق إفريقيا على وجه العموم. فكان عدد الحجاج المستخدمين لهذا الطريق يرتفع دائما كلما ارتفع عدد شركات الطيران كذلك، مما جعل الشركات الجوية العريقة مثل الشركة الهولندية المسمى ب: ك ل م (KLM) تطالب بنقل حجاج زنجبار ودول أخرى في المنطقة، مرورا بمقديشو إلى مدينة جدة. وقد اختلفت أشكال الطائرات التي أخذت حجاج شرق أفريقيا من حيث أحجامها وحمولتها بين قديم وحديث، كما تباينت مساراتها كذلك.

وبعد أن أصدرت الحكومة قراراتها التي تنظم رحلات الحج بالمجال الجوي، أصبحت الوسائل الجوية تجلب أكثر الناس في كل عام تلو الآخر. وبمجيء عام 1980م (1400 هـ) أصبحت هي الوسيلة المسيطِرة على عملية ترحيل الحجاج،

بعد أن تركت الطرق والوسائل التي استخدمت سابقا. وقد انفردت الخطوط الجوية التنزانية من عام 1980 إلى أواخر التسعينات من القرن العشرين، بنقل حجاج زنجبار وتنزانيا عامة. وحينما ضعفت الخطوط الجوية التنزانية، لجأ حجاج زنجبار إلى استخدام الخطوط الجوية الخارجية المختلفة مثل الإثيوبية، والكينية، والقطرية، واليمنية، والإماراتية، والعمانية، والمصرية. ويجب أن يلاحظ القارئ أن كل طائرة من الخطوط الجوية المذكورة أصرت على أن تذهب بالحجاج إلى أحد المطارات الموجودة في الدولة التي تنتمي إليها الطائرة. فنجد الطائرات الإثيوبية مثلا لا بد أن تمر بمطار بولي، والكينية بجومو كيناتا، والقطرية بالدوحة، واليمنية بعدن، والإماراتية بأبوظبي، والعمانية بمسقط، والمصرية بالقاهرة وهكذا. ولعل السبب الرئيسي الذي أدى إلى حدوث ذلك هو اتباع القوانين العالمية المنظمة للنقل الجوي التي تلزم الخطوط الجوية فعل ذلك.

وبالرغم من وجود بعض التفاوت بين مواصفات الطائرات التي تنقل حجاج شرق إفريقيا عامة، وزنجبار خاصة بين الوقت الحاضر و في الأربعينات من القرن العشرين، عندما بدأ الحجاج استخدامها، إلا أنهم متفقون على أهمية إذاعة أخبار الحج بين المواطنين الآخرين، وأهمية الدعاء لحجاج بيت الله الحرام.

فمن خلال تصفح الباحث لصحافة زنجبار التي صدرت في القرن العشرين لمعرفة ما إذا كانت قد تناولت مواضيع الحج أم لا، اندهش الباحث حينما وجد جريدة أسبوعية تصدر في زنجبار كل يوم خميس باللغتين الإنجليزية والعربية تسمى النهضة، (لتاريخ 13- 30 يوليو 1953) تنشر أخبار تتعلق بالحج تحت عنوان "حجاج بيت الله الحرام". فقد تناولت الجريدة الموضوع، وهي تذكر أفواج الحجاج الذين تم نقلهم إلى الحج بالطريق الجوي بقولها: "قامت الطائرة الأولى من زنجبار تقل الفوج الأول من الحجاج وذلك فجر يوم السبت 25-7-1953، والفوج الثاني كان سفره يوم الأحد 26-7-1953، والثالث فجر الأربعاء 29-7-53، وستكون الطائرة الأخيرة للفوج الرابع فجر يوم الإثنين 3-8-53. صحبتهم السلامة ورافقهم التوفيق في الحال والترحال، جعله الله حجا مبرورا مقبولا". كما ذكرت الجريدة في مكان آخر زيارة رئيس

الجريدة وصاحبها إلى الأماكن المقدسة بالحجاز للحج لمدة أربعة أسابيع. ولقد تمني له في الختام "سفرا سعيدا موفقا، وحجا مقبولا مبرورا إن شاء الله صحبته السلامة".[1]

ولم يخل الطريق الجوي لنقل الحجاج من بعض **التحديات** كما تشير إلى ذلك سجلات تاريخ الحج في زنجبار حيث وثقت المشكلات التي تتعلق بفقد الحجاج لبعض أمتعتهم من الطائرات؛ التي تنقلهم من وإلى الحج. كما أن هناك قضية وفاة الحجاج؛ مما كان يضطر من يفقد أمتعته إلى أن يكتب المطالبة إلى الجهة الناقلة أو أن يطالب أهل المتوفى بمستحقات من تُوفي من ذويهم في بلد الحج. فإن وجد الحاج ما فقد فهو المراد، وإن لم يجد فتُسدِّد شركة الطيران المبلغ الذي يناسب العفش المفقود. وفيما يتعلق بموت الحاج وهو في الحج فكان يتم دفع المستحقات المتبقية للحاج المتوفى لورثته، وهكذا تزال التحديات[2].

أما فيما يتعلق **بإيجابيات** الطرق الجوية، وكذلك الطرق البحرية، بل والبرية نوعا ما– نجدها تتمثل في ظاهرة التعارف والتبادل الثقافي الواسع بين حجاج الدول المختلفة، الذين كانوا يسافرون معا بوسيلة مواصلات واحدة. وهذا هو ما كان يفعله حجاج منطقة شرق وجنوب إفريقيا في بداية القرن العشرين إلى الربع قبل الأخير منها حيث كانت الطائرات تمر بمطارات دول مختلفة تجمع حجاج من تلك الدول في رحلة واحدة. كما كانت الباخرة تمر بموانئ مختلفة من دول العالم تأخذ حجاج تلك الدول كذلك. فيبدأ حجاج الدول المختلفة، من جنوب ووسط وشرق إفريقيا وبالدول العالمية الأخرى مثل الهند بالتعارف وتبادل الآثار فيما بينهم داخل الطائرة أو الباخرة، قبل أن يصلوا إلى ميقاتهم، ومناطق الحج الأخرى. ولم يكن من الضروري أن ينعزل حجاج دولة عن أخرى في تلك المواصلات، كما يحدث في الوقت الراهن. وينتج عن ذلك، الاختلاط والتعارف، والتعاون، وتبادل المنافع، وكسب الود وبناء الثقة والأخوة. وهي كلها من الإيجابيات الثقافية لطرق الحج.

---

[1] Annahdha: 1953: 2

[2] زيدي وآخرون: 2016: 82.

الخاتمة:

لقد عرضت هذه الدراسة موضوع طرق الحج من شرق إفريقيا إلى مكة المكرمة في القرن العشرين. وركزت الدراسة حول طرق الحج التي استخدمها حجاج زنجبار خاصة، وشرق إفريقيا عامة؛ مبينا فيها بعض الإيجابيات والتحديات، التي واجهت هذه الطرق. وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن رحلة الحج إلى مكة المكرمة قد بدأت في شرق إفريقيا منذ أن استقر الإسلام فيها في القرن الثامن الميلادي. إلا أنه يصعب إثبات ذلك بالوثائق الملموسة أو كتابات متعلقة بالحج، الذي مارسه سكان المنطقة في ذلك الزمان. وقد أرجع بعض كتّاب التاريخ الإسلامي في المنطقة، ومنهم الشيخ المغيري سبب هذا النقصان إلى عدم اهتمام المسلمين الأوائل في المنطقة بتسجيل أعمالهم ونشاطاتهم الدينية. ويمكن تقسيم رحلات الحجاج من شرق إفريقيا فيما يتعلق باستعدادهم وتجهيزهم وبالظروف المحيطة بهم إلى ثلاث مراحل وهي الفردية/السرية، والجماعية/المذهبية والرسمية/الحكومية. أما عن طرق الحج التي تم استخدامها من قبل الحجاج فهي ثلاثة كذلك، وهي الطرق البحرية، والبرية/المزدوجة والجوية. لقد اكتشفت هذه الدراسة أن الحجاج الأوائل وخاصة الذين استخدموا الطرق البرية، كانوا يجابهون بعض التحديات الصعبة منها العصابات أو قطاع الطرق أو الحيوانات المفترسة أو الكوارث الطبيعية من السيول والفيضانات والأمطار الغزيرة أو شح المياه. أما فيما يتعلق بالتحديات التي واجهت الطرق البحرية، فمنها القراصنة البحرية، والتقلبات الجوية، والعاصفة الرعدية، والإعصار، كالتي حدثت في زنجبار يوم 15 أبريل 1872. فقد دمر هذا الإعصار السفن التجارية، التي كانت تنقل الحجاج أحيانا، كما أهلكت ودمرت القوارب الصيدية. لقد غرقت أكثر من 150 باخرة كان يمتلكها الزنجباريون، وبداخل معظمها حمولاتهم.[1]

ولعل هذه التحديات الناجمة من الكوارث الطبيعية والإنسانية، هي التي جعلت لحظات وداع الحجاج في بداية القرن العشرين، أن تحاط بالأحزان الشديدة من قبل أقربائهم وأصدقائهم لاحتمال عدم رؤيتهم مرة أخرى. ويعزى سبب ذلك لما كان

[1] www.pdavis.nl/storm.htm (London News، 1 June 1872

عند الناس من اعتقاد أن رحلات الحج لا بد أن تحاط بالمخاطر الطبيعية أو الإنسانية، بغض النظر إلى نوع طريق الحج الذي يستخدمه هؤلاء الحجاج.

أما فيما يتعلق **بإيجابيات** طرق الحج الثلاثة فاكتشف البحث أنها تتمثل في سمات مختلفة، منها ما يتمثل في التبادل الثقافي والتعليمي، ومنها ما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياحية وغيرها.

لقد انقرضت أهمية الطرق البرية/المزدوجة للحج بعد منتصف القرن، العشرين كما تلاشت الطرق البحرية (على الأقل في شرق إفريقيا) بعد أن شجعت حكومات شرق إفريقيا بالتعاون مع المملكة العربية السعودية حجاج المنطقة باستخدام الطرق الجوية التي أصبحت متوافرة بكثرة، وتختصر المسافات والزمن الذي يستغرقه حجاج بيت الله الحرام.

المراجع

1. **وثائق من دار الوثائق الوطنية في زنجبار**

- AB 22/29
- AK3/91 – 1958-63
- Alfalaq AB5/16
- Annahdha NW 5/2
- وثيقة رقم C.49/18 لتاريخ 16 – 7 – 1960 من وثائق دار الوثائق القومية.
- وثيقة رقم 47/36/112/164 ليوم 17 – 11 – 1947 من وثائق دار الوثائق القومية.

2. مقابلات شخصية:

- الشيخ راشد بن سالم بن علي بن جمعةالعبري في يوم 3-8-2013م

الشيخ علوي في يوم 3 -8 – 2013م.

- الأستاذ عبد الله طالب عبدالله 6-8-2016

3. المراجع العربية

- المغيري، سعيد بن علي (1986)، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق علي الصليبي، وزارة القومي التراثي والثقافة، سلطنة عمان.
- زيدي، عيسى الحاج وآخرون (2016)، الحج والحجاج في جمهورية تنزانيا المتحدة، (البحث غير مطبوع).

4. المراجع غير العربية:

- Abdul Sheriff، Islam in East Africa: New Sources (Archives، Manusripts and Written Historical Sources، Oral History، Archeology، in Biancamaria Scarcia Amoretti، Rome، 2001.
- El-Haj، Mohammed، S. A.، 1940، A Monograph on Holy Pilgrimage to Mecca، Zanzibar، Tanzania.
- Farsy، Abdullah Saleh (1972)، Baadhi ya wanavyuoni wa kishafi wa Mashariki ya Afrika، Mombasa.

5. المواقع والشبكات التواصلية

- https//www.pdavis.nl/html.(London News، 1،June 1872) (30/8/2015).
- http//articles.islamweb.net (30/8/2015)
- http//ar.wikipedia.org (30/7/2016
- Zanzinet.net

رحلة حج أبي الحسن الشاذلي عبر صحراء عيذاب منتصف القرن 7هـ/13م وأثرها الروحي في سودان وادي النيل

أ. إسماعيل حامد إسماعيل علي

مقدمة:

تَرصُد هذه الورقةُ واحدةً من أهم الرحلات التي مرت عبر طريق الحج المصري، وهو المعروف بطريق (قوص– عيذاب). وهذا الطريق كان يسلكه الحجاج القادمون من بلاد المغرب العربي، وكذلك حجاج بلاد السودان الغربي، والسودان الأوسط، ولهذا كانت مدينة قُوص توصف بأنها "ملتقى الحجاج المصريين والمغاربة والسودانيين". وتلك الرحلة قام بها أحد أئمة التصوف الكبار، وهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي" (593–656هـ/1197–1258م). بدأ الشاذلي رحلته إلى الحج قادمًا من مدينة الإسكندرية، ثم سلك الطريق من القاهرة إلى الصعيد عبر نهر النيل حتى مدينة قوص، ثم اتجه إلى صحراء عيذاب. والمعروف أن الشاذلي قام بالعديد من رحلات الحج، وقد وافته المنية خلال إحداها، وكان الشيخ لايزالُ في صحراء عيذاب، ثم دُفِن بـ"الحُميثراء" في سنة 656هـ/1258م، وقبره هناك مزار معروف يرتاده محبوه، وأتباع طريقته. ورغم ذلك لم تنل هذه الرحلة الاهتمام من المؤرخين بقدر مكانة الشيخ الشاذلي بين أعلام التصوف.

تعجُ كتب التصوف بكرامات أبي الحسن الشاذلي خلال هذه الرحلة، ولعل منها فيما يُروى لقاءوه بالخَضِر عليه السلام بـ"صحراء عيذاب" حسب ما ورد في الروايات الصوفية. وثمة أمرٌ مهم تهدف الورقةُ إلى الحديث عنه فيما يرتبط بهذه الرحلة، وأثرها الروحي والديني في سودان وادي النيل، خاصة مع انتشار "الطريقة الشاذلية" هناك والتي تُعد واحدة من أقدم الطرق الصوفية في هذه البلاد، والمؤكد أن ذلك يرتبط برحلة أبي الحسن الشاذلي، ووجود قبره بـ"صحراء عيذاب".

وعلى أية حال تحاول هذه الورقةُ أن تُميط اللِثام عن أسرار هذه الرحلة، وما رافقها من أحداث، كما أنها تصف مسالكها، ودروبها عبر الصحراء، خاصة

المحطات الصحراوية التي تمتد من مدينة قوص وحتى ثغر عيذاب، وما ارتبط بهذه الرحلة من كرامات الشيخ، ثم وفاته بـ"صحراء عيذاب"، ودور هذه الرحلة في انتشار الطريقة الشاذلية في سودان وادي النيل، وأشهر شيوخ الطريقة، وأثرهم بين السودانيين. وتناقش الورقة هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

أولاً – أبوالحسن الشاذلي (شخصيته ومكانته).

ثانيًا – قدوم الشاذلي من تونس إلى مصر.

ثالثًا – وصف طريق الحج الذي سلكه الشاذلي: (قوص– طريق العبدين– ماء دنقاش – ماء شاغب – أمتان – مجاج – رملة ميثاء – العشراء – ماء الخبيب – الحُميثراء – عيذاب).

رابعًا – كرامات الشاذلي خلال رحلة الحج في صحراء عيذاب.

خامسًا – وفاة الشاذلي في حميثراء بصحراء عيذاب (656هـ/1258م).

سادسًا – الأثر الروحي لرحلة حج الشاذلي في سودان وادي النيل.

أولاً – أبو الحسن الشاذلي (شخصيته ومكانته):

هو الشيخ علي بن عبدالله بن عبد الجبار الشاذلي (593–656هـ/1197–1258م) [1]، ويُكني أبا الحسن، وهو ينتسب إلى قرية تدعى "شاذلة" (*)، وهي من

---

[1] وللمزيد عن شخصية الشيخ أبي الحسن الشاذلي، انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ7 الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م ص68–69، الشعراني: الطبقات الكبرى، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2011م، ص363–370، ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، مكتبة القاهرة، 1964م، ص7 وما بعدها، على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، جـ14، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م، ص179، ود ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط3، دون تاريخ، ص8، وانظر أيضا:

J. Spencer trimingham: A History of Islam in West Africa، Oxford Paperback Oxford University Press، Londen، 1975، P. 157

(*) شاذلة: وهي تكتب بالشين والذال المعجمتين، وهي قرية من قرى أفريقية، وهي تقع في تونس حالياً، وقد سُمي أبا الحسن الشاذلي بهذه المدينة رغم أنه لم يولد بها، لأنها كانت أكثر المدن التي ارتبط بها الشيخ (وللمزيد، انظر على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، جـ14، ص181)

قرى أفريقية [1]. غير أن الشاذلي ولد في إحدى قرى مدينة "سبتة" بالمغرب الأقصى، وتدعى "غمارة" ([2]). وقيل في بعض المصادر الأخرى إن المدينة التي وُلد بها تُعرف بـ "بستة" [3]، غير أن اسم "سبتة" هو الأصح. وتصف المصادر أباالحسن الشاذلي بـ "الضرير"، إذا كان قد أُصيب بالعمى قبل موته [4]. وينتسب الشيخ الشاذلي لنسل آل البيت، إذ ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما [5]. وهو مؤسس "الطريقة الشاذلية" المعروفة، وهي واحدة من أهم الطرق الصوفية التي لاقت انتشارًا، ولهذه الطريقة وجود قوي في العديد من البلدان، منها: مصر، والمغرب، وسودان وادي النيل. وفي وصف أبي الحسن الشاذلي، ومكانته، قال ابن عطاء الله السكندري: "قُطب الزمان، وزمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، القُطب، الغَوث.."[6].

أخذ أبو الحسن الشاذلي العلم صغيرًا، وتتلمذ على يد كبار العلماء والفقهاء في بلاده، ولعل أهمهم: الشيخ عبد السلام بن مشيش (*)، والشيخ نجم الدين الأصفهاني [7]، والشيخ أبو عبدالله بن محمد بن الحسن، وهو المعروف باسم "ابن حرازم" [1]

---

[1] الشعراني: الطبقات الكبرى، ص363

[2] عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1992م، ص124

[3] على باشا مبارك: المصدر السابق، ص181، والراجح أن هذا الاسم (أي بستة) ليس إلا تصحيفا لاسم سبتة، وربما يكون ذلك خطأ وقع فيه الناسخ الذي دون مخطوطة هذا الكتاب.

[4] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص69

[5] أما نسب أبي الحسن الشاذلي إلى الإمام الحسن، فهو: هو علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن يوسف بن.. محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (انظر عامر النجار الطرق الصوفية، ص124)

[6] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363.

(*) عبد السلام بن مشيش: هو شيخ أبي الحسن الشاذلي، توفي سنة 625هـ/1227م، وكان ابن مشيش قد أخذ العلم عن شيخه "أبي مدين شعيب" (ت: 594هـ/1197م)، كما أنه أخذ عنه أفكاره في التصوف، وهي أيضاً التي تأثر بها أبو الحسن الشاذلي بعد ذلك، والتي لاقت ذيوعاً بقوة في بلاد المغرب العربي، وشمال أفريقيا، ولاسيما فيما يخص التعاليم Sufi Teachings ، والطقوس الصوفية، وكذلك ما يرتبط بـ "نظام التصوف"Decipline .

(وللمزيد، انظر J. Spencer trimingham: A History of Islam in West Africa، P. 157

[7] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363

وغيرهم. وكان الشاذلي نحيف الجسد، طويل القامة، خفيف العارضين[2]. كما تصفه المصادر بأنه عالم، وفقيه، فصيح اللسان، وعذب الكلام[3]. وعن غزارة علمه، وسعة مداركه، فإنه لما قيل لأبي الحسن الشاذلي: "من شيخُك ؟ قال: أما فيما مضى فعبدالسلام بن مشيش، وأما الآن فإني أُسقى من عشرة أبحر، خمسةٌ سماوية، وخمسةٌ أرضية.."[4]. وذاعت شهرةُ أبي الحسن في تونس، وزاد أتباعه، لما كان يتمتع به من سعة العلم، والفهم، إذ كان عالماً، فقيهاً أبهر الناس بمعارفه، وهو ما جعل المعاصرين له من العلماء يشعرون بالغيرة منه، وحسدهم له، وكان من بين هؤلاء قاضي القضاة ابن البراء.[5]

ثانيًا – قدوم الشاذلي من تونس إلى مصر:

لما شعر أبوالحسن الشاذلي بما يجيش بأفئدة أنداده، عزم على الرحيل من تونس، والذهاب إلى الديار المصرية، والإقامة بها. وعندما علم السلطان بذلك قال له الشاذلي: "ما خرجتُ إلا بنِية الحج، وإذا قضى الله حاجتي أعود إلى تونس..")[6]، عندئذ سمح له السلطان بالرحيل من البلاد. ويذكر أبوالحسن الشاذلي أنه ذهب إلى الديار المصرية بناءً على رؤية رآها، وفيها يأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينتقل إلى هذه البلاد، ومن ثم الإقامة بها[7].

وعلى هذا فإن أباالحسن الشاذلي ترك بلاده بسبب الظروف التي كان قد تعرض لها، واختار مصر بناء على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه حسب بعض الروايات لما قدم إلى هذه البلاد قال: "لما وصلتُ الديار المصرية، قلتُ: يارب أسكنتني بلاد القبط أُدفن بينهم، فقيل لي: يا علي تُدفن في أرض ما عُصيتُ عليها

---

[1] علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ14، ص180

[2] المصدر السابق، ص181

[3] المصدر السابق، ص181

[4] النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ2، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ، ص363

[5] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363، وانظر أيضا عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص128

[6] عامر النجار: المرجع السابق، ص128

[7] المرجع نفسه.

قط" [1] . وقبل أن يصل الشاذلي مصر، بعث قاضي القضاة في تونس برسالة لسلطان مصر في ذلك الوقت الملك "الكامل محمد بن الأيوبي" ليحذره من الشاذلي، وذكر فيها أنه "شَوّشَ علينا بلادنا، وكذلك يفعل ببلادكم"[2].

لم يكد أبو الحسن الشاذلي يطأ الإسكندرية حتى قُبض عليه، وعُقد له مجلس من الفقهاء والعلماء ليمتحنوه. وبعد أن تم لهم ذلك، أدركوا ورع الشيخ، وسعة علمه. وأدرك السلطان مكيدة قاضي القضاة، وغيرته من الشاذلي، فأكرمه، وأحسن وفادته[3]. ولما استقر بالإسكندرية، كان أشهر العلماء بها في أيامه أبو الحسن الواسطي، وكان يعلم مكانة الشاذلي، كما كان الشاذلي يعلم مكانة هذا الفقيه، ولهذا فما أن قدم هناك حتى وقف بظاهر المدينة، واستأذن الواسطي ثم قال: "طاقيةٌ لا تَسَعُ رأسين.."[4]. وأراد الله أن يخلو المكان للشاذلي، وأن يكون وحده مقصد طلاب العلم دون ندٍ، فمات الواسطي في ذات الليلة التي قال الشاذلي فيها ذلك[5].

وطاب للشاذلي المُقام بالإسكندرية، وبقي بها حوالي 14 سنة منذ 642هـ/1244م إلى سنة 656هـ/1258م حتى وفاته بـ "صحراء عيذاب"[6]. وكانت له مجلس علم بالإسكندرية بمسجد العطارين، كما كانت له مجالس بداره، وكان محبوه يأتون إليه من كل حدب وصوب. كما كان يحضر دروسه كبار العلماء والفقهاء، منهم: العز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، والحافظ المُنذري، وابن الصلاح، وابن الحاجب[7]. وكانت داره بأحد أبراج سور المدينة حبسه السلطان عليه، وعلى بنيه، وكان أسفله مرابط للماشية، وأوسطه دار للفقراء، وجامع كبير[8].

---

[1] ابن عياد الشاذلي: المفاخر العلية، ص54، على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، جـ14، ص179

[2] عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص128

[3] المرجع السابق، ص128

[4] النبهاني: جامع كرامة الأولياء، جـ2، ص364

[5] المصدر السابق، ص364، وعن ذلك قال المناوي: "وذلك لأن من دخل بلدا على فقير بغير إذنه، فمهما كان أحدهما أعلى مقاما سلب الآخر، أو قتله..." (انظر النبهاني: المصدر السابق، ص364)

[6] الشعراني: الطبقات، جـ2، ص363، عامر النجار: المرجع السابق، ص129

[7] عامر النجار: المرجع السابق، ص132

[8] المرجع السابق، ص132

ثالثًا – وصف طريق الحج الذي سلكه الشاذلي (قوص – عيذاب):

كان أبو الحسن الشاذلي يهفو قلبه إلى أرض مكة، وبعد أن أقام بمصر صار خروجه للحج أمرًا ميسورًا عن ذي قبل، إذ كانت مصر مقصد المغاربة والسودانيين للذهاب إلى الحج، وكان طبيعياً أن تكثر زياراته إلى مكة[1]. ولهذا قال الشعراني: "وحَج (أي الشاذلي) مراتٍ.." [2]. وكانت مدينة الإسكندرية في ذلك الوقت مقصد الحجاج من المغرب الأقصى، وخاصة القادمين من "سبتة" التي وُلد بها الشاذلي، وكان الرحالة ابن جبير اتخذ ذات الطريق قبل ذلك بحوالي أقل من قرن[3]. وقد اتخذ الشاذلي في رحلته إلى الحج ذات الطرق والمسالك التي كان يسلكها الحُجاج المغاربة، وهي أيضا ذاتها التي كان يعبرها الحُجاج القادمون من بلاد السودان الغربي والأوسط إلى بلاد الحجاز، وهو طريق "قوص – عيذاب"، خاصة وأن طريق بلاد

---

[1] الشعراني: الطبقات، جـ2، ص363

[2] المصدر السابق، ص363

[3] 3) ابن جبير: الرحلة، ص70، محمد عبدالله عنان: تراجم اسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م ص328، آنخل جونزالز بالنسيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011م، ص361، وللمزيد عن طريق الحج، انظر ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص42–43، ابن الطيب: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، دارالعراب، دون تاريخ، ص160، النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م ص292، الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص615، بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة: فؤاد أندراوس، تقديم: محمد الصياد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 2016م، ص321، شوقي الجمل: كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين كمصدر لتاريخ العرب (كتاب وصف افريقيا للحسن بن محمد الوزان، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1998م، ص373، ديفيد جورج هوجارت: اختراق الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، ط2، القاهرة، 2009، ص395.

(*) طريق الحج عبر بلاد الشام: وللمزيد عن هذا الطريق، انظر النابلسي: رحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز)، ص156، هشام بن محمد عجيمي: قلعة الأخضر في طريق الحج الشامي دراسة تاريخية وثائقية، المجلة المصرية للآثار الإسلامية (مشكاة)، عدد 2، 2007م ص239.

الشام (*)، أو "الدرب الشامي" [1]، كان في ذلك الوقت تُحيط به الكثير من المخاطر، وانعدام الأمن بسبب "الحروب الصليبية"، وهو الطريق الذي كان يمر عبر القلزم (السويس) وبلاد الشام[2].

وخلال القرن 6هـ/12م وهي الحقبة التي ارتحل فيها الشاذلي إلى مصر كان الصليبيون يسيطرون على طريق العقبة، وشمالي البحر الأحمر[3]. وكانوا يعتدون على قوافل الحج التي تمر من بلاد الشام[4]. ولهذا اضطر الحجاج أن يأخذوا طريق الفسطاط إلى قوص عبر النيل، ثم يسلكون طريق الصحراء إلى عيذاب[5]. وعلى أية حال، كان يوم خروج "موكب الحج" من القاهرة يُعرف باسم "يوم المحمل"[6]. وكان

---

[1] ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص47

[2] للمزيد انظر آنخل جونزالز بالنسيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص361، عادل عبدالحافظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص75، جلال يحيى: البحر الأحمر والاستعمار، المكتبة الثقافية، القاهرة، 1962م، ص13

[3] أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ3 (مواكب مصر واحتفالاتها)، ترجمة: الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، 2010م، ص144، ويذكر الرحالة التركي أوليا جلبي أيضا أن موكب الحج كان يخرج في يوم 23 من شهر شوال، وكان أهل مصر يقومون باستئجار الدكاكين قبل خروج الموكب بحوالي خمسة أو عشرة أيام، ويقول أيضا: "في ليلة الموكب... يتجمع جميع المشايخ العظام والعلماء الكرام وكتخدا أمير الحج وعساكر وجنود أمير الحج، ويتجه الجمع الغفير ليأتي الموكب العظيم من المحل الشريق قراميدان.." (انظر، الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش: جـ3، ص144-145).

[4] وللمزيد، انظر عليه عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الإسلامية في العصور الوسطى، ندوة تاريخ سواحل مصر الشمالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص173

[5] نعوم شقير: تاريخ السودان، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم، دون تاريخ، ص76

[6] عادل عبدالحافظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة، ص75، سعيدعبدالفتاح عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، المكتبة الثقافية، 1964م، ص50، وكان أرناط أمير الكرك بالشام أرسل حملة برية وبحرية لقطع طريق الحج عبر الشام، ووصلت السفن الصليبية للبحرالأحمر، واعتدت على عيذاب. وكان أرناط ينوي الاعتداء على قبر الرسول، وهدم الكعبة. وقتل الصليبيون وأسروا عددا كبيرة من الحجاج، ولهذا بادر الملك العادل بتجهيز حملة بحرية للبحر الأحمر، وطاردت الصليبيين، وتمكنت من الافراج عن كثير من الأسرى، وأسر عددا كبير من الصليبيين سنة 1183م (انظر عنان: تراجم اسلامية، ص66). ورغم ذلك ظل طريق الحج عبر الشام تحيط به المخاطر، وهو ما جعل ابن

خروجه يوماً عظيماً، يصفه "أوليا جلبي" بقوله: "إن موكب الحج هو عيد أيضاً من أعياد المصريين"[1]. وقال عنه ابن بطوطة: "هو يوم مشهود" [2]. أما عن كيفية ترتيب يوم خروج الموكب، والاحتفالات التي تصاحبه، فكان يركب فيه القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال، والمُحتسب، وكان يركب معهم أعلام الفقهاء، وأمناء الرؤساء، وكانوا يقصدون باب "قلعة الجبل" حيث يقابلهم السلطان، وكان يخرج لاستقبال الموكب[3].

وكان السلطان يعين رئيساً للموكب، يُعرف بـ"أمير الحج"، وكان يرافقه جند الحماية، وكذلك السقاؤون على جمالهم، ويجتمع للموكب أصناف غفيرة من أهل القاهرة والأقاليم احتفالاً بهذه المناسبة. وقبل خروجه كان الموكب يطوف شوارع القاهرة، وكان خروجه من باب النصر[4]. وحسب ابن بطوطة، كان موكب الحج يخرج في شهر رجب [5]، بينما يذكر آخرون أن خروجه كان في شوال[6]. يقول ابن الطيب: "وافق خروجنا من مصر يوم الإثنين السادس والعشرين من شوال.."[7]. وكان

جبير في رحلته للحج يمضي عبر طريق قوص – عيذاب، وعن ذلك يقول آنخل جونزالز Angel Goonzalez: "وركب (ابن جبير) البحر سنة 1183م من جزيرة طريف الى سبتة والاسكندرية، ولما كان الطريق من مصرالى بيت المقدس في يد الصليبيين في ذلك الحين، فقد توجه ابن جبيرالى قوص بصعيد مصر، ومنها الى عيذاب حيث البحر الأحمر..وقصد مكة الى بيت الله الحرام" (تاريخ الفكرالأندلسي: ص361).

[1] أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ3، ص144

[2] الرحلة: جـ1، ص42

[3] المصدر السابق، ص42

[4] أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ3، ص144

[5] ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص42-43

[6] انظر رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة: ص160

[7] انظر رحلة ابن الطيب: ص160، وعن موعد خروج الموكب، قال ابن شداد: "فيها (أي في سنة 675هـ) جهز مولانا السلطان في خامس عشر شهر شوال الكسوة برسم الكعبة...وخرج معه جماعة من الحجاج وسار إلى مكة حرسها الله.."(ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2009م، ص137، وعن موعد خروج الموكب انظر أوليا جلبي: الرحلة، جـ3، ص144، ولعل اختلاف موعد الخروج بسبب طول الطريق، فإذا سلك الموكب طريق الشام، فكان يحتاج لمدة أطول، ولذا كان الحجاج يخرجون مبكرا في رجب

الحجاج تزيد أعدادهم عند كل منزل، وكانت توجد في الطريق إلى مكة الأربطة والزوايا، والخانقاوات التي كانوا ينزلون فيها، وكانت تُحبس عليها أوقاف كثيرة لخدمتهم[1]. وهو ما يشير إلى أن الموكب كان يلقي رعاية من السلاطين لاتمام الشعائر، ومن جانب آخر كسباً لود الناس وحبهم. وكان الشاذلي يغادر الديار المصرية برفقة موكب الحج إلى الصعيد عبر النيل، ثم يتجه لقوص حيث تلتقي قوافل الحج هناك، ثم يعبرالصحراء إلى عيذاب[2].

وحسب الروايات الصوفية، فإن أبا الحسن الشاذلي لما آراد أن يحج حجته الأخيرة التى مات خلالها حدثت له عدة كرامات[3]. ومن ذلك أنه لما توجه قاصدًا قوص قادمًا من الإسكندرية ليرافق موكب الحج، قال لرفاقه: احملوا معكم فأسًا ومسحاة، فإن توفي منا أحدٌ وارياه التراب. ولم تكن هذه عادته في أسفاره في الماضي، وكانت هذه إشارة لموته خلال هذه الرحلة[4].

ومن ذلك أيضا أن أبا الحسن الشاذلي لما توجه إلى الحج، قال: في هذا العام أحجُ بالنيابة، ولما مات قبل أن يتم مناسك الحج، عاد رفاقه للقاهرة، وسألوا الشيخ العز بن عبدالسلام بما قاله الشاذلي، فبكى، وقال: "الشيخ والله أخبركم بموته في سفره، وما عندكم علم به، وقد أخبركم أن المَلَك هو الذي يحجُ نيابة عنه"[5]. وكان الطريق الذي سلكه الشاذلي من قوص إلى عيذاب طريقاً وعراً، قليل الماء، وليس به

حتى يمكنهم الوصول لمكة قبل آوان الحج، أما إذا سلك الموكب طريق (قوص – عيذاب)، وهو الطريق الأقصر فإنهم كانوا يخرجون في شوال.

[1] وللمزيد عن خروج موكب الحج والوقت الذي يخرج فيه من القاهرة، أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، جـ3، ص144، عبدالعزيز أمين عبد الجواد: التربية في السودان، جـ1، وزارة المعارف العمومية، ص50

[2] على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ14، ص187

[3] وللمزيد عن هذه الكرامات التي وقعت لأبي الحسن الشاذلي خلال رحلة الحج، انظر ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، ص56، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363 وما بعدها، النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ2، 365، على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ14، ص179

[4] علي مبارك: المصدر السابق، ص179

[5] ابن عياد: المفاخر العلية، ص56

الكثير من العمران[1]. غير أن انتقال طريق الحج من الشام إلى هذا النواحي أعطاها أهمية كبيرة عن ذي قبل، وصارت محطات الطريق مقصد القوافل التجارية، وكذلك قوافل الحج التي صارت تُعرف بعد ذلك بـ"القوافل العيذابية" [2]. لأنها كانت تقصد ثغر عيذاب الذي نال أهمية كبيرة في العصور الوسطى. وكان طريق الصحراء من قوص لعيذاب يضم العديد من المحطات التي يجب على الحجاج عبورها الى ساحل بحرالقلزم، وموانيها. ولعل أهم محطات هذا الطريق الذي سلكه الشاذلي في رحلته إلى الحج:

1 – قوص:

تُعد هذه المدينة من أهم المحطات التي تقصدها القوافل من المغرب للإسكندرية، ثم تتجه للقاهرة، ثم تذهب جنوباً عبر النيل إلى قوص، وهي المحطة الرئيسية التي يعبرها الحجاج إلى عيذاب [3]. ويصفها ابن بطوطة: "مدينة عظيمة، لها خيرات عميمة، بساتينها مونقة"[4]. وكانت قوص مقرًا لولاة الصعيد، وكان واليها يُعرف باسم "مُتوليّ الأعمال القوصية" [5]، نظراً لأهمية المدينة من الناحية الإدارية، ولموقعها الجغرافي المتميز وسط الأراضي المصرية [6]. ولعل أهمية قوص، وعمرانها، وازدهارها يرتبط باعتبارها من أهم المحطات التي تقصدها القوافل، ولهذا تصفها المصادر بأنها كانت "ملتقى الحجاج المغاربة، والسودانيين، المصريين"[7].

كما أن قوص كانت تعد محطة تجارية مهمة عبر الصحراء، وكانت مقصدًا للتجار القادمين من بلاد الهند واليمن، وكذلك التجار الأحباش، نظراً لكثرة الصادر

---

[1] للمزيد انظر ابن جبير: الرحلة، ص70 – 72، ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص48

[2] ابن جبير: المصدر السابق، ص 72

[3] ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص47، ابن جبير: الرحلة، ص70، على باشا مبارك: الخطط، جـ14، ص173، نعوم شقير: تاريخ السودان، ص76

[4] الرحلة: جـ1، ص47

[5] النويري: نهاية الإرب، جـ30، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص95، مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، 1972م، ص231

[6] ابن بطوطة: المصدر السابق، ص47

[7] انظر ابن جبير: الرحلة، ص70، على مبارك: الخطط، جـ14، ص173

والوارد إليها من السلع والبضائع "لأنها محط للرحال، ومجتمع الرفاق"[1]. وكان طريق السفن المُحملة بمنتجات بلاد الهند يلتقي وسط بحر القلزم بطريق الحجاج الأفارقة والمغاربة الذاهبين إلى بلاد الحجاز[2]. وهو ما يشير في ذات الوقت إلى ارتباط الحركة التجارية بقوافل الحج التي تعبر قوص، وربما كان ذلك أمراً مقصوداً، إضافة إلى أن قوافل الحج كان يرافقها عدد كبير من التجار، ولذا لم يكن من المُستغرب أن تُوصف قوص بأنها "محطة مهمة في طريق تجارة الهند" [3]. وعلى هذا ازدهرت مدينة قوص من الناحية العمرانية، وزادت بها المساجد، والمدارس، وانتشرت البساتين والحدائق، كما ازدهرت بها الأسواق والوكالات التجارية[4]. ولاريب أن كثرة الأسواق بها كان عاملاً مهماً في أن يجد الحجاج ما يحتاجون إليه من الزاد والطعام قبل عبور صحراء عيذاب. والمؤكد أن وقوع قوص على طريق الحج ساهم في ازدهار هذه المدينة اقتصاديًا، وثقافياً، إذ كان يعبرها العلماء والفقهاء في طريقهم إلى الحج، كما كان يسكن قوص أعداد غير قليلة من تجار ينبع (*)، وهو الثغر المواجه لعيذاب

---

[1] ابن جبير: الرحلة، ص70

[2] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ2، هيئة الكتاب، 1991م، ص29

[3] المرجع السابق، ص30

[4]) انظر، ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص47

ينبع: ميناءٌ معروف في العصر الإسلامي، اشتُهر بـ"الينبع". وكذلك: الينبوع. واسم "ينبُع" في المضارع وعُرفت المنطقة به لاشتهارها بالينابيع وآبار المياه. يقول ابنُ حوقل: "وينبعُ حصنٌ به نخيلٌ وماءٌ وزرعٌ". وهو ما يؤكده الفيروزآبادي: "وينبعُ: حصنٌ له عيونٌ، ونخيلٌ، وزروعٌ بطريق حاج مصر". وتعرف بلاد ينبع باسم "بلاد جهينة"، لأنها تعد موطن تلك القبيلة العربية. ولعل وقوع بلاد ينبُع علي طريق الحج مما زاد شُهرتها في العصر الإسلامي. وتتميز هذه المنطقة بكثرة أوديتها وينابيعها، وخصوبة تربتها، وتوجد بها الواحات، مثل ينبع النخل والعيص. واشتهر حاكم ينبع أيضا في بعض المصادر بـ"صاحب الينبوع" (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ5، مركز تحقيق التراث، هيئة الكتاب، 1988م، ص386، ابن خلدون: العبر، جـ2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2007م، ص247، ابن الصيرفي: إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق وتقديم: حسن حبشي، هيئة الكتاب، 2002م، ص7، عبدالكريم الخطيب: تاريخ جُهينة، سلسلة تراث الجزيرة العربية، ط3، 1997م، ص17، ابن حوقل: صورة الأرض، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2009م، ص38، وانظر أيضاً الإصطخري: مسالك الممالك، شركة نوابغ الفكر، 2011م، ص19، القاموس المحيط: جـ3، ص97)

على ساحل جزيرة العرب[1]. وهو ما يشير إلى وجود علاقات مهمة بين ساكني جزيرة العرب والساحل الأفريقي.

وفي رأي البعض، فإن "قوافل الحج" التي تعبر مدينة قوص كانت تحتاج إلى حوالي عشرين يوماً على الأقل لعبور طريق الصحراء بما فيها من دروب ومسالك وعرة حتى تصل في نهاية الأمر إلى ثغر عيذاب على ساحل بحر القلزم[2]. بينما حسب آخرين، كانت القوافل تحتاج إلى حوالي سبعة عشرة يوماً فقط للذهاب عبر الصحراء من مدينة قوص إلى عيذاب[3].

2 – طريق العبدين:

يتم الوصول لهذا الطريق من قوص مباشرة، وهو أحد الطريقين الرئيسيين اللذين يؤديان لعيذاب للقادمين من قوص، وهو الطريق الأقصر مقارنة بالآخرمن حيث المسافة التي يقطعها الحجاج القادمون من قوص[4]. أما الطريق الآخر، فيأتي من إحدى القرى التي تقع على ضفاف النيل بالقرب من قنا، وكانت تُعرف باسم "مرقة"، ثم يجتمع هذان الطريقان بالقرب من موضع في الصحراء الشرقية يعرف بـ"ماء دنقاش" (أو ماء برقاش)[5]. وقد مر ابن جبير بـ"طريق العبدين" خلال رحلته إلى الحجاز، وقد تحدث عنه قائلاً: "والقصد إلى عيذاب من قوص على طريقين، أحدهما تعرف بطريق العبدين، وهي هذه التي سلكناها، وهي أقصر مسافة، والأخرى طريق إلى قنا، وهي قرية على شاطىء النيل"[6]. ولهذين الطريقين موضع آخر يجتمعان فيه عند موضع آخريدعى "ماء شاغب"، وهو يقع قرب "ماء دنقاش"على مسيرة يوم[7].

---

[1] انظر بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ص251

[2] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، جـ2، ص30

[3]) المرجع السابق، ص30

[4] علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية: جـ14، ص174

[5]) المصدر السابق، ص174

[6] ابن جبير: الرحلة، ص72

[7] المصدر السابق، ص72

3 – ماء دنقاش:

تذكر بعض المصادر الأخرى هذا الموضع أيضاً باسم "ماء برقاش"[1]. والراجح أن الاختلاف الواقع هنا بسبب خطأ وقع فيه الناسخ لاسم هذا المكان، والأصح هو الاسم الذي أورده الرحالة الأندلسي ابن جبير، وهو "ماء دنقاش"، لأن ابن جبير يُعد من أقدم من تحدث عن هذا الموضع، وكان قد عبره خلال رحلته الى بلاد الحجاز عبر دروب الصحراء العيذابية.

وفي هذا الموضع يجتمع الطريقان الرئيسيان القادمان من مدينة قوص في اتجاه صحراء عيذاب، وكان الحجاج يقيمون به مدة يوم وليلة للتزود بالماء الذي يحتاجون إليه، ثم كانوا يرتحلون بعد ذلك الى موضع آخر يُعرف باسم "ماء شاغب" (وقيل: ماء ساغب) [2].

4 – ماء شاغب:

وكان حجاج القافلة يقومون بحفر "ماء شاغب"، ربما لأن الرمال كانت تغطي الآبار بمرور الوقت بعد رحيل القوافل السابقة، وعلى هذا كان يهمل هذا الطريق بعض الوقت حتى عبور قافلة أخرى. والمؤكد أن حفر البئر لم يكن بالأمر الهين على القافلة. وعلى أية حال، كان الحجاج يسقون إبلهم في هذا الموضع، وكانوا يتزودون منه لثلاثة أيام[3]. وبعد أن يقضي الحجاج مأربهم من "ماء شاغب"، كانوا يرتحلون منه لمحطة أخرى في الطريق إلى عيذاب.

5 – أمتان:

وكلما توغل الحجاج في الصحراء زادت وعورة الطريق، وصار أكثر مشقة، لكن ذلك يهون في سبيل غايتهم الكبرى[4]. وهو ما يشير إليه الرحالة بوركهارت، فإنه رغم المشقة، وهلاك الكثير من الحجاج خلال رحلة الحج، لكن هذه المخاطر لم تكن

---

[1] للمزيد انظر ابن جبير: المصدر السابق، ص72، الخطط التوفيقية، جـ14، ص174

[2] الخطط التوفيقية: جـ14، ص174

[3] المصدر السابق، ص174

[4] الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة: عبدالرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005م، ص615، وانظر أيضا ابن جبير: الرحلة، ص74–75، ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص48

لتوهن عزيمتهم، ولا تنقص عددهم في كل عام، إذ إن ضحايا هذه الرحلة المقدسة يُعدون شهداء في سبيل الله[1]. وتزداد المشقة بسبب قلة الماء، وهو ما يشير إليه الحسن الوزان: "ولا يوجد في هذه الصحراء ماء حتى الساحل"[2]. وهو ما يعني أن الطريق لعيذاب في أيامه (في القرن 10هـ/16م) صار الحصول على الماء أمرًا صعب المنال عن ذي قبل. وتبلغ القافلة بعد ذلك موضع يدعى "أمتان"، وبها بئر ماء عذبة، وكان الحجاج يكثرون الإقامة بها أكثر من غيرها، إذ إنه ليس أمرًا هينًا العثور على موضع آخر بالصحراء مثله. يقول ابن جبير: "وهذا الماء بأمتان المذكورهو في بئر معينة، قد خصها الله بالبركة، وهو أطيب ماء الطريق، وأعذبها، فيلقى فيهاء دلاء الوارد ما لا يحصى كثرةً"[3].

وكان الماء الذي يوجد بمنطقة "أمتان" لفرط بركته يكثر قدوم الناس إليه، وكذلك لما فيه من الماء العذب الطيب، وذلك أكثر من غيرها من مواضع الماء الأخرى في هذه الصحراء التي تقع بين مدينة قوص وثغر عيذاب، "فتُروى القوافل النازلة عليها على كثرتها، وتروى من الإبل البعيدة الأظماء، ما لو وردت نهرًا من الأنهار لأنضبته وأنزفته"[4].

6 – مجاج:

ثم تمضي قافلة الحجاج في مسيرها، وتبلغ موضعًا آخر في "الصحراء العيذابية"، وهو الذي يُعرف باسم "مجاج"، وكانت القوافل تتزود في هذه المنطقة لمدة أربعة أيام، ثم كانت تذهب القوافل منه إلى موضع آخر يعرف باسم "العشراء" فيما يذكر الرحالة ابن جبير[5]. وهذا الموضع يقع على مسيرة يوم من ثغر عيذاب، ويطلق

---

[1] للمزيد انظر، رحلات بوركهارت: ص326

[2] الوزان: وصف أفريقيا: ص615

[3] ابن جبير: الرحلة، ص 72

[4] ابن جبير: الرحلة، ص72، الخطط التوفيقية، ج14، ص174

[5] الرحلة: ص73

ابن جبير على هذه المرحلة من رحلة القوافل اسم "المرحلة المجاجية"، نسبة لموضع "مجاج" هذا[1].

7 – رملة ميثاء:

يقع هذا الموضع بعد "مجاج" و"العشراء"، حيث يسلك الحجاج الطريق من هناك إلى "رملة ميثاء"، وهي منطقة تتصل بساحل بحر جدة (بحر القلزم) [2]. وتصف المصادر هذه المنطقة بأنها "فيحاء مد البصر يميناً وشمالاً ([3]). وفي هذا الموضع تكاد تكون القوافل قريبة من عيذاب، وساحل بحر القلزم، وهو المقصد الرئيس لقوافل هؤلاء الحجاج.

8 – العشراء:

وهذا الموضع من أقرب المواضع من عيذاب، والراجح أن موضع "العشراء" هو ذاته "الحميثراء" التي بلغها أبو الحسن الشاذلي خلال رحلته إلى الحج، وهناك لقي الشيخ ربه. وتقع "العشراء" على مسيرة مرحلتين من ثغر عيذاب [4]، وهي منطقة تشتهر بآبار الماء، كما يكثر بها شجر يُعرف باسم "شجر العشر"، وهو نوع من الشجر يشبه الأترج، لكن لا شوك له[5].

9 – ماء الخبيب:

ثم يتجه الحجاج إلى موضع آخر يدعى "ماء الخبيب" [6]. ويذكره ابن بطوطة "ماء الجنيب" [7]. وهو من أقرب مواضع الصحراء لعيذاب، وكان الحجاج يتوقفون به للتزود بالماء قبل نهاية الرحلة[8]. ويمكن للحجاج هناك رؤية ثغر عيذاب الذي يبعد نحو ميلين، وكانت القافلة تتوقف هناك للتزود بالماء. يقول ابن جبير: "فنزلنا ضحوة

---

[1] ابن جبير: المصدر السابق، ص73، الخطط التوفيقية: جـ14، ص175

[2] ابن جبير: الرحلة، ص73

[3] الخطط التوفيقية: جـ14، ص75

[4] المصدر السابق، ص175

[5] المصدر نفسه.

[6] ابن جبير: الرحلة، ص73

[7] ابن جبير: المصدر السابق، ص73، الخطط التوفيقية، جـ14، ص175

[8]) ابن جبير: ص73، الخطط التوفيقية: المصدر السابق، ص175

على ماء الخبيب، وهو بموضع بمرأى العين من عيذاب، يستقي منه القوافل وأهل البلد...وهي بئر كبيرة كأنها الجب الكبير"[1].

10 - الحُميثراء:

وفي هذه المنطقة انتهت رحلة أبي الحسن الشاذلي، ومات بها قبل أن يبلغ بلاد الحجاز [2]. ويتميز الطريق إلى الحميثراء بأنه وعر، هو وشاق للإبل القادمة مع الحجاج[3]. واللافت أن ابن جبير لم يذكر "الحميثراء" خلال رحلته، رغم أن كتاباته تُعد من أهم المصادر التي وصفت الطريق من قوص لعيذاب. وربما سبب ذلك أن هذه المنطقة (أي الحميثراء) زادت أهميتها بعد أن دُفن بها الشاذلي، أي بعد سنة 656هـ/1258م، أي بعد وفاة ابن جبير بحوالي نصف قرن.

بينما يذكر ابن جبير موضعاً آخر باسم "العشراء"، وهو يقع على مسافة يوم واحد من ثغر عيذاب[4]. ولعل هذا الموضع هو ذاته منطقة "الحميثراء" المشهورة، لكن وقع خطأ في نسخ الاسم، وهو فيما يبدو جعل اسم "الحُميثراء" يكتب "العشراء". وتُوصف منطقة الحميثراء بأنها أرض "ذات عين ماء زعاق"، وهي أرض كثيرة الضباع[5]

---

[1]) المصدر السابق، ص73

[2] وللمزيد عن الروايات التي تحدثت عن موت أبي الحسن الشاذلي بالحميثراء أو صحراء عيذاب، انظر ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص47، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص68-69، ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية، ص54-55، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363، النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ2، ص365، علي مبارك: الخطط التوفيقية، جـ14، ص179، عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص139

[3] ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص48، الخطط التوفيقية: جـ14، ص174

[4] ابن جبير: الرحلة، ص73

[5] ابن بطوطة: الرحلة، جـ1، ص48، علي مبارك: الخطط التوفيقية، جـ14، ص178.

(*) عيذاب: يقع ثغر عيذاب على مسافة درجتين من جدة، وهي أشبه بالضيعة منها للمدن، يقول أبو الفداء: "اختلف في عيذاب، فبعضهم يحد ديار مصر على وجه تدخل فيه، وهو الأشبه، لأن الولاية فيها من مصر، وهي من أعمال مصر حقيقية، وبعضهم يجعلها من بلاد البجا...وهي فرضة لتجار اليمن وللحاج الذين يتوجهون من مصر في البحر، فيركبون من عيذاب إلى جدة" (المختصر في أخبار البشر، جـ1، دار المعارف، ص95). وقال تقي الدين المقريزي: "اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص، ثم

رابعًا – كرامات الشاذلي خلال رحلة الحج في صحراء عيذاب (*):

لما استقر أبو الحسن الشاذلي بـ "صحراء عيذاب" خلال رحلته إلى الحج، وقعت له هناك عدة كرامات أفاضت فيها المصادر الصوفية إبرازاً لمكانته. ومنها ما يُذكر أنه لقي الخضر عليه السلام هناك، فقال له الخضر(حسب هذه الرواية): "يا أباالحسن، أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صحباً في المقام والرحيل" [1]. ومما ورد أيضاً أنه لما أقام بالصحراء كانت ذات ماء أُجاج، فكان من كراماته أنه صار عذباً فُراتًا.[2] كما تذكر إحدى الروايات أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي دعا الله تعالى قائلاً: "اللهم متى اللقاء ؟ فقيل: يا علي إذا وصلت إلى حُميثرة، فحينئذ يكون اللقاء فقال الشاذلي: رأيت كأني أُدفن إلى ذيل جبل بإزاء بئر ماؤها قليل، مالح، فوقع في نفسي شيء، فحفظت في سري: ماؤها يكثر ويعذب"[3].

خامسًا – وفاة الشاذلي في حُميثراء بصحراء عيذاب (656هـ/1258م):

لما كان أبوالحسن الشاذلي بـ "حُميثراء"، اغتسل، وصلى ركعتين، ولما كان في سجدته الأخيرة قبضه الله [4]. ولعلها من كراماته أيضاً أن يموت في الصلاة ساجداً، كما أنه مات في الطريق للحج. ومما ورد في موته أنه لما خرج في حجه الأخيرة، كان يشعر بدنو الأجل. وحسب روايات الصوفية أنه لما أمررفاقه أن يتحركوا جميعاً بأهلهم. وأراد شاب الخروج معهم، فجاءت أمه وقالت: يا سيدي لعل أن يكون نظرك عليه، فقال: يكون نظرنا عليه إلى حميثرة (حميثراء). فلما بلغوا صحراء عيذاب، مرض الشيخ والشاب، ثم مات الشاب، فقال الشاذلي: احملوه لحميثرة، فلما وصلوا إليها غسلوه، ثم صلى عليه، فكان أول من دفن بها، ثم مات الشاذلي في ذات

يركبون الإبل من قوص، ويعبرون الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر في الجُلاب إلى جدة ساحل مكة، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر إلى عيذاب....وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع، وتقلع منها مراكب الحجاج الصادرة والواردة" (المواعظ والاعتبار، جـ1، طـ مكتبة الآداب، دون تاريخ، ص202). وللمزيد، انظر محمد رجائي الطحلاوي: عيذاب، دار الكتاب الحديث، دون تاريخ).

[1] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363، وانظر النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ2، ص365

[2] النبهاني: المصدر السابق، ص365

[3] ابن عياد: ص55

[4] الخطط التوفيقية: جـ14، ص178

الليلة[1]. وفي رواية أنه أوصى أتباعه قبل الخروج للحج أن يجهزوا معهم فأساً وحانوطاً، وما يجهزبه الموتى، وكانت إشارة لموته في طريق الحج [2]. ويذكرأنه لما عزم السفر في المرة التي مات فيها قال: "في هذا العام أحُج حجة نيابة"، فمات قبل أن يطأ مكة. فلما انتهى أتباعه من الحج عادوا للقاهرة، وأتوا العز بن عبدالسلام، وسألوه عن ذلك، فبكى وقال: "والله أخبركم بموته في سفره، وما عندكم علم به، وقد أخبركم أن أحد الملائكة يحُج نيابة عنه"[3].

وعلى أية حال مات الشاذلي بصحراء عيذاب في حجته الأخيرة سنة 656هـ/1258م، يقول الشعراني: "وحج (أي الشاذلي) مرات، ومات بصحراء عيذاب قاصداً الحج في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة.."[4]. وقيل في رواية أخرى إنه مات هناك في شهر رمضان، وليس ذي القعدة [5]. وقيل: مات في شهر شوال [6]، وكان عمره في ذلك الوقت ثلاثاً وستين سنة [7]. وعن موته يقول ابن تغري بردي: "والعارف بالله أبوالحسن بن علي..الشاذلي، الضرير، (مات) بصحراء عيذاب في ذي القعدة.."[8]. وعلى هذا مات الشيخ بعد أن أصابه العمى.

ومن فضائل حميثراء وبركتها التي مات بها الشاذلي أنه دعا الله: "يارب أسكنتني بلاد القبط، أدفن بينهم، فقيل له: يا على تدفن في أرض ما عصيت عليها قط"[9]. وقد صار قبر الشاذلي مقصداً لزوار عيذاب، وكل قوافل الحج والتجارة التي تمر بهذا الطريق عبر مدينة قوص، وزار قبره الرحالة القدامى، ومنهم ابن بطوطة: "زُرتُ قبره، وعليه مكتوب فيها اسمه، ونسبه متصلاً إلى الإمام الحسين بن علي

---

[1] ابن عياد: المفاخر العلية، ص54-55

[2] عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، ص139

[3] ابن عياد الشافعي: المصدر السابق، ص56

[4] الطبقات الكبرى: جـ2، ص363

[5] النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ص365

[6] المصدر السابق، ص365

[7] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص363، الخطط التوفيقية: جـ14، ص179

[8] النجوم الزاهرة: جـ7، ص68-69

[9] ابن عياد: المفاخر العلية: ص54، الخطط التوفيقية: جـ14، ص179

رضي الله عنهما"[1]. والصحيح أن الشاذلي ينتسب لنسل الحسن بن علي، وليس الحسين. وكان الناس يؤثرون الإقامة بجوار قبر الشاذلي[2].

سادسًا – أثر رحلة حج الشاذلي الروحي في سودان وادي النيل:

بقدر ما نال الشاذلي من مكانة دينية وروحية رفيعة في حياته، بقدر ما نالت طريقته في التصوف من شهرة في العالم الإسلامي، وخاصة في مصر وسودان وادي النيل، والمغرب. يقول د.عامر النجار: "نستطيعُ أن نلمح من خلال ما كتب عنه الخطوط العريضة لهذه الشخصية الكبيرة التي كان لها تأثير واضح في حركة التصوف في مصر والتي لا تزال أثارها حتى الآن أوضح ما يكون في انضمام كثير من عامة الشعب وخاصته إلى هذه الطريقة الكبيرة"[3].

وتقوم طريقته على ضرورة الالتزام بما ورد في كل من الكتاب والسُنة، وألا يخالف أتباعه ذلك مهما كان، ومن ذلك قوله المشهور: "إذا عارض كشفُك الكتاب والسُنة، فتمسك بالكتاب والسُنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسُنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة"[4]. وقد لاقت "الطريقة الشاذلية" انتشاراً في بلاد المغرب، وخاصة في مراكش، وذلك خلال القرن 9هـ/15م على يد الشيخ "أبي عبدالله

[1] الرحلة: جـ1، ص255، الخطط التوفيقية: ص178

[2] ابن بطوطة: المصدر السابق، ص255

[3] الطرق الصوفية في مصر: ص130

[4] المرجع السابق، ص137

محمد بن سليمان الجزولي"[1]. وهو الذي تُنسب إليه "الطريقة الجازولية" الشاذلية [2].

ويُعد الفقيه محمد بن عبدالرحمن الجزولي من كبار شيوخ "الطريقة الشاذلية"، وهو مؤلف كتاب "دلائل الخيرات"، وهو يعد من أهم الكتب في هذه الطريقة، وقد أخذ العلم عن علماء فاس، وحفظ المدونة (أي مدونة سحنون) في الفقه المالكي. ومن مؤلفاته "حزب الفلاح"، و"حزب الجزولي" بالعامية، ويُعرف أتباعه باسم "الجازولية. وقد مات مسموماً في سنة 870هـ/1645م[3]. والمؤكد أنه كان لشيوخ "الطريقة الشاذلية"، سواء من المغاربة أم المصريين، دور كبير في نشر هذه الطريقة في سودان وادي النيل، وكذلك في بلاد شرقي أفريقيا. وكان كثيرون منهم قدموا من بلاد المغرب، ثم سكنوا مصر، ثم ارتحلوا إلى سودان وادي النيل، وهو ما ساعد على انتشار هذه الطريقة في هذه البلاد بعد ذلك، ومن هؤلاء الشيخ الجازولي[4].

ولسنا نشك في أن زيارات الشاذلي إلى مكة عدة مرات عبر قوص– عيذاب كان من الأسباب المهمة التي ساعدت في انتشار"الطريقة الشاذلية"،

---

[1] انظر عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م، ص53، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2011م، ص211، هامش رقم 124

[2] تعد الطريقة الجازولية من فروع "الطريقة الشاذلية" التي ذاعت في المغرب، وذلك بعد أن تناولها المراكشيون بالإصلاح حوالي سنة 1465م (انظر عامر النجار: المرجع السابق، ص146)

[3] انظر ود ضيف الله: كتاب الطبقات، ص114، عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، ص53، ومن فروع الطريقة الشاذلية الأخرى المعروفة في أفريقيا "السنوسية"، ومؤسسها محمد بن علي السنوسي في ليبيا سنة 1250هـ. ولعبت هذه الطريقة دوراً مهماً في نشر الإسلام في أفريقيا، وتهدف لإصلاح المسلمين، ونشر الدين. وقد تأثرت السنوسية بافكار الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي ذاعت في جزيرة العرب. وتقوم هذه الطريقة على الالتزام بالآوامر القرآنية بحرص شديد، وتتفق أفكارها مع مبادىء التوحيد المطلق التي تجعل التعبد لله وحده، وتحرم التضرع للأولياء، وزيارة قبورهم تحريماً تاماً (انظر عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي: في السودان، ص56، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص47)

[4] ضيف الله: الطبقات، ص3، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص201، ص211، هامش رقم 124

وأفكارها في مصر وسودان وادي النيل، وخاصة مع وفاة الشيخ أبي الحسن الشاذلي بـ "صحراء عيذاب"، ثم دفنه في منطقة "الحُميثراء". وهو ما جعل أتباع هذه الطريقة وشيوخها يتوافدون على هذه المنطقة لزيارة قبره، والدعاء له. وهو ما أدى إلى رواج أفكار هذه الطريقة في مناطق سودان وادي النيل بصفة عامة.

ولعل من أهم شيوخ الطريقة الذين تركوا أثراً كبيراً في مصر وسودان وادي النيل العارف بالله "محمد وفا الشاذلي" (702–765هـ)، وكان عالماً فقيهاً، وله مصنفات عدة [1]. وهو ممن نشروا الطريقة الشاذلية في تلك البلاد، واسمه محمد بن محمد النجم بن محمد السكندري، الملقب بـ"وفا"، من أصل مغربي، ولد بالإسكندرية، ونشأ بها، وسلك طريق الشاذلي. ثم رحل لأخميم بصعيد مصر، وتزوج بها، وأقبل عليه الأتباع والمريدون، وكان لوعظه أثر في القلوب[2].

واشُتهر هذا الشيخ الشاذلي بـ "وفا"، وسبب ذلك أن النيل قل ماؤه، وتوقف عن الزيادة، ولم يزد إلى آوان الوفاء، فعزم جماعة من أهل مصرعلى الرحيل منها خشية العطش والمجاعة، فجاء الشيخ وفا إلى النيل، وقالوا إنه اطلع بإذن الله تعالى إلى النهر، فزاد في ذلك اليوم سبعة عشر ذراعاً، وأوفى النهر، ولهذا دعا الناس هذا الشيخ باسم "وفا"([3]). ويرى البعض أن الشاذلية دخلت السودان قبيل قيام "سلطنة الفونج" (في القرن 10هـ/16م)، وارتبط انتشار هذه الطريقة في سودان وادي النيل بالشيخ الجزولي، وكذلك الشيخ حمد أبي دنانة، حيث تزوجت إحدى بنات الشيخ الجزولي من الشريف حمد أبي دنانة، وهو الذي نزح بعد ذلك إلى سودان وادي النيل، وكان برفقته ابنه الحسن. ثم سكن سقادي،

---

[1] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص392

[2] ود ضيف الله: المصدر السابق، ص114

[3] الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص393

ومنذ ذلك الوقت انتشرت الطريقة في مناطق السودان[1]. وحسب هذه الرواية فإن الشاذلية تعد أول الطرق الصوفية انتشاراً في السودان[2].

ومن كبار شيوخ الشاذلية بالسودان، الفقيه حمد بن المجذوب، حفظ القرآن، وتفقه في مختصر خليل بن إسحاق، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني [3]. وقد حج الشيخ عدة مرات، وأخذ الطريقة عن الدراوي تلميذ الشيخ أحمد بن ناصر الشاذلي. وكان يكثر من قراءة "دلائل الخيرات"، وهو ممن جمع بين الفقه والتصوف، وأعطاه الله القبول، ومات عن خمسة وثمانين سنة، ودفن بالدامر، وقبره معروف هناك، ويزوره أتباع الطريقة [4]. وبعد وفاة الشيخ المجذوب، صار أحفاده يُعرفون من بعده باسم "المجاذيب" [5]، وهي أحد فروع "الطريقة الشاذلية" [6]. وازدهرت هذه الطريقة في الدامر، وعرفت أيضا بـ"المجذوبية"[7]. وقد اشتهرت طريقة المجاذيب الشاذلية في جزيرة سواكن، حيث أسس أتباع تلك الطريقة الخلاوي الصوفية لهم هناك[8].

كما انتشرت خلاوي طريقة المجاذيب أيضاً في المناطق المجاورة للبحر الأحمر، وكذلك باقي بلاد البجة، ويرجع الفضل لاشتهار تلك الطريقة في شرق

---

[1] ود ضيف الله: كتاب الطبقات، ص3، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص201، ص211، هامش124

[2] المصدر نفسه، ص3

[3] المصدر السابق، ص187

[4] المصدر السابق، ص187 – 188

[5] عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، ص53

[6] يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، جـ1، دار التأليف والترجمة، 1975م، ص76

[7] المرجع السابق، ص76

[8] بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مؤتمر سواكن التاريخ، الحضارة والعمق الحضاري، كتاب الخرطوم، 2011م، ص242

السودان للشيخ طاهر المجذوب [1]. وظهرت طريقة تعرف باسم "أبي جريد" التي ينسبها البعض للشاذلية، لابن شريف مكي ينتسب للإمام الحسين، قدم السودان من مكة مع الشيخ عبدالله بن دفع الله العركي، وكان بهذا الطريقة الكثير من الأمور المنكرة من الغيبيات والسحر والكهانة[2]. ثم ترسخت دعائم "الطريقة الشاذلية" في السودان على يد الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم (ت: 1742م)، وهو الذي اشتهر باسم الشيخ "خوجلي الشاذلي"، لأنه كان يعد من كبار شيوخ هذه الطريقة بالسودان[3]. وكان جده من تلاميذ أولاد جابر الأربعة [4]. ويقول "صاحب الطبقات" عن الشيخ خوجلي: "ومن أخلاقه تمسكه بالكتاب والسُنة، ومتابعة السادة الشاذلية في أقوالهم وأفعالهم" [5].

ومما قيل عن طريقة الشيخ خوجلي الشاذلي في التصوف: "وأصل طريقته فالأساس قادري، والأوراد والأخلاق شاذلي" [6]، وهو ما يعني أن الشيخ خوجلي كان في الأصل من أتباع "الطريقة القادرية" التي أسسها عبدالقادر الجيلاني في سنة 561هـ/1165م [7].

---

[1] بدوي الطاهر: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، ص242

[2] عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي، ص53

[3] ود ضيف الله: الطبقات، ص190، عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، ص59

[4] ود ضيف الله: الطبقات، ص190

[5] المصدر السابق، ص192

[6]) المصدر السابق، ص192

[7] توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م، ص71، وللمزيد عن هذه الطريقة ومؤسسها عبدالقادر الجيلاني (1166-1077م)، انظر عبدالوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ1، ص216، النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ2، ص224، كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصر المملوكي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2006م، ص371، J. D. Fage: Ahistory of West Africa، Cambridge University Press، 1969، P. 37

وهي طريقة ترتبط بالمذهب المالكي[1]. ثم تحول بعد ذلك لطريقة الشاذلي بعد ذلك. وقد اشُتهر هذا الشيخ فيما تذكر الروايات الصوفية بالكرامات، والعجائب، ولعل منها أن امرأة مرضت مرضاً عضالاً، وأشرفت على الموت، فسأل أهلها الشيخ أن يدعو الله أن يشفيها، فدعا، وقرأ بعض الآيات على ماء، وشربت منه المرأة، فبرأت من مرضها، وكُتب لها العافية.[2]

وكان الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن ممن يكثر الاقتداء بالشيخ أبي الحسن الشاذلي، حيث كان يفعل الكثير من الأشياء والعادات التي اشتهرت عنه[3]. كما كان الشيخ خوجلي يكثر من قراءة أوراد "الطريقة الشاذلية"، وقد ذاعت شهرته في السودان، وزاد محبوه، وأتباع طريقته، وعن ذلك يقول "صاحب الطبقات": "فقد اقتدت الأمة به من كل ناحية، واتخذته إماماً، وانتفعوا بطريقته، ومشورته، والاستغاثة به عند الأمور المهمات"[4].

ولعل هذا القول يشير إلى انتشار "الطريقة الشاذلية" بين السودانيين، وأن الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن هو الذي يرجع له الفضل الكبير في ذيوعها وانتشارها هناك. ومما يروى عن هذا الشيخ أنه ظهرت جزيرة من الرمال بين الماء وسواقي المحس بجزيرة توتي، فجاء المحس للشيخ، ووضعوا عنده الطواري والقداديم (جمع قدوم)، والفؤوس وقالوا: "لا يسعنا المقام في هذا البلد بعد فساد زرعنا من عدم الماء"، فقام الشيخ معهم، ثم وضع عصاه في

---

[1] للمزيد عن الطريقة القادرية وارتباطها بالفكر والمذهب المالكي، انظر هوبير ديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة: أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة: القاهرة، 2011م، ص135

[2] يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، جـ1، ص76

[3]) ود ضيف الله: الطبقات، ص193

[4] المصدر السابق، ص197

البحر، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ أحد أحزاب الطريقة الشاذلية المعروفة، وهو "حزب البحر" (الحزب الرابع). وحدث بعد ذلك أن هاج ماء البحر وارتفع، واختفت هذه الجزيرة، وامتلأت السواقي بالماء، "وثبت للناس ببركته فصارت هذه الكرامة باقية إلى زماننا"، وذلك حسب رواية "صاحب الطبقات"[1].

وكان الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن رجلاً له هيبة بين الناس، كما كانت له مهابة ومكانة بين الحكام والسلاطين، وكان رجلاً لا يخشى في الله لومة لائم، ولهذا كان يخشاه السلاطين، وذلك إلى الحد أنه يروى أنهم كانوا يكونون كالأطفال في حضرة هذا الشيخ، وذلك لما كان له من فرط الهيبة، وقوة الشخصية أمامهم[2].

الخاتمة

- أكدت هذه الدراسة أن شخصية الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وطريقته في الزهد والتصوف، تُعد أقرب الطرق إلى منهج السنة الصحيحة، رغم ما قد وقع في طريقته من بعده، وهذا الأمر كان الشيخ الشاذلي يحث تلاميذه، وأتباعه عليه، وكان يقول لهم مؤكدًا على ذات الفكرة أنه إذا خالف كشف الصوفي الكتاب والسُنة، فعلى المرء أن يلزم الكتاب والسُنة، لأنهما مصدران معصومان عن الخطأ والذلل، بينما كشف الصوفي غير معصوم.
- بينت الدراسة أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي صارت له مكانة علمية كبيرة بمصر بعد أن هاجر إليها قادمًا من بلاد المغرب، وطاب له المقام بها،

[1] المصدر السابق، ص197

[2] عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي، ص59

وكان يحضر دروسه كبار العلماء والفقهاء بمصر، ولعل منهم شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام، وابن الصلاح، والحافظ المنذري، وابن الحاجب، وغيرهم.

- قام الشيخ أبو الحسن الشاذلي بالحج عدة مرات، وسلك خلال رحلته الأخيرة الى بلاد الحجاز ذات الطريق الذي كانت تسلكه قوافل الحج القادمة من بلاد المغرب والسودان، وهو الطريق المعروف باسم طريق (قوص – عيذاب) في ذلك الوقت، خاصة بعد أن تحول "موكب الحج" المصري إلى هذا الطريق بسبب الأخطار التي كانت تحيط بـ "طريق الحج" عبر بلاد الشام (الدرب الشامي) بسبب الاعتداءات الصليبية على قوافل الحجاج منذ نهايات "الدولة الفاطمية"، ودامت تلك الاعتداءات خلال عصري كل من الدولة الأيوبية، ودولة المماليك.
- وأشارت هذه الدراسة إلى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي مات خلال رحلته الأخيرة إلى الحج، ثم إن أتباعه ومريديه دفنوه بمنطقة "الحميثراء" التي تقع بـ "صحراء عيذاب"، وهو ما كان له أثره الكبير في هذه المنطقة وما جاورها، وساهم ذلك في انتشار "الطريقة الشاذلية"، وزيادة أعداد أتباعها، خاصة في كل من مصر سودان وادي النيل.
- وأكدت الدراسة أن شيوخ "الطريقة الشاذلية"، من المغاربة والمصريين، لعبوا دورًا كبيرًا في نشر هذه الطريقة في الزهد والتصوف في سودان وادي النيل، وكذلك في بلاد شرقي أفريقيا. وكان كثيرون منهم قدموا من بلاد المغرب إلى أرض مصر، ثم طاب لهم المقام بها، ومن ثم ارتحلوا بعد ذلك إلى سودان وادي النيل، وهو ما ساعد على انتشار هذه الطريقة، وزيادة أتباعها هناك بعد ذلك.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

- الشعراني: الطبقات الكبرى، المكتبة التوفيقية، 2011م.
- الإصطخري: مسالك الممالك، شركة نوابغ الفكر، 2011م.
- ابن الطيب: رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، دارالعراب، دون تاريخ.
- أبوالفداء: المُختَصَر في أخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، 1998م.
- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، الجزء الثالث، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ.
- المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف أيضا باسم: خطط المقريزي)، الجزء الأول، طبعة مكتبة دار الآداب، دون تاريخ.
- النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.
- النبهاني: جامع كرامات الأولياء، جـ2، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون تاريخ.
- النويري: نهاية الأرَب فى فنون الأدب، تحقيق: د. محمد عبدالهادى شعيرة، مراجعة: دكتور محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، 1990م.
- أوليا جلبي: الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، الجزء الثالث، ترجمة وتقديم وتعليق: الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م.
- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، جـ1، المكتبة التوفيقية، دون تاريخ.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء السابع، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م.
- ابن تغري بردي: المنهل الصافي، الجزء الخامس، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م.
- الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م.
- ابن حوقل: صورة الأرض، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2009م.
- ابن خلدون: العبروديوان المبتدأ والخبر،الجزء الثاني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2007م.
- ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2009م.

- ابن الصيرفي: إنباء الهِصر بأنباء العصر، تحقيق وتقديم: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث، 2002م.
- عبد الكريم الخطيب: تاريخ جُهينة، سلسلة تراث الجزيرة العربية، 1997م.
- ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، مكتبة القاهرة، 1964م.
- على باشا مبارك: الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الجزء الرابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008م.
- ود ضيف الله: كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، الطبعة الثالثة، دون تاريخ.

ثانيًا – المراجع العربية:

- توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م.
- جلال يحيى: البحر الأحمر والاستعمار، المكتبة الثقافية، 1962م.
- حسن إبراهيم حسن: انتشارالإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية 1984م.
- عادل عبدالحافظ حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م.
- عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1992م.
- عبد العزيز أمين عبد الجواد: التربية في السودان (من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر)، جـ1، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، دون تاريخ.
- عبدالقادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م.
- عليه عبد السميع الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الإسلامية في العصور الوسطى، ندوة تاريخ سواحل مصر الشمالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م.
- كرم الصاوي باز: ممالك النوبة في العصرالمملوكي،الأنجلو المصرية، القاهرة، 2006م.
- محمد رجائي جودة الطحلاوي: عيذاب (دراسة تاريخية جغرافية جيولوجية)، دار الكتاب الحديث، دون تاريخ.
- محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م.
- مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، مطبوعات جامعة القاهرة، الخرطوم، 1972م.
- مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2011م.

- نعوم شقير: تاريخ السودان، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم، دون تاريخ.
- يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، الجزء الأول، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، 1975م

ثالثًا – المراجع المُعربة:

- آنخل جونزالز بالنسيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، 2011م،
- بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة: فؤاد أندراوس، تقديم: محمد الصياد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 2016م.
- ديفيد جورج هوجارت: اختراق الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، ط2، القاهرة، 2009.
- هوبير ديشان: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة: أحمد صادق حمدي، المركز القومي للترجمة: القاهرة، 2011 م.

رابعًا – الدوريات العربية:

- بدوي الطاهر أحمد بدوي: سواكن العمق الحضاري لبلاد السودان، مؤتمر سواكن التاريخ، الحضارة والعمق الحضاري، كتاب الخرطوم، 2011م.
- شوقي عطاالله الجمل: كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين كمصدر لتاريخ العرب (كتاب وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، (عدد نوفمبر)، 1998م.
- هشام بن محمد عجيمي: قلعة الأخضر في طريق الحج الشامي دراسة تاريخية وثائقية، المجلة المصرية للآثار الإسلامية (مشكاة)، العدد الثاني، 2007م.

خامسًا – المرجع الأجنبية:

- J. Spencer trimingham: A History of Islam in West Africa، Oxford Paperback Oxford University Press، Londen، 1975، P. 157.
- J. D. Fage: Ahistory of West Africa، Cambridge University Press، 1969، P. 37

طرق الحج في بوركينافاسو منذ القدم قبل ظهور وسائل النقل الحديثة

أ. سيسي محمود

المستخلص:

تناول هذا البحث:"طرق الحج في بوركينافاسو منذ القدم قبل ظهور وسائل النقل الحديثة" ثم التعرف على الطرق الحديثة ومقارنتها بالطرق القديمة من حيث الآثار والنتائج و دور طرق الحج في انتشار الإسلام في بوركينافاسو ومساهمة المجتمعات المحلية في هذه الطرق في تسهيل مهمة عبور الحجاج مع ذكر الطرق التي سلكوها ودوافع السفر وعلاقته بالقضايا الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وأماكن مرورهم وحالهم أثناء السفر من حيث المعاناة والصبر واحتكاكهم مع الشعوب الإسلامية الأخرى وما نتج عن ذلك من تداخل الثقافات واللغات خاصة الثقافة الإسلامية واللغة العربية التي تبوأت مكاناً في لغة موري(وهي أكثر اللغات انتشاراً في أوساط البوركينيين).

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي والتاريخي كما تتناول أهم الوثائق والمصادر المتعلقة بالموضوع وكذلك إجراء مقابلات مع الشخصيات الأكاديمية والمرجعية.

قسم الدراسة إلى خمسة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: نبذة تعريفية عن بوركينافاسو ودخول الإسلام فيها.

المبحث الثاني:طرق الحج التقليدية والحديثة وإجراء مقارنة بينها من حيث الآثار والنتائج.

المبحث الثالث: آثار رحلة الحج على المجتمع البوركيني اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً.

المبحث الرابع: الرؤية المستقبلية في طرق الحج التقليدية والحديثة.

المبحث الخامس: الخاتمة والتوصيات والمقترحات.

Abstract

This research tackles "the Hajj (pilgrimage to Makkah) routes in Burkina Faso since ancient times before the advent of modern transportation" as well as to identify the modern routes and compare them with the old ones in terms of impact and results. It is also aimed at identifying the role of Hajj routes in the spread of Islam in Burkina Faso as well as the contribution of the local communities around these routes to facilitate the passage of pilgrims، indicating the routes in which they passed through as well as the motivation of their travelling and its relevance to social، cultural and economical issues in addition to the places that they have passed through and their status quo while travelling in terms of challenges، patience and their contact with other Islamic societies and the interference of culture and language،as result of this contact some words were adopted into(Moore) language which is the most widely spoken in Burkina Faso. Descriptive and historical approaches have been used as well as the most important documents and resources which related to this research، the researcher also conducts interviews with academicians and referees. The study is divided into five sections as the following:

Section one is the outline of Burkina Faso and the penetration of Islam. Section two is traditional and modern Hajj routes and comparing them in terms of impact and results.

Section three is about the impact of Hajj voyage on the community of Burkina Faso socially، culturally and economically. Section four handled the future vision on the traditional and modern Hajj routes.

Section five is about conclusion recommendations and propositions.

المبحث الأول: نبذة تعريفية عن بوركينافاسو ودخول الإسلام:

موقع بوركينافاسو:

تقع بوركينافاسو في قلب إفريقيا الغربية، تحدّها من الشرق جمهورية النيجر، ومن الغرب كوت ديفوار(ساحل العاج) ومن الشمال مالي، ومن الجنوب غانا وتوغو وبنين. وبحكم موقعها الجغرافي لا تتمتع بمنفذ على البحر، وكونها في عمق منطقة بلاد السودان تحظى بمناخ استوائي ذي فصلين: الأول جاف ويمتد من شهر مارس إلى شهر يونيو. والثاني ممطر ويستمر من شهر يوليو حتى شهر أكتوبر. أمّا الفترة التي تمتد من نوفمبر، فهي مثالية للسفر والسياحة من حيث المناخ المعتدل. وتبلغ

مساحتها 274.300 كم^{2}.[1] ويبلغ عدد سكانها 18 105 570 مليون نسمة في2015م. كانت بوركينافاسو (فولتا العليا) قسماً من مملكة مالي الإسلامية منذ القرن الخامس عشر، ثم خضعت لمملكة (سونغاي). وبعد تفتت المملكة اتخذت بوركينافاسو (فولتا العليا) مدينة واغادوغو عاصمة لها.

وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبح هذا الشعب محور تجاذب بين القوى الاستعمارية المختلفة كفرنسا، وانجلترا، وألمانيا. ولكن في أواخر عام 1896م حسم القائد الفرنسي فوليه شانوان (Voulet Chanoine) الموقف عندما أحكم سيطرته التامّة على هذه الدولة التي كانت تُدعى سابقاً بـ(فولتا العليا) (Haute Volta). أمّا في عام 1904م فقد انضمت هذه البقعة إلى إقليم السنغال العالي الذي ما لبث أن تفتت عام 1919م تاركاً هذه الدولة تقرر مصيرها بنفسها فيِ خضَمِّ التجاذبات السياسية آنذاك، مما أسفر عن انقسامها وضمّ جزء منها إلى ساحل العاج والجزء الآخر إلى السودان الغربي (مالي حالياً) والنيجر. [2]

وفي عام 1947م أُعيد تجميع أجزاء هذه الدولة بفضل نضال شعوبها، واستقرت أخيراً تحت الانتداب الفرنسي إلى حين إعلانها جمهورية مستقلة في 5 أغسطس عام 1960م. وبعد مرور 23 عاماً على استقلالها، تعرّضت هذه الدولة إلى انتفاضة شعبية أسفرت عن مجيء الثورة الشعبية الديمقراطية إلى الحكم في الرابع من أغسطس 1983م. وفي مناسبة مرور الذكرى الأولى على هذه الانتفاضة قامت الحكومة المنبثقة منها بتحويل الاسم من فولتا العليا إلى (بوركينافاسو)، كما بدّلت النشيد الوطني للبلاد ووضعت عَلماً جديداً مُكوّناً من اللونين الأخضر والأحمر في شكل أفقي تتوسّطه نجمة مُذهّبة. وكلمة (بوركينا) تعني الأحرار الشّرفاء، أما كلمة

[1] سيسي محمود، تقويم، تقويم أساليب الإشراف التربوي في المدارس الابتدائية الفرنسية الحكومية وتطبيقها في المدارس الابتدائية العربية الفرنسية الأهلية في بوركينافاسو، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، الخرطوم،2007 ص 20.

[2] المصدر السابق.

(فاسو) فتعني الوطن. إذن فكلمة (بوركينافاسو) تعني: وطن الأحرار الشرفاء. وكان شعارها: "الوطن أو الموت، سننتصر" أما الآن فشعارها: "الوحدة والتقدم والعدالة"[1].

أهم المدن:

تنقسم بوركينافاسو إلى 45 ولاية، وأهمّ مدنها:

1- واغادوغو: العاصمة السياسية.

2- بوبوديولاسو: العاصمة الاقتصادية.

3- كودوغو: تتميز بصناعة النّسيج.

4- واهيغويا: فيها قصر نابا كانغو أحد كبار ملوك مملكة موسي.

5- بانفورا: هي ولاية تكثر فيها الشّلالات المائية.

الديانة:

* 60.5 % من مجموع السكان مسلمون وفقاً للإحصائيات الرسمية لعام 2006م.

* 23.2% مسيحيون و19% كاثوليك و4.2% بروتستان و0.6 ديانات أخرى و0.4 لا دينيين.

العملة الوطنية:

عملة بوركينافاسو هي الفرنك سيفا (FRANC CEFA) الصادر عن المصرف المركزي لإفريقيا الغربية.

اللغة الرسمية:

اللغة الرسمية في بوركينافاسو هي الفرنسية، كما توجد ثلاث لغات قومية وهي:

1- لغة موري (Mooré).

2- لغة ديولا (Dioula).

3- اللغة الفولانية (Peulh).

وهناك أكثر من ستين لغة ولهجة أخرى محلية.

---

[1] المرجع الساق.

دخول الإسلام في بوركينافاسو (فولتا العليا سابقاً):

أطلق التجار والرحالة والجغرافيون العرب في القرون الوسيطة اسم السودان الغربي على المناطق التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى انحناء نهر النيجر في الشرق. ويجدر بالذكر أنه كان في هذه المنطقة مملكتان عظيمتان تحدّث عنهما الرحالة العربي الشهير البكري وهما مملكة غانا ومملكة مالي. وتأسست مملكة غانا في الفترة مابين القرن الرابع والقرن الخامس الميلاديين وكانت هذه المنطقة من أكثر مناطق القارة الأفريقية تأثراً بالإسلام والثقافة الإسلامية التي جاءت إليها عبر التسرّب السلمي من الشمال الأفريقي إلى ماوراء الصحراء الكبرى مع التجار والرعاة ورجال الطرق الصوفية بدءاً من القرن الثامن الميلادي بعد أن استقر الإسلام في الشمال الأفريقي الذي أطلق عليه أيضا الجغرافيون العرب اسم بلاد البيضان. وسيطرت مملكة غانا على السودان الغربي بأكمله، غير أنها سقطت في عام 1076 ميلادية تحت ضربات قوات المرابطين المغاربة، وقد كانت أهم القبائل التي سكنت تلك المنطقة قبائل السوننكي والديولا والماندينقو التي اعتنقت جميعها الدين الإسلامي تحت ضغط وربما إغراء الحروب التي شنها عليها المرابطون بقيادة عبد الله بن ياسين. وبعد سقوط دولة غانا قامت في المنطقة مملكة مالي الإسلامية.وفي القرن الخامس عشر اجتذبت منطقة فولتا العليا التجار المسلمين والمستوطنين من قبيلة أكان وذلك لإتاحة الفرصة أمام التجارة في تبادل الذهب والمكسرات والكولا والملح.[1] وكان بعض هؤلاء التجار من الشعوب الناطقة باللغة السوننكية من تمبكتو وجينيه الذين اعتمدوا في وقت لاحق لهجة قبيلة ماندينقو التي أصبحت تعرف باسم ديولا. استقروا بعد ذلك في مدن بوبوديولاسو، وكونغ، وبوندوكو، وغيرها من الأماكن التي تؤدي إلى حقول الذهب. التجار الآخرون جاؤوا من كنيم وبورنو ومملكة الهوسا (من نيجيريا) التي انتقلت إلى مدن غونجا وداغومبا وأجزاء أخرى من منطقة فولتا. تزوج المسلمون من النساء المحليات وأسسوا عائلات تمازجت مع المجتمع هناك حيث الأب مسلم والأم من

[1] محاضرات السفير الدكتور عمر عبد الماجد،المركز القومي للدراسات الدبلوماسية، وزارة الخارجية، الخرطوم، السودان، انظر أيضا عمر عبد الماجد، تاريخ الدول والإمبراطوريات الإسلامية في السودان الغربي والأوسط، مركز الدراسات، الخرطوم، 2005م

السكان الأصليين. وظهرت طبقة العلماء المعروفة باسم كاراموكو الذين تلقوا تعليمهم حول القرآن الكريم والحديث وعلم التفسير والسيرة النبوية حيث احتكوا بأهالي البلاد، وانخرطوا في أوساطهم بأخلاقهم الحميدة، وتعاملهم الممتاز بشكل خلَق نوعًا من الفضول في أوساطهم للتعرف على الإسلام، واعتنقه الآلاف منهم تأسيًا بطبائع المسلمين، واستمرت الدعوة في تحقيق النجاح تلو الآخر، واخترقت كافة بقاع البلاد، إلى أن ابتُليت فولتا العليا بالاستعمار الفرنسي، وبسياسات تهدف لتجفيف منابع الإسلام واقتلاعه من عقول وقلوب معتنقيه؛ عبر إغلاق المؤسسات والمدارس الإسلامية، وإشاعة الأميَّة والجهل في أوساط الأغلبية الساحقة من المسلمين، وتكريس سيطرة النُّخبة النصرانية على الحُكم حتى بعد خروج الاستعمار [1] وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت مملكة موسى تسيطر على فولتا العليا ودافعت عن معتقداتهم الدينية ضد التأثيرات الإسلامية من المسلمين في شمال غرب البلاد كما لم يكن هناك حتى ذلك الوقت سوى 30 ألف مسلم ولكن بحلول 1959م كان هناك 800 ألف مسلم أي ما يقرب من 20 في المائة من السكان. [2]

المبحث الثاني: طرق الحج التقليدية والحديثة وإجراء المقارنة بينها من حيث الآثار والنتائج:

تشير الروايات المكتوبة والشفوية المتداولة إلى أنّ الطرق التقليدية التي سلكها الحجاج منذ القرن الرابع عشر الميلادي متعددة وأبرزها طريقتان اثنتان هما جمهورية مصر العربية وجمهورية السودان.

الطريقة الأولى: هي من مملكة موسي(فولتا العليا) إلى مملكة مالي حيث بدأ معظم العلماء المسلمين من فولتا العليا تعاليمهم الدينية على يد علماء تمبكتو وسيقو وموبتي وكانت مصر آنذاك المحطة التي يتوقف عندها الحجاج القادمون من غرب أفريقيا في طريقهم إلى الحجاز لأداء مناسك الحج وأكبر دليل على ذلك ما وصف لنا الرحالة

---

[1] حوار مع الشيخ محمود باندي، رئيس لجنة الشؤون الإسلامية بالجمعية الإسلامية في بوركينا فاسو، وغادوغو منقول عبر الموقع http://www.alukah.net/world_muslims

[2] https://ar.wikipedia.org/wiki/

العربي الشهير ابن بطوطة حين زار هذه المنطقة في 1352م في عهد الملك منسَا موسى الذي قام بقضاء فريضة الحج في عام 1324م بأداء رحلته من تمبكتو مع جمع غفير من حاشيته المشتملين على علماء هذه المنطقة من ضمنهم الذين جاؤوا من مملكة موسى لأداء فريضة الحج الشيء الذي أدهش الشعوب العربية حينذاك خاصة في مصر والأراضي المقدسة نظرا للثروات الهائلة التي حملوها معهم إلى مدينة القاهرة في اليوم السادس عشر من شهر رجب سنة 724 هـ / العاشر من مايو سنة 1324 م، والتي ضمت بحسب بعض المصادر 60 ألف شخص، من بينهم 12 ألفاً يحملون أطناناً من الذهب، وأغدق الذهب على كل المناطق التي مر بها؛ ومن بينها القاهرة والمدينة المنورة، مما خفض سعر الذهب لفترة طويلة. كما قام الملك أسكيا محمد الذي حكم في الفترة مابين 1493م–1529م هو الآخر بأداء فريضة الحج في موكب عظيم من أتباعه [1] وأنفق أموالاً طائلة أثناء هذه الرحلة قدرت حينذاك بمائة ألف قطعة من الذهب أنفقها جميعها في سبيل الله.[2] وذكر كوندا أبوبكر باحث الدكتوراة من أبناء بوركينافاسو فيما رواه عن أجداده الذين قاموا برحلة الحج أنّ الحجاج من فولتا العليا كانوا في طريقهم يمكثون سنوات ويقومون بأعمال الخير منها من يزرع طول الموسم الزراعي وإذا صلحت الزراعة وحان وقت حصادها تركوها للطيور والبهائم يبتغي بذلك الأجر عند الله سبحانه وتعالى.[3]

من أسباب هذه الرحلات:

1. كانت رحلة الحجاج بشكل عام ورحلة منسَا موسى بن أبى بكر الأسطورية بشكل خاص تجسيداً لشوق مسلمي غرب أفريقيا والممالك الإسلامية القديمة إلى الشرق المسلم حيث الحجاز منبت الدين الإسلامي وحيث المدينتين المقدستين: مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ وحيث يمكنهم أداء مناسك الحج لاستكمال أركان دينهم.

---

[1] عمر عبد الماجد مرجع سابق

[2] http://archive.aawsat.com/details.asp

[3] مقابلة مع أبوبكر كوندا من أبناء بوركينافاسو، وباحث الدكتوراة في علم اللغة التطبيقي، جامعة أفريقيا العالمية بتاريخ 2016/8/26م، الخرطوم– السودان.

2. كان الشرق العربي الإسلامي في تلك الفترة مركز الثقل في العالم المسلم ومستودع ميراث الحضارة العربية الإسلامية ومجدها الرائع، بعد الهجمات التي تعرض لها المغرب والأندلس الإسلامي من جانب الكاثوليك ؛ واجتياح المغول للشرق الإسلامي وإسقاط الخلافة العباسية في بغداد، حتى أوقفهم سلاطين المماليك بعدما هزموا جيوشهم في عين جالوت بفلسطين.
3. لقد كانت القاهرة في تلك الفترة العاصمة الجاذبة للهجرة من كل أنحاء العالم المسلم بسبب ما كانت توفره من أمان وما تنعم به من ازدهار اقتصادي واستقرار سياسي وقوة ومهابة على الصعيد الإقليمي والعالمي.

ولم يكن شوق السفر إلى الشرق العربي وبلاد الحجاز خاصة قاصراً على الحكام وإنما امتد إلى رعاياهم الذين تكبدوا تكاليف الرحلة، وتجشموا مشقة السفر وخاطروا بعبور الصحراء بما تحويه من مخاوف ورهبة لتتويج حياتهم بهذه الرحلة العظيمة. ومثلما يفعل مسلمون كثر في جميع أنحاء العالم المسلم في مشارق الأرض ومغاربها اليوم، كان مسلمو غرب أفريقيا (مالي وفولتا العليا وغانا والنيجر والسنغال وغيرهم) يفضلون قضاء ما بقي لهم من العمر في رحاب البلاد الحجازية وفى المدينتين المقدستين: زواراً، وحجاجاً ومجاورين، ودارسين ومدرسين. وقد آثر بعضهم البقاء في مصر لأسباب متنوعة: تجاراً وطلاباً وعلماء حرفيين.[1]

وربما كان الأمر ذو أثر بالغ في هذه الصلات التي قامت بين غرب أفريقيا والشرق العربي يتمثل في التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية الصحيحة التي أدخلها علماؤهم في بلادهم بعد أن تعلموا في القاهرة أو في الحجاز. ومنذ تلك الفترة صارت دول غرب أفريقيا مسلمة في بنيتها حيث تبنت ما تم نقله من الشرق العربي المسلم من عقائد وممارسات ومظاهر مادية ومعنوية.[2]

---

[1] عمر عبد الماجد مرجع سابق

[2] مقابلة شخصية مع الحاج إسحاق عبد الله عمر قدم من محافظة –كودوغو–فولتا العليا قاصدا الحج منذ الستينيات من القرن الماضي ماشيا على الأقدام، موضوع المقابلة طرق الحج القديمة من فولتا العليا إلى مكة المكرمة، 2016/7/31م الساعة 6 مساء بمنزل محمد عبد السلام أحمد عمر، بحيّ عد حسين، الخرطوم– السودان.

الطريقة الثانية: هي من مملكة موسى (فولتا العليا) إلى السودان كدولة ممر وقد دلت الدراسة الميدانية التي قام الباحث بإجرائها والمتمثلة في المقابلات للشخصيات الأكاديمية والمرجعية وشهود على العصر.دلت الدراسة أنّ هناك عدة طرق فرعية من بوركينافاسو إلى السودان ثم إلى الحجاز.

الطريقة الفرعية الأولى (وفقاً للشخصية المرجعية وشاهد على العصر، الحاج عبد الله إسحاق عمر) من محافظة كودوغو شرقي البلاد، يقول وهو يروي سفره راجلاً إلى الأراضي المقدسة قائلاً: "أنا كنت ابن أحد عشر عاما وكنت في خلوة الشيخ صالح بونكونغو في محافظة كودوغو– فولتا العليا، قرر الشيخ أن يأخذنا كلنا إلى رحلة لأداء فريضة الحج ولتعلم العلوم الإسلامية في مكة المكرمة وكان عددنا 16 طالب خلوة من بيننا ولدان للشيخ ومع الشيخ نفسه 17".

كان طريقنا كالآتي:

خرجنا من محافظة كودوغو إلى بوبوديولاسو العاصمة الاقتصادية للبلاد ثم خرجنا من هناك إلى بواكي في شمالي كوت ديفوار وجلسنا هناك ستة أشهر ثم تحركنا ودخلنا مدينة كوماسي في غانا في عهد كوامي نكروما ومن غانا اتجهنا نحو داهومي ودولة بنين حالياً، وعندما وصلنا إلى داهومي عرف حاكم المدينة بذهابنا إلى الأراضي المقدسة فكتب لنا ورقة يطلب فيه تسهيل سفرنا حتى الخروج من داهومي وبالفعل كلما ضاق علينا الأمر في نقاط التفتيش نعرض لهم الورقة فيتركوننا للعبور حتى وصلنا إلى نيجيريا. يروي لنا الحاج عبد الله إسحاق عمر أنّ هناك صعوبات وتحديات عند العبور بالغابات لأنه يوجد بشر سحرة يتحولون إلى حيوانات مفترسة مثل الذئاب والأسود وغيرها لهجوم الناس وأكل لحوم البشر وبما أنّهم كانوا جماعة وكانوا يحملون الأسلحة البيضاء والرماح ويأخذون حذرهم في كل مكان فلم يتعرضوا لهجوم من هذه الحيوانات فمرّوا بمدن كثيرة في نيجيريا منها بيافرا وزاريا وجوس وسابوناكا وعند العبور في هذه المدن يحكي لنا أنّهم كانوا يعملون أعمالاً صغيرة خاصة بيع الماء حتى يجمعوا بعض المال ليصلوا إلى قمبارو المنطقة الواقعة بين نيجيريا والكامرون، وصلوا في الكامرون ووصلوا إلى مدينة ديكوا وقالوا إنّ رئيس

الكامرون في ذلك الوقت اسمه أحمد إيجو في 1963م تقريباً. [1] يرى الباحث أنّ مسألة الحيوانات المفترسة قد لا تكون بشراً كما قيل وإنما حيوانات حقيقية والسبب في ذلك أنها في الغابات ولكن أعتقد أنّ كلام الحجاج كان اعتقاداً وظنوناً وفي الحقيقة سمعنا روايات خيالية كثيرة ولم نقم بكتابتها في هذه الدراسة لأنّها بعيدة كل البعد عن الحقيقة والمنطق. وصلنا بعد ذلك إلى مدينة قاروا في الكامرون تعرّف الشيخ بالرئيس فنادانا إلى بيته وطلب منا أن ندعوا له وقرأنا القرآن ثلاثة أيام وذبح بقرة ثم بعد ذلك كتب الرئيس أحمد إيجو أمراً أن يأخذونا بالسيارة إلى الحدود الكامرونية كوسيري. وعندما وصلنا إلى كوسيري ورأت شرطة نقاط التفتيش ما كتبه الرئيس قاموا احتراماً لنا وسهلوا علينا عبورنا. ويجدر بالذكر أنّ المجتمعات التي مررنا عليها كانوا يساعدوننا وحتى عالم واحد من علماء كدونا نيجيريا ساعدنا بالزاد وكان معنا حمير تحمل أمتعتنا وعندما وصلنا كدونا كان أحد حميرنا يعاني مرضاً فأخذه الأمير وبدله بحمارين لنا.

الطريقة الفرعية الثانية هي الأكثر استخداما في أكثر الأقوال المأخوذة من عينة الدراسة التي ذكرت أنّ الطريق من فولتا العليا ثم إلى النيجر وإلى نيجيريا ثم إلى الكامرون بالتحديد مدينة كوسيري الحدودية ثم إلى فارلامي (تشاد الحالية) ثم إلى جمهورية السودان عبر دارفور وإلى سواكن بورتسودان ثم جدة وإلى مكة المكرمة.ومنهم من يخرج من السودان إلى إريتريا عن طريق ميناء مصوع وعصب ثم إلى اليمن ثم إلى السعودية.فالشعب السوداني والحكومات المتعاقبة على مرّ التاريخ مشهورة بالكرم ونجدة الضيوف الحجاج وتقديم كل مساعدة وحماية يحتاجون إليها والمواطنون السودانيون أيضا يقدمون للحجاج المأوى والمأكل والملبس ويقدمون لهم مزارع ليعيشوا عليها ويساعدونهم بشتى السبل والوسائل ويقومون بتدريس الحجاج أصول الدين والعلوم الشرعية وكافة العلوم الإنسانية الأخرى، وكانت معاملة السودان للحجاج مثل معاملة الأنصار للمهاجرين في المدينة المنورة في فجر الإسلام. يقول محمد ألفونس موظف سابق بقنصلية فولتا العليا إنّ بعض الحجاج المهاجرين عندما

[1] مقابلة شخصية مع الحاج إسحاق عبد الله عمر، المرجع نفسه

وصلوا إلى السودان كانوا لا يملكون بعض الأوراق الثبوتية لأنّ بعضهم فقدوا أوراقهم أثناء السفر أو انتهت مدة صلاحيتها نتيجة مكوثهم أثناء السفر وغيرها. فلذلك عندما أصبح عدد المسافرين للحج كثير جداً في السودان كانت تأتي إلى السودان بعثات دبلوماسية لاستخراج جوازات وتصاريح السفر لتسهيل أمورهم حتى يتمكنوا من أداء شعيرة الحج والعودة لبلادهم، أذكر عل سبيل المثال لا الحصر: في السبعينيات أتى إلى السودان الحاج طاهر زيدا مبعوثاً إلى السودان من وزارة خارجية فولتا العليا ثم جاء بعده السيد كبوري كيابا ثم السيد فاليا حسين ثم السيد ثلاثة إسحاق أيضا لنفس الغرض.[1] ويتابع السيد محمد ألفونس كلامه قائلاً: [2] أنا عندما أتيت إلى السودان كان في السجل 1460 شخصاً مسجلاً في قنصلية فولتا العليا يريدون السفر إلى الحج وكلهم جاؤوا من فولتا العليا سيراً على الأقدام من أجل الحج وكانت قنصلية فولتا العليا داخل السفارة الفرنسية ثم تحولت إلى العمارات شارع 51 بالخرطوم في الثمانينيات من القرن الماضي وقال أيضا: حكى لي العم عيسى وهو من مواليد 1896م والمعروف بـ (عيسى كومبيسيري) أنه عندما ذهب إلى الحج كانوا يسكنون ما لا يقل عن كيلومتر واحد من الحرم ولكن إذا أرادوا الذهاب إلى الحرم يجتمعون ويذهبون جماعة لأنه توجد أسود بين مساكنهم وبين الحرم ويرى الباحث أنه ربما في ذلك الوقت توجد غابات كثيفة بالقرب من الحرم بالإضافة إلى كثرة الجبال المحيطة به في ذلك الوقت.

في عام 2002م عندما كان الباحث طالباً في جامعة إفريقيا العالمية خرج في قافلة دعوية مع الأساتذة الأجلاء إلى الولاية الشمالية وبالتحديد في قرية تدعى (بانت) في هذه القرية حيّ كامل يدعى (دار مالي) فسألتُ أهل القرية لماذا سمي هذا الحي بدار مالي فقالوا لي أنّ أهل غرب أفريقيا كانوا في قديم الزمان يأتون إلى هنا

[1] مقابلة مع محمد عبد المؤمن موسى،شاهد على العصر و موظف سابق قنصلية فولتا العليا عام 1976م، دارت المقابلة في منزله في السجانة،الخرطوم – السودان. بتاريخ 2016/8/7م

[2] مقابلة مع محمد ألفونس، موظف في قنصلية فولتا العليا منذ 1980م حتى الآن، ودارت المقابلة في منزله في مايو، الخرطوم – السودان بتاريخ 2016/8/13م الساعة 2 ظهرا.

قاصدين الحج وكانوا ينزلون في هذا المكان وكان معظمهم من مالي فلذلك عرف هذا المكان بدار مالي وبقي الحي على هذا الاسم.

دور المرأة في طرق الحج القديمة:

ذكرت الحاجة عائشة يونس عبد الله المعروفة بـعائشة صوري أنّ للنساء دوراً كبيراً جداً في مسألة السفر براً إلى الحج فهن اللائي يقمن بإعداد إجراءت السفر وتجهيز الأطعمة في وقت مبكر جدا قبل السفر لضمان نجاح رحلة الحج وهي أطعمة شعبية في الغالب منها اللحوم الناشفة ودقيق مطحون ويصنع منه السويق أي من دقيق الدخن المطبوخ بالبخار. أما دور المرأة في الإيمانيات فهن أشبهن إلى الشيخات في طريق الحج لأنهن لا يتحدثن عن الدنيا بعد خروجهن من بيوتهن إلى الحج ومعظم كلامهن يتركز على كلام القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إذ هنّ يلزمن حلقات علمية لقراءة القرآن ويتدارسنه ومنهن من حفظت العشماوي وكتب الفقه المالكي وغيرها.

إذا وصلت النساء مع أزواجهن أثناء سفرهن في قرية أو مدينة فإنّ النساء المواطنات يستقبلنهن استقبالاً حاراً في بيوتهن ويقدمن لهن الكسوة والأطعمة ويساعدنهن ببعض الأعمال الخفيفة لجمع الأموال من أجل مساعدة أزواجهن لمواصلة الرحلة. ذكرت أيضا أنّ هؤلاء النساء يتميّزن بالإيمان والتوحيد والصبر ومهما بلغن من العذاب والفقر هن وأزواجهن فإنهم إذا وجدوا مبلغا من المال واقعا على الطريق مهما بلغ قيمته لا يأخذونه.[1]

طرق الحج الحديثة:

أمّا طرق الحج الحديثة فمنذ أن توفرت الوسائل الحديثة من السيارات والطائرات أصبح الأمر سهلاً جداً، خاصة أنّ في بوركينافاسو الآن ما لا يقل عن 38 وكالة حج وعمرة مسجلة رسمياً تقوم بالإجراءات المتعلقة بالحج والعمرة بالتنسيق مع السلطات الوطنية والسعودية مما جعل الشخص الذي ينوي السفر للحج ليس عليه إلاّ الاتصال بهذه الوكالات ويدفع الأموال المطلوب دفعها ثم يقوم بمتابعة الفحوصات

[1] مقابلة مع الحاجة عائشة يونس عبد الله، المعروفة بالحاجة عائشة صوري، دور المرأة في طرق الحج القديمة، جرت المقابلة في منزلها في الحاج يوسف، الخرطوم، السودان، 13بتاريخ /8/2016م

الطبية وغيرها إلى يوم الانطلاق من المطارات في وغادوغو العاصمة السياسية أو في مدينة بوبوديولاسو في العاصمة الاقتصادية والهبوط في مطار جدة في المملكة العربية السعودية.

المقارنة بينها من حيث الآثار والنتائج:

طرق الحج قديماً عبارة عن مدرسة؛ إما أن تسافر عالماً أو متعلماً فالعلماء كانوا يسافرون وهم في طريقهم يقيمون مجالس علمية ينتفع بها الناس فعلى سبيل المثال خرج العالم المشهور الشيخ علي الملقب بـــ (كيلموري) وهو من محافظة بام(كونغوسي) في وسط البلاد ومعه طلاب الخلوة التي أسسها هو بنفسه وكان يلقي محاضرات في الأماكن التي ينزلون فيها وهم في طريقهم إلى الحج وقد ترك كيلموري أثراً وبصمة واضحة في علمائنا الأجلاء في بوركينافاسو. يحكى أنّ كيلموري عندما وصل في فورت لامي(انجمينا حالياً) منعهم القوات الاستعمارية من المرور على جسر الواقع في مدخل فورت لامي(انجمينا) وكان يوجد جمع غفير من أنحاء إفريقيا أوقفتهم القوات الاستعمارية كذلك، فدعا الشيخ الله على الملأ وبعد الانتهاء من الدعاء ذهب إليهم وطلب الإذن للمرور فسمحوا له أن يختار من الجمع مجموعة للمرور معه فقام كل الناس يطلب منه أن يختاره وبذلك أذنت له السلطات الاستعمارية فمرّ هو ومن معه. بينما نجد أنّ الطرق الحديثة الآن يتم السفر خلال ساعات من المطارات الدولية في بوركينافاسو والهبوط في جدة مباشرة.[1]

ومن أثر الحج أيضا أنّ كثيراً من العلماء الذين سافروا إلى الحج قديماً مكثوا في الأراضي المقدسة لتلقي العلوم الشرعية على أيدي العلماء في السعودية ورجعوا إلى بلادهم لتعليم العلوم الإسلامية فعلى سبيل المثال أصبح الحاج شعبان كوندا في محافظة (كايا) أول مفسر للقرآن الكريم في منطقته بعد أن رجع من الحج في وقت مبكر و الحاج سنوسا بويتنغا وأمثالهم كثر.

[1] مقابلة مع الشيخ سيساغو حميد شاهد على العصر، من أبناء الحجاج الأوائل من محافظة سانماتينغا. داخلية المودودي، جامعة أفريقيا العالمية بتاريخ 2016/9/4م

ففي محافظة (سانماتنينغا) وبالتحديد في (كالومباوغو) هناك جبل كان يعتبر مقراً للأوثان ويُتقرّب إليه الناس فعندما رجع هؤلاء المذكورون حاربوا هذه الظاهرة وقضوا عليها.[1]

المقارنة بين الحج قديما والحج حديثا في بوركينافاسو من حيث الآثار والنتائج	
الحج قديما	الحج حديثا
التكلفة قليلة والحجاج قليلون.	التكلفة باهظة والحجاج كثيرون.
السفر شاق جدًا من حيث الوسائل	السفر سهل جدا من حيث الوسائل
وليمة رمزية بعد العودة من الحج	وليمة بأموال طائلة
الجود بالموجود مما يحبب الفقراء في أداء فريضة الحج	الوليمة فوق الطاقة مما ينفّر الفقراء من أداء فريضة الحج نظرا لهمّ الوليمة
الإنسان يعيش ليحج ويكمل أركان الإسلام الخمس ولو انتهى به الأمر أن يلقى الله في سبيل ذلك	الحج عبارة عن استطاعة وأصبح الآن موضة عند بعض الناس حتى يظهر لهم إمكانياته
المقارنة بين الحاج قديما والحاج حديثا في بوركينافاسو	
الحاج قديما	الحاج حديثا
يتميّز بقوة التوحيد الثابت	التوحيد موجود ولكن يزيد وينقص
يتميّز بالزهد والتوكل على الله في الحدود الشرعية	يبالغون في البذخ وإقامة المراسم لاستقبال الحجاج الأمر الذي يشوّق الشباب للذهاب إلى الحج.
التقوى في كل شيء	يعتبرون الحج هو التقوى؛ فالإنسان قبل أن يحج يمكن أن يمارس بعض المحرمات أما بعد الحج فتحرم قطعا.

[1] المرجع نفسه

	لذلك تجد بعض الناس غير الحجاج يرتكب المحرمات وإذا ابتلى الله أحد الحجاج بارتكاب محرم ولو عفويا.

مراسم استقبال الحاج في بوركينافاسو في العصر الحديث:

الحج في العصر الحديث في بوركينافاسو مظهر من مظاهر الفخر والاعتزاز في أوساط المجتمع البوركينى. يبدأ استقبال الحاج في المطار جمع غفير من عشيرته وقبيلته وأصدقائه ومعارفه بزيّ موحد ومجرّد ظهور الحاج من المطار يتوق كل واحد أن يكون أول من يصافح الحاج الجديد، ويرافقونه أولاً إلى منزل الضيافة غير بيته الحقيقي ليتجمع الناس هناك ثم الانطلاق معه إلى مسقط رأسه، وهذه المرافقة تكون بالسيارات وبالدراجات النارية وعند الوصول في البيت نجد أنّ الناس خرجوا ويكون الرجال في صف والنساء في صف آخر ويصافح الحاج الجديد الرجال أما النساء فيكفي برفع يديه. يتوضأ الكل ثم يتوجه الحاج الجديد مع الجماعة ويصلي ركعتين في أحد المساجد وبعد السلام يُرجى من الحاج الجديد أن يقدم كلمة وعظ وإرشاد ثم يدعو للجميع، وبعد ذلك يتقدم الجماعة لتناول وجبة الوليمة والحلويات والتمور وغيرها. وقبل تناول الوجبة يصب ماء زمزم في برميل كبير يختلط بالماء فيشرب الناس منه. وبعد ذلك تتم مرافقة الحاج الجديد بالمديح النبوي الشريف والقصائد إلى داخل بيته الخاص، وفي الأيام التالية يتوافد الناس رجالاً ونساء بهدايا إلى بيت الحاج الجديد وهو بالمقابل يقدم لهم الملابس مثل الجلابية السعودية والقلنسوات وماء الزمزم وغيرها من الأشياء التي اشتراها في الأراضي المقدسة. [1]

المبحث الثالث: آثار رحلة الحج على المجتمع البوركينى اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً:

يذكر الحاج عبد الله إسحاق عمر ومحمد عبد المؤمن ومحمد عبد السلام ومحمد ألفونس وغيرهم مؤكدين أنّه كان من ضمن حجاج فولتا العليا الأوائل من عملوا في حراسة الكعبة المشرفة كما كان منهم حراس الأمراء في عهد الملك فيصل، لأنّ في ذلك الوقت لم يكن عدد الحجاج كثيراً كما هو الحال الآن وبالتالي لم يكن هناك أسئلة عن الهوية والإقامة وكانت الهوية الجامعة هي الهوية الإسلامية ولم يكن

[1] ملاحظات الباحث، وسيد محمود مرجع سابق.

هناك طرد للأجانب على الإطلاق. عليه يجدر بالذكر أنّ هؤلاء الحراس والعاملين من فولتا العليا كانوا يقومون بخدمة الكعبة المشرفة والملوك محتسبون بذلك الأجر عند الله. كان الحجاج يقومون بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بادئاً بنفسه حيث كان معظم الحجاج قبل أداء فريضة الحج يؤمنون بالسحر ولكن معظمهم قاموا بحرق ما يملكون من السحر والكجور بعد عودتهم من الحج وحتى بعضهم قاموا بحرقها حتى قبل أداء الفريضة.

أثر الحجاج والدعاة في نشر الإسلام في بوركينافاسو (فولتا العليا سابقاً):

وفقا للبحث الميداني الذي أجرته هذه الدراسة وملاحظات الباحث نفسه تم تقسيم مسار الدعوة الإسلامية في بوركينافاسو إلى ثلاثة أطوار رئيسة وهي:

الطور الأول ويسمى بالطور التكويني:

وهي الفترة التي شهدت بدايات دخول المؤثرات الإسلامية في البلاد وقام بأمر الدعوة في هذا الطور الدعاة والحجاج والتجار، حيث كان العلماء المسلمين من أبناء البلد خرجوا إلى الحج بالطرق التقليدية القديمة التي استمرت عاملاً مهماً لنشر التعليم الإسلامي واللغة العربية وفرصة لتجمع فطاحل العلماء من كل صوب وبفضل هؤلاء الحجاج والعلماء والفقهاء أخذت مدن كثيرة شعلة العلم والمعرفة.[1]

ومن الجهود الدعوية للحجاج:

1. محاربة الوثنية التي كانت منتشرة في فولتا العليا.
2. تعريف الإسلام.
3. إلزام من أسلم منهم بأداء الفرائض ومن أهمها فريضة الصلاة.

وقد ركز الدعاة والحجاج في هذه المسائل بسبب أنهم كانوا يدركون أنّ الموسى (وهم الأغلبية في بوركينافاسو) في الأصل عبدة الأوثان فلذلك بدؤوا بمحاربة الوثنية التي تعتبر الشرك بالله وخاصة رؤساء القبائل بدليل أنّ الملك إذا أسلم يُسلم معه أتباعه تطبيقا لمقولة "الناس على دين ملوكهم".

---

[1] ربيع محمد القمر الحاج، أثر الدعاة والحجاج والرحالة المسلمين في نشر الإسلام، مجلة دراسات أفريقية، العدد 17، رجب – رمضان 1434هـ الموافق يوليو– سبتمبر 2013م، الرياض – المملكة العربية السعودية ص125–126،

صعوبات واجهت الحجاج الأوائل في الدعوة:

إنّ تلك النجاحات التي حققوها لم يكن تحقيقاً سهلاً، بسب جملة من المصاعب التي كانت تعترض طريقهم، منها طبيعة بلاد الموسى المذكور أعلاه والتي تعتبر أحد أبرز العوائق التي واجهتها الدعوة الإسلامية في بوركينافاسو. أما الصعوبة الثانية فتتمثل في الدعم والسند الذي تقدمه المراكز النصرانية من أجل العمل على التنصير في أوساط المسلمين ووقوف الاستعمار ضد العلماء الفطاحل من المسلمين وتعذيبهم. هذا وقد أدركت الإدارات الاستعمارية قوة الحرية الجديدة التي كانت يمثلها هؤلاء الدعاة من العلماء والحجاج فقاومهم الاستعمار بشدة حيث ألقي القبض عليهم وأبرزهم مايلي: [1]

1. الشيخ أبوبكر ميغا الأول وهو شيخ الطريقة التجانية في نميسجما (قرية رحمة الله) في شمالي البلاد.
2. المقدم مختار وهو دون الشيخ أو نائبه في منطقة (فوبي) محافظة سنماتينغا.
3. المقدم علي في منطقة كيلا والملقب بـ (كيلموري) محافظة بام وسط البلاد.

يقول شهود عيان عن القبض على العلماء والدعاة والحجاج الأوائل(إنهم كانوا يقبضون على العلماء والأعيان والحجاج الأوائل ويذهبون بهم إلى مدينة "جرام بسام"عاصمة كوت ديفوار آنذاك ويغطسون رؤوسهم في براميل مملوءة بالماء لفترة طالبين منهم الكف عن الدعوة الإسلامية وحث المسلمين على طاعة أوامرهم).

وبالرغم من تلك الصعوبات فإنّ الحجاج الأوائل تمكنوا من تحقيق عدد كبير من المكاسب للدعوة الإسلامية وتمكينها في البلاد حيث تحولت أعداد كبيرة منهم للإسلام في فترة مبكرة. ومما يؤيد هذه الحقيقة التوسع الواضح الذي حدث في انتشار الخلاوي في طول البلاد وعرضها وفي قرى متنائية والمساجد التي بُنيت بمجهود اتهم الخاصة.

[1] سيسي محمود مرجع سابق ص 7-8.

وقد ساعد في تحقيق تلك الجهود عدد من العوامل المهمة منها مايلي:

1. الإيمان الراسخ لدى الحجاج الأوائل والعلماء والدعاة وعزمهم على نشر الإسلام مهما كلف الثمن ولكن انطلاقاً بقوله تعالى "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة".
2. الاستقرار النسبي الذي ساد المناطق بعد مقاومة العلماء المسلمين والحجاج على التنصير والاستعمار.
3. الأمن الذي بدأت تشهده فولتا العليا نتيجة ظهور مراكز للعلوم الإسلامية.

جهود الحجاج المباشرة:

- فمن جهودهم المباشرة تأثيرهم الواضح في المناطق التي يعيشونها مع السكان من التجار والمريدين والاحتكاك والتعايش السلمي بالروح الإسلامية الطيبة، هذا ما أتاح الفرصة لهؤلاء الحجاج للاستفادة والتعرف على الدين الإسلامي والدخول في الإسلام.[1]
- إنّ الحجاج كانوا بعد أداء فريضة الحج يحاولون أن يكونوا مثالا يحتذى به في الإسلام لذلك نجد الناس يقبلون منهم النصيحة.
- ومن جهودهم المباشرة أيضاً في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوساط المجتمع إتاحة الفرصة لمن أسلم منهم أداء فريضة الحج والمناسك في صحبتهم والسفر مع من ينوي الذهاب إلى الحج.

جهود الحجاج غير المباشرة:

أما المساهمات غير المباشرة للحجاج في مجال خدمة الدعوة الإسلامية فإنها تنحصر غالباً في توفير المعلومات الضرورية عن أهم الطرق المؤدية إلى أراضي الحجاز بالتسلسل ثم الصدق والوضوح في تلك المعلومات والمسافات الفاصلة بين دولة أو مدينة وأخرى مع بيان أنسب الوسائل التي تتفق مع تلك البيئة حيث ذكروا أنّ معظم الحجاج المسافرين يستخدمون الحمير لحمل أمتعتهم كوسيلة تناسب المسافرين

[1] ربيع محمد القمر الحاج، مرجع سابق ص125.

بسبب صبرها وقوة تحملها وأحياناً أخرى يفضلون الإبل بسبب تحملها للعطش خصوصاً في ظل ندرة المياه وقلة مواردها في المنطقة.

وقد استفاد الحجاج كثيرا من هذه المعلومات فأصبحوا يتخيرون أنسب الحمير والإبل وأصحها وأقصر الطرق وأكثرها أمنا للسفر لبلاد الحجاز.

كما قدمت هذه العناصر معلومات أخرى استفاد منها الحجاج المهاجرون، منها ما يتعلق بأماكن توفر المياه الصالحة للشرب عبر طرق القوافل وأسماء أهم الآبار الموجودة على طول الطريق القاصد من بوركينافاسو (فولتا العليا سابقا).

المخاطر التي واجهها الحجاج:

- كان الحجاج يتعرضون للمخاطر ومن أشد هذا الخطر هو النهب والقتل في الطريق من قطاع الطرق.[1]
- الضياع من الطريق الصحيح والتعرض لمعاناة نتيجة شح المياه والموت جوعاً أو عطشاً.
- ومن المخاطر كذلك العوامل الطبيعية المتمثلة في الرياح العاتية التي كانت تغيّر مسار السفن وتهدد سيرها بالأمواج وتؤدي إلى إغراق السفن بمن فيها في حالة الارتطام بها. [2]
- فكان كثير من الحجاج المسافرين يضطرون للعودة مرة أخرى للموانئ بسبب تلك المخاطر.

دور الحج في تصحيح المفاهيم الخاطئة:

يقول محمد عبد السلام عمر"عندما ذهبت إلى الحج من السودان التقيت ببني جلدتي من فولتا العليا في الكعبة أثناء الطواف فسلمت على واحد وتعرفت عليه ثم أخبرته بأنّ أبي من منطقة (كايا) وأنا ولدت في السودان، قال لي الحمد لله الذي أنعم علي بنعمة الحج فإننا في منطقتنا لا يسمحون لك أن تصليّ مع الجماعة في الصف الأول ما لم تكن حاجاً إذن أنا بعد الآن سأكون من الذين يصلون في الصف الأول، وتابع محمد عبد السلام قائلاً "سبحان الله"ما علاقة الحج بالصلاة في الصف

[1] نفس المرجع ص126

[2] المرجع نفسه ص126.

الأول؟". لاشك أنّ هذا الأمر يدل على تعظيم شعيرة الحج لدى هؤلاء الناس ثم طلب منه فصل المسألة من أحد الشيوخ في الحرم الشريف.

ومن الاعتقادات الخاطئة أيضا أنّ الناس في فولتا العليا كانوا إذا أراد أحدهم السفر يخرج من باب المنزل وإذا رجع من السفر يشقون بابا آخر من خلف المنزل ويدخل من هناك مثلما كان يفعله العرب في الجاهلية أيضاً وذلك للفهم المغلوط للآية الكريمة لقوله تعالى "وليس البرّ أن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البرّ من اتقى وآتوا البيوت من أبوابها، سورة البقرة". أقول إنّ بعض الحجاج تأثروا ثقافياً بهذا الفهم المغلوط فعندما يذهبون إلى الحج يخرجون من الباب وعندما يرجعون يصنعون باباً آخر من الخلف ويذبحون ذبيحاً في الباب حتى يدخل الحاج الجديد منه. ولكن مع مرور الزمن تراجع الناس عن هذا الفعل.

ومن المعتاد أيضاً في بوركينافاسو (فولتا العليا سابقاً) أنّه في بعض المجتمعات إذا رجع الحاج بعد أدائه فريضة الحج وناداه شخص آخر باسمه دون أن يقول الحاج فلان لا يرضى وقد يحذرك من ذلك شفاهة وحتى بعض المجتمعات ترغم القائل بدفع قيمة 2 كيلو سكر نقداً.[1]

ومن المفاهيم المغلوطة أيضا أنّه إذا لبس شخص لم يؤد فريضة الحج العقال السعودي أو العباية السعودية للرجال يُنظر إليه كشخص مخالف للشرع.

أضف إلى ذلك أنّ الحاج إذا رجع إلى بيته لا يعاشر زوجته إلاّ بعد مرور أربعين يوماً، كما أنّه لا يرتاد الأسواق إلاّ بعد مرور أربعين يوما. ولا قدّر الله إذا وقع في الفاحشة حاجٌ يُعتقد أنّ حجه مردودٌ ولا يصح حجه إلاّ أن يحج من جديد.

من العادات والتقاليد النابعة عن ثقافة الحج أيضاً أنّ الشباب يعتقدون أنّ أداء فريضة الحج يكون في آخر عمر الإنسان والسبب في ذلك أنّهم يربطون التقوى بالحج وبعبارة أخرى أنّ الإنسان إذا حج وهو صغير فإنّ حجه سيمنعه من ملذات الدنيا وزينتها فلذلك الأفضل أن تحج في آخر عمرك.

الطور الثاني ويسمى بالطور الإصلاحي:

[1] مقابلة مع سيد محمود ويدروغو بمنزله في الانقاذ، الخرطوم، السودان بتاريخ 2016/09/12م

هي الفترة التي دخلت الدعوة الإسلامية في مواجهة مع المؤثرات الثقافية الداخلية على المجتمعات الإسلامية، كما أخذت في معالجة بعض الانحرافات التي سادت في أوساط تلك المجتمعات؛ كأن يعتنق بعض الناس الإسلام ويصلي ويصوم ويؤدي كل الواجبات ولكنه لا يزال يتمسك بالسحر والإيمان به فعلى سبيل المثال يروي لنا الشيخ عبد الكريم من شيوخ بوركينافاسو أنّ السحر أصبحت ثقافة في بعض المناطق حيث ذكر أنه (مع العلم أنه تاب توبة نصوحاً) قال عندما كانوا أولاداً صغاراً ويرعون الأغنام كانوا ينظمون مسابقات ومنافسات في معرفة السحر أثناء الرعي في الغابات وهم صغار وإذا غلب عليهم الأمر يرجعون إلى الكبار في البيت. وبعبارة أخرى أصبح معرفة السحر والعمل به واجب على كل إنسان منذ الطفولة في هذه المناطق فتعلُّم السحر أصبح مثل الروضة للأطفال [1]، وبعون الله قلّلت هذه الظاهرة في تلك المناطق من أجل الدعوة التي قام بها الدعاة والحجاج.

اقتصادياً نجد أنّ الحجاج أدخلوا بلاد الحجاز من بوركينافاسو زيوت أشجار الكاريتيه التي تدخل في الغذاء وفي التصنيع الغذائي بالإضافة إلى ثمرات الكولا وهي ثمار تدخل في كل المناسبات في أفريقيا الغربية مثلها مثل التمور، كما أنهم يحملون معهم الذهب ويبيعونه ويشترون من ثمنه الجلاليب والعبايات وبذلك أدخلوا الثقافة العربية في بوركينافاسو في اللبس.

الطور الثالث ويعرف بالطور الإزدهاري:

في هذه الفترة تم فيه الإندماج بين الدعوة الإسلامية وبين المؤثرات الإسلامية الموجودة، ويتبدّى في هذا الطور الطابع المحلي للثقافة الإسلامية. شرعت العناصر الإسلامية الوطنية من أبناء المسلمين والعلماء في تأسيس كيانات تشربت بالثقافة الإسلامية وعملت بدورها على نشر الإسلام مثل الجمعية الإسلامية في وغادوغو والعديد من الخلاوي القرآنية والطرق الصوفية وغيرها. اندمجت الثقافة العربية بلغة موري الأكثر تحدثاً في بوركينافاسو من قبل الحجاج الجدد الذين نقلوا إلى لغة موري بعض المفردات أصبحت متداولة في أوساط المسلمين بل أصبحت بعض المفردات

[1] محاضرات الشيخ عبد الكريم،حول السحر،قضى 19 سنة في عمل السحر ثم بعون الله تاب توبة نصوحا وهو من أبناء نمينتينغا بوركينافاسو، 2015م

يُنظر إليها كأنها موري الأصل مثل كلمة عافية في اللغة العربية تحولت إلى (لافية) أو (لافي) وكلمة (بركة) تارة بمعنى شكرا وتارة أخرى بمعنى بركة كما في اللغة العربية والزكاة هي (زَكَّ) والمربّي يقال له (مُوري) بمعنى فقيه أو شيخ وكلمة (الحج) هو الحج نفسه وكلمة (مسلم) يقال له (لحلامَ) وهكذا دواليك. وبفضل الحجاج والتجار كانت بعض الكتب الفقهية والأدبية واللغوية تدخل إلى بيوت المسلمين وعند التجار الذين كان لهم احتكاك بالتجار العرب.[1]

ولبعثة الأزهر الشريف دور عظيم في إنعاش اللغة العربية في بوركينافاسو حيث يقومون بالتدريس والوعظ وتأهيل المعلمين وتدريبهم.

وأوّل مدرسة نظامية للغة العربية والدراسات الإسلامية أسست قبل فجر الاستقلال مدرسة السلام عام 1947م ثم توالت بعدها المدارس العربية والإسلامية بعد الاستقلال مثل مدرسة الجمعية الإسلامية ومدارس أخرى كثيرة.

أصبحت المدارس العربية والدراسات الإسلامية تتطور من حيث الكم والكيف وأصبح الإقبال يتزايد عليها بفضل الله تعالى ثم بفضل الثمار التي أعطتها هذه المدارس في إعداد مواطنين صالحين يحبون دينهم ووطنهم.[2] والآن يوجد ما لا يقل عن ثلاث جامعات تدرّس باللغة العربية.

المبحث الرابع: الرؤية المستقبلية في طرق الحج التقليدية والحديثة:

ظهور الطائرة ومن قبلها الباخرة والسيارة أحدث تحولاً نوعياً في السفر للحج، ولكن مع ذلك فإنّ الملايين من المسلمين في أفريقيا لا يملكون إمكانية كافية لأداء فريضة الحج بالطرق الحديثة خاصة بالطائرات والتي بلغت تكلفة الحج للعام 2016م في بوركينافاسو ما لا يقل عن 5.000 آلاف دولار الأمريكي.

ويسعد الباحث في هذه السانحة أن يذكر مشروع إحياء خط سكة حديد كسلا الجنينه وربطه بالخط الحديدي العابرة للقارة الأفريقية. وفي وقت سابق في 2008م تقدم السودان بمقترح للمؤتمر الإسلامي لربط دول غرب أفريقيا من داكار حتى

---

[1] سيسي محمود، دور اللغة العربية في إعداد المعلم الناجح في بوركينافاسو، بحث تكميلي لنيل درجة البكالوريوس غير منشور،جامعة إفريقيا العالمية، ص7.

[2] المرجع نفسه ص9.

بورتسودان. وينبغي الذكر أنه عُقد مؤتمر في الخرطوم في ديسمبر 2009م ثم في مايو 2010م وخصص السودان قطعة أرض مميّزة بالخرطوم لبناء رئاسة المشروع عليها. ويذكر أيضا أنّ طول هذا الخط القاري سيكون حوالي 10.000 كم منها حوالي 6.000 كم قائمة حالياً والباقي ينظر في إنشائه. ويحتاج ذلك إلى التنسيق مع دول غرب أفريقيا. وبالطبع إذا بني هذا الخط سيكون عملاقاً. إنّ بناء هذا الخط سينجز أهداف دينية لأنه سيحقق أمنية الملايين من المسلمين في أفريقيا لأداء فريضة الحج خصوصاً مسلمي أفريقيا الغربية، وبذلك فقط أحيينا طرق الحج في أفريقيا.[1]

أما الطرق الحديثة فهي الآن مواكبة للتكنولوجيا ولابد للدول الإسلامية التعامل مع هذه التطورات الحديثة بدقة متناهية حتى تبقى الشعائر الإسلامية على أصولها. كما أنّ مستقبل الطرق الحديثة مهم للسلطات السعودية والأفريقية التي لا تغفل حجم ضيوف الرحمن الذين يتوافدون سنويا بشكل متزايد نظراً لسهولة الطرق الحديثة وإمكانية تحمل الطائرات أعداداً كبيرة بما يتناسب مع التوسعات التي تحدث في المسجد الحرام والتي تتيح مستقبلاً لعدد هائل من الحجاج أداء الطواف وبقية الشعائر في آن واحد دون مشكلة.

الخاتمة والتوصيات والمقترحات:

تتناولت هذه الدراسة الموقع الجغرافي لبوركينافاسو (فولتا العليا سابقا)، حيث كانت قسماً من مملكة مالي الإسلامية منذ القرن الخامس عشر ونالت استقلالها في عام 1960م وتم تغيير اسم البلاد من فولتا العليا إلى بوركينافاسو.دخل الإسلام إليها عن طريق التجارة ودخلت معه اللغة العربية.

طرق الحج القديمة في بوركينافاسو الأساسية قسمان هما:

1) الأولى من فولتا العليا إلى القاهرة عبر مالي ثم إلى الحجاز على الأقدام.
2) والثانية من فولتا العليا إلى السودان عبر النيجر ونيجيريا والكامرون وتشاد ثم إلى الحجاز على الأقدام وهذا النوع هو الأكثر استخداماً.

[1] مصطفى محمد خوجلي، تقويم إحياء خط سكة حديد كسلا وربطه بمشروع الخط الحديدي العابر للقارات، مجلة دراسات أفريقية العدد 54، ديسمبر 2015م. جامعة إفريقيا العالمية. ص26.

أما الطرق الحديثة فتتم الإجراءات عبر وكالات السفر للحج والعمرة بالتنسيق مع السلطات الوطنية والسعودية ويتم السفر بالطائرة.

أجرت مقارنة بين طرق الحج القديمة والحديثة من حيث الآثار والنتائج.

لرحلة الحج آثار على المجتمع البوركينابى اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً حيث عمل بعض الحجاج من فولتا العليا منذ القدم حراساً للكعبة المشرفة ولأمراء السعودية، وكان للحجاج أثر في الدعوة ونشر الدين الإسلامي على ثلاثة أطوار وهي التكويني والإصلاحي والطور الازدهاري.

التوصيات والمقترحات:

- إحياء طرق الحج القديمة لتحقيق أمنية الملايين من المسلمين في أفريقيا و ذلك بإحياء خط سكة حديد كسلا الجنينه وربطه بمشروع الخط الحديدي العابر للقارات.
- أن يعمل هذا المؤتمر على إعداد موسوعات عن اللغة والثقافة والآثار الإسلامية التي خلفتها طرق الحج في أفريقيا.
- يرجى من مراكز البحوث الإسلامية المختلفة إجراء بحوث ودراسات سنوية عن الحج ويقدم عليها جوائز قيمة للاستفادة منها للحج.
- أن يعالج هذا المؤتمر مشكلة تأشيرة العمرة والحج من أجل توفير فرص أوسع للمسلمين لأداء فريضة الحج والعمرة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

- القرآن الكريم
- مقابلة مع أبوبكر كوندا من أبناء بوركينافاسو، وباحث في علم اللغة التطبيقي، جامعة أفريقيا العالمية لنيل درجة الدكتوراه، بتاريخ 2016/8/26م، الخرطوم- السودان
- مقابلة شخصية مع الحاج إسحاق عبد الله عمر قدم من محافظة -كودوغو- فولتا العليا قاصدا الحج منذ الستينيات من القرن الماضي ماشيا على الأقدام، موضوع المقابلة طرق الحج القديمة من فولتا العليا إلى مكة المكرمة، 2016/7/31م الساعة 6 مساء بمنزل محمد عبد السلام أحمد عمر، بحيّ عد حسين، الخرطوم- السودان.
- مقابلة مع محمد عبد المؤمن موسى،شاهد على العصر و موظف سابق قنصلية فولتا العليا عام 1976م، دارت المقابلة في منزله في السجانة،الخرطوم – السودان. بتاريخ 2016/8/7م.
- مقابلة مع محمد ألفونس، موظف في قنصلية فولتا العليا منذ 1980م حتى الآن، ودارت المقابلة في منزله في مايو، الخرطوم – السودان بتاريخ 2016/8/13
- مقابلة مع الحاجة عائشة يونس عبد الله، المعروفة بالحاجة عائشة صوري، دور المرأة في طرق الحج القديمة، جرت المقابلة في منزلها في الحاج يوسف، الخرطوم، السودان، 13بتاريخ /2016/8م.
- مقابلة مع الشيخ سيساغو حميد شاهد على العصر، من أبناء الحجاج الأوائل من محافظة سانماتينغا. داخلية المودودي، جامعة أفريقيا العالمية بتاريخ 2016/9/4م.
- مقابلة مع باحث الدكتورة سيد محمود ويدروغو بمنزله في الانقاذ، الخرطوم، السودان بتاريخ 2016/09/12م

ثانيا: المراجع:

- ربيع محمد القمر الحاج، أثر الدعاة والحجاج والرحالة المسلمين في نشر الإسلام، مجلة دراسات أفريقية، العدد 17، رجب – رمضان 1434هـ الموافق يوليو- سبتمبر 2013م، ص125-126.

- مصطفى محمد خوجلي، تقويم إحياء خط سكة حديد كسلا وربطه بمشروع الخط الحديدي العابر للقارات، مجلة دراسات أفريقية العدد 54، ديسمبر 2015م. جامعة إفريقيا العالمية. ص26.
- سيسي محمود، تقويم أساليب الإشراف التربوي في المدارس الابتدائية الفرنسية الحكومية وتطبيقها في المدارس الابتدائية العربية الفرنسية الأهلية في بوركينافاسو، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، الخرطوم،2007 ص 20.
- سيسي محمود، دور اللغة العربية في إعداد المعلم الناجح في بوركينافاسو، بحث تكميلي لنيل درجة البكالوريوس غير منشور ،جامعة إفريقيا العالمية، ص7.
- محاضرات السفير الدكتور عمر عبد الماجد،المركز القومي للدراسات الدبلوماسية، وزارة الخارجية، 2015م الخرطوم، السودان.
- عمر عبد الماجد، تاريخ الدول والإمبراطوريات الإسلامية في السودان الغربي والأوسط، مركز الدراسات، الخرطوم، 2005م.
- محاضرات الشيخ عبد الكريم،حول السحر،قضى 19 سنة في عمل السحر ثم بعون الله تاب توبة نصوحا وهو من أبناء نمينتينغا بوركينافاسو، 2015م.

ثالثا: مواقع الإنترنت:

- http://www.gov.bf
- http://fr.wikipedia.org/wiki/Burkina_Faso
- http://www.alukah.net/world_muslims
- https://ar.wikipedia.org/wiki
- http://archive.aawsat.com/details.asp